جامعة
أم درمان الإسلامية
معهد بحوث و دراسات العالم الإسلامي

المزاوجة
بين الخبر والإنشاء
في النظم القرآني

بحث مقدم لنيل درجة الماجستير في البلاغة العربية

مقدم من / الطالب
أحمد محمد عبد الله بن سلمان
المشرف على البحث أ . د / فاروق الطيب البشير

١١ / ٥ / ١٤٢٧ هـ . ٨ / ٦ / ٢٠٠٦ م

المقدمة

الحمد لله رب العالمين . و الصلاة و السلام على أشرف الأنبياء و سيد المرسلين . و بعد ...

فلقد أنزل الله كتابه الكريم قيِّماً لا عوج فيه ، فقال _ سبحانه _ : ﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَنزَلَ عَلَى عَبْدِهِ الْكِتَابَ وَلَمْ يَجْعَل لَّهُ عِوَجَا ﴾ [الكهف : ١] ، و أحكمه أيَّما إحكام ، وفصّله أيَّما تفصيل فقال _ سبحانه _:﴿ كِتَابٌ أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ ﴾[هود:١] ، و أنزله بالحق ، و بالحق رعاه ، فقال : ﴿ وَبِالْحَقِّ أَنزَلْنَاهُ وَبِالْحَقِّ نَزَلَ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ مُبَشِّراً وَنَذِيرا ﴾ [الإسراء : ١٠٥] ، وحرسه وتكفَّل بحفظه ، ورعايته ، فقال : ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴾ [الحجر : ٩] ، و حفظه من كل باطل من بين يديه ومن خلفه فقال : ﴿ لا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِن بَيْنِ يَدَيْهِ وَلا مِنْ خَلْفِهِ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ ﴾ [فصلت : ٤٢] ، وصانه من كل خطأ وخلل ، ونزَّهه من كل نقص وعيب ، وبرَّأه من كل اختلاف وتناقض ، فقال : ﴿ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ اللّهِ لَوَجَدُواْ فِيهِ اخْتِلاَفاً كَثِيراً ﴾ [النساء : ٨٢] ، و يسَّره على عباده ليتلوه حق تلاوته ، فقال : ﴿ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴾ [القمر : ١٧] ، و دعاهم إلى تدبُّره و تأمُّله ، فقال : ﴿ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ ﴾ [محمد : ٢٤] ، و نزّله مفرقاً ليستوعبوه ، ومنجماً ليعايشوه ، فقال: ﴿ وَقُرْآناً فَرَقْنَاهُ لِتَقْرَأَهُ عَلَى النَّاسِ عَلَى مُكْثٍ وَنَزَّلْنَاهُ تَنزِيلاً ﴾ [الإسراء : ١٠٦]، و جعله معجزة للعرب في لغتهم ، فقال _ سبحانه _ : ﴿ قُرْآناً عَرَبِيّاً غَيْرَ ذِي عِوَجٍ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴾ [الزمر : ٢٨] و قال : ﴿ نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الأمِينُ ۞ عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنْذِرِينَ ۞ بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ ﴾ [الشعراء : ١٩٣ . ١٩٥] .

ذلك القرآن الذي أعجز الفصحاء و البلغاء وهم أهل اللسان ، و بهر الشعراء والأدباء وهم أهل البيان ، بديع النظم ، عجيب التأليف ، متناهٍ في البلاغة ، لا يستطيعه الإنس والجان ﴿ قُل لَّئِنِ

اجْتَمَعَتِ الإِنسُ وَالْجِنُّ عَلَى أَن يَأْتُواْ بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لاَ يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيراً﴾ [الإسراء : ٨٨] .

ذلك القرآن ، المعجزة الخالدة ، الذي لا تنقضي عجائبه ، ولا يَخْلَق من كثرة الرّد ، ما انفك العلماء ينهلون من نبعه الذي لا ينضب ، فهو المنبع للدراسات اللغوية و البلاغية ، لأنها نشأت في حضنه ولخدمته ، فهو السبب والغاية في نفس الوقت ، ولذلك يُعَدُّ المرآة الصادقة للتعبير عن الظواهر البلاغية ، كما يحظى بما لا يحظى به أيّ نص آخر من جماليات لغوية ولفتات بلاغية .

أهمية الموضوع: لقد كان وجهاً من وجوه إعجاز القرآن الكريم ميلاد القراءات القرآنية ، ذلك الكنز الثمين الذي يحمل درراً عظيمة ، يظهر بعضها في صورة التيسير والتسهيل على الأمة في قراءة القرآن ، ويختبئ بعضها الآخر في صورة أصداف كامنة في أغوار البحار ، مليئة بالمعاني والأسرار التي تحتاج إلى غواصين مهرة ليسبروا أغوارها ، ويكشفوا عن مكنوناتها ، ويستخرجوا لآلئها وجواهرها .

سبب اختيار الموضوع : إن تعدّد القراءات القرآنية في الموضع الواحد أمرٌ يستوقف الفكر ويسترعي النظر، وهو ما يجعل الآية تُقرأ بأكثر من وجه، وتحتمل أكثر من معنى ، كل ذلك مع مدى إمكانية الجمع بين هذه الوجوه والربط بين معانيها بصورة التكامل و الاتفاق ، وذلك لبناء السياق .

هدف البحث وما يضيفه : جاءت دراستنا حول القراءات القرآنية للكشف عن وجوه الإعجاز القرآني من خلال تعدُّد القراءات القرآنية في الموضع الواحد ، إذ إن إظهار وجه كل قراءة أمر كفتنا مؤونته كتب توجيه القراءات أو معاني القرآن وإعرابه ، ولكنَّ الجديد الذي يضيفه البحث هو الكشف عن إمكانية الجمع بين وجوه التعدد في منظومة مترابطة تحوي كل قراءات الموضع في عقد واحد تتكامل حباته ولا تتناقض ، وهو ما أشرنا إليه في عنوان الدراسة بمفهوم المزاوجة .

ويكمن سر المزاوجة في توظيفها لكل قراءة من القراءتين لتؤدي دورها الذي يتكاتف مع دور القراءة الأخرى في بنيان السياق ، وهذا الدور الذي تؤديه المزاوجة بين القراءتين في توظيفهما لبناء السياق يُلغي الاشتباك المتوهم بين القراءات القرآنية ، كما أنه ينحو بها منحى يتجاوز مسألة الترجيح

أو التصويب بين القراءات إلى البحث عن وجوه المعاني في مواضع تلك القراءات ، وبيان الأسرار التي تختبئ خلف ذلك التعدد في الموضع الواحد ، والجمع بين وجوهها حتى تبدو لنا في بناء واحد متكامل ، و عند البحث لم نجد من ذلك في كتب التراث إلا إشارات متناثرة عند ابن قتيبة في مُشْكِله ، أو عند النحاس في إعرابه ، أو عند أبي شامة في إبرازه ، فلقد كانت أغلب كتب التوجيه تذكر توجيه كلِّ آية على حدة ، دون العناية بالربط بين وجهي القراءة ، الأمر الذي حدا بنا إلى هذا الموضوع وذلك لقيمته وأهميته وفائدته وإظهاره كوجه من وجوه الإعجاز القرآني .

هذا وقد اقتصرت دراستنا على القراءات التي تختص بظاهرة بلاغية من ظواهر علم المعاني ، ألا وهي ظاهرة الخبر والإنشاء ، فاعتمدت القراءات التي تزاوجت أوجهها بين الخبر والإنشاء في الموضع الواحد ، ولذلك كان العنوان : المزاوجة بين الخبر والإنشاء في النظم القرآني ، **ونعني بالنظم القرآني** أنَّ تعدُّد القراءات القرآنية في الموضع الواحد إنما هو تعدُّد تكاملٍ وبناء ، لا تعدُّد تناقض وهدم ، فتكاملُ القراءة مع القراءة يكوِّن النظم ، فالنظم القرآني بنيان معجز متكامل ، كل قراءة فيه تمثل لبنة من لبنات هذا البنيان ، فهي تؤدي معنى لا يتعارض بالضرورة مع المعنى الذي تؤديه القراءة الأخرى ، بل يتكامل معها في بناء النظم القرآني المعجز .

وعند ذلك تظهر لنا أوجه القراءات المتعددة في وجه واحد متكامل ، ونظم قرآني فريد .

هذا وإني قد قمت بإحصاء مواضع القراءات القرآنية التي زاوجت بين الخبر والإنشاء ، وذلك من خلال القراءات العشر المتواترة ، ثم قمت بتصنيفها حسب أقسام الإنشاء والخبر كما سيظهر من خلال فصول البحث ، ثم بدراستها من خلال المنهج التحليلي الوصفي للنصوص ، ومن خلاله نتبيَّن قيمةَ كلِّ كلمة في النص ، وارتباطها بموقعها في السياق ، دلالياً ، ولغوياً ، ونحوياً ، وصرفياً ، وتكون هذه الدراسة التحليلية للنصوص من خلال استقراء مواضع هذه القراءات في سياقها ، والكشف عن وجوهها**من خلال المصادر الأساسية** في كتب توجيه القراءات ، وكتب معاني القرآن وإعرابه ، كمعاني القرآن للفرَّاء ، ومعاني القرآن للأخفش الأوسط ، ومعاني القرآن للزجَّاج ، ومعاني القرآن للنحَّاس،

وإعراب القرآن للنحَّاس . ومن كُتُب توجيه القراءات : معاني القراءات للأزهري ، والحجة في القراءات السبع لابن خالويه ، والحجة للقراء السبعة لأبي علي الفارسي ، وحجة القراءات لأبي زرعة ، والكشف عن وجوه القراءات السبع وعللها وحججها لمكي بن أبي طالب ، والموضح لابن أبي مريم ، والدرُّ المصون للسمين الحلبي . و من كتب التفسير : تفسير الطبري ، وكشاف الزمخشري ، والمحرر الوجيز لابن عطية الأندلسي ، وزاد المسير لابن الجوزي ، وتفسير القرطبي ، والبحر المحيط لأبي حيان ، وتفسير أبي السعود العمادي ، وفتح القدير للشوكاني ، وروح المعاني للألوسي ، والتحرير والتنوير للطاهر ابن عاشور .

ومن خلال هذا الاستقراء تكون عملية رصد الإشارات ، والتقاط السوانح و النكات ، وتوظيف الروابط ، والكشف عن معاقد المعاني ، وذلك للمزاوجة بين هذه القراءات ، بالجمع بين وجوهها ، وتوظيف كل قراءة لإكساب النص خصوبة دلالية تفيد في فهم النص من جميع جوانبه ، ومن ثمَّ إبراز نتيجة المزاوجة ومحصِّلتها بين القراءتين ، والدور الذي أدته من توسيعٍ لمفهوم الآية و مشمولها ، الأمر الذي أفاض على النص دلالات كثيرة أدَّت إلى إثراء السياق .

ومن هنا فإنَّ المنهج الذي انتهجته في هذه الدراسة يتلخص فيما يأتي :

دراسة وتحليل المواضع التي يتزاوج فيها الخبر مع الإنشاء من خلال المنهج التحليلي الوصفي والاستقرائي للنصوص ، و تعتمد الدراسة على المواضع التي تعدَّدت أوجهها من خلال تعدُّد القراءات القرآنية في الموضع الواحد ، و ليس من قبيل تعدُّد التقديرات أو الوجوه الإعرابية المحتملة في الآية الواحدة . فأبدأ الحديث في كل موضع بتوثيق القراءة ، ثم الحديث عن وجهيها الخبري والإنشائي وما قيل في توجيههما من خلال تحليل النص دلاليا ولغويا، ثم أختم الموضع بذكر محصلة المزاوجة بينهما وما أضافته إلى الآية في سياقها ، معتمداً في دراستي هذه على القراءات العشر الصحيحة المتواترة ، وما عدا ذلك فلم أتعرض له إلا على سبيل الاستشهاد والتأييد ، ليس غير .

مشكلة البحث : بناءً على معالم هذا المنهج فإني لم أجد بحثاً مستقلاً في هذا الموضوع ، بحيث تُفْرَدُ مسألةُ المزاوجة بين الخبر والإنشاء في القراءات القرآنية العشر في دراسة مستقلة ، إلا ما كان من مباحث ضمنية من خلال بعض الكتب التي تحدثت عن الخبر والإنشاء كظاهرة من الظواهر البلاغية في القراءات القرآنية ، ككتاب (التوجيه البلاغي للقراءات القرآنية) للدكتور / أحمد سعد محمد ، الذي اقتصر مبحثه الثاني من فصله الثاني من فصول الباب الثاني لكتابه على التغاير بين أسلوب الإخبار وأساليب الاستفهام والأمر والنهي ، كما تضَمنت دراسته القراءات الصحيحة والشاذة ، وقد خرج إلى دراسة أثر التغاير بين الاستفهام والاستفهام . وكتاب آخر بعنوان (القراءات القرآنية وأثرها في التفسير والأحكام) للدكتور / محمد بن عمر بازمول ، الذي تضمَّن مبحثُ القراءات المتعلقة بالخبر والإنشاء على القراءات المتواترة والشاذة ، وقد جمع بين أسلوبين خبريين أو أسلوبين إنشائيين ، كما أنه لم يهتم بشكل واضح بمسألة تحديد أثر المزاوجة بين القراءتين .

وعلى ما في هذه المباحث الضمنية من توافق مع دراستنا في المادة إلا أنها مختلفة عنها في المنهج وتحقيق الهدف ، ولذلك جاءت دراستنا لتحقيق الهدف الذي حددته بمنهج واضح المعالم .

هذا وقد جاءت هذه الدراسة في مقدمة وتمهيد وخمسة فصول وخاتمة وفهارس .

فأما المقدمة فقد بيّنت أهمية الموضوع وهدفه وسبب اختياره ، وبينت المراد بالمزاوجة والنظم، وأشارت إلى منهج الدراسة وأبرز مصادرها والدراسات السابقة وخطتها وطريقة تناولها .

ثم جاء التمهيد بين يدي الدراسة ممثلاً الجانب النظري،وذلك من خلال التعريف بمصطلحات الدراسة ، كالخبر والإنشاء ، وتأصيلها لغوياً وبلاغياً من كتب اللغة وكتب البلاغة كالكتاب ، والصاحبي ، والخصائص ، ودلائل الإعجاز ، ومفتاح العلوم ، والإيضاح ، وشروح التلخيص ، وغيرها...

هذا وقد أشار التمهيد من خلال هذا التعريف إلى طبيعة الخبر وأغراضه وأضربه ، ثم إلى طبيعة الإنشاء وأقسامه ، ثم إلى طبيعة المزاوجة بينهما ، وصورها ومزاياها ...ثم عرَّج _ في نبذة مختصرة _ على علم القراءات وضوابطها والمتواتر منها وفوائدها ، وعرَّف بالقرَّاء العشرة ورواتهم ؛ ثم ختم بمسألة مهمة ، وهي عدم الترجيح بين القراءات الصحيحة المتواترة ، وإنما الأوْلى هو توجيهها والمزاوجة بينها .

ثم جاءت الدراسة التطبيقية بعد ذلك لمواضع القراءات التي زاوجت بين الخبر والإنشاء من خلال الفصول الآتية :

الفصل الأول : المزاوجة بين الخبر و الاستفهام وأثرها في إثراء دلالات السياق ، وفيه ثلاثة مباحث :

المبحث الأول : المزاوجة بين الخبر والاستفهام لإثراء السياق بدلالات الإنكار والتوبيخ .

المبحث الثاني : المزاوجة بين الخبر والاستفهام لإثراء السياق بدلالات الإنكار والتكذيب .

المبحث الثالث : المزاوجة بين الخبر والاستفهام لإثراء السياق بدلالات التقرير والتأكيد .

الفصل الثاني : المزاوجة بين الخبر والأمر وأثرها في إثراء دلالات السياق ، وفيه ثلاثة مباحث :

المبحث الأول : المزاوجة بين الخبر وصيغة فعل الأمر .

المبحث الثاني : المزاوجة بين الخبر والمضارع المقترن بلام الأمر .

المبحث الثالث : المزاوجة بين الخبر والمصدر النائب عن فعل الأمر .

الفصل الثالث : المزاوجة بين الخبر والنهي وأثرها في إثراء دلالات السياق .

وفيه مبحثان :

المبحث الأول : المزاوجة بين الخبر و النهي لإظهار دلالات التكاتف و التقوية .

المبحث الثاني : المزاوجة بين الخبر و النهي لإظهار دلالات التأكيد .

الفصل الرابع : المزاوجة بين الخبر والنداء وأثرها في إثراء دلالات السياق .

وفيه مبحثان :

المبحث الأول : المزاوجة بين الخبر و النداء لإثراء السياق بدلالات الإقرار و الخضوع .

المبحث الثاني : المزاوجة بين الخبر و النداء لإثراء السياق بدلالات البيان و الاستعطاف .

الفصل الخامس : المزاوجة بين الخبر والتمني وأثرها في إثراء دلالات السياق .

ثم جاءت الخاتمة التي تضمنت أبرز نتائج هذه الدراسة .

أما طريقتي في تناول الدراسة ، فتتلخص فيما يلي :

١ ـ صنَّفتُ الفصول بحسب المزاوجة بين الخبر وبين كل قسم من أقسام الإنشاء الطلبي ، وذلك أنَّ الخبر قسيم الإنشاء ، فيتزاوج مع كل قسم من أقسامه .

٢ ـ رتَّبت الفصول حسب ترتيب كتب البلاغة القديمة لأقسام الإنشاء الطلبي وأخَّرت التمني لأنه يحوي موضعاً واحداً فقط .

٣ ـ صنَّفت المباحث اعتباراً على دلالات المزاوجة ومحصِّلتها .

٤ ـ رتَّبت مواضع الآيات المدروسة في المبحث معتبراً ترتيب المصحف للسور والآيات .

٥ ـ أما المواضع التي تشترك بين أكثر من آية فإنها توضع في آخر المبحث نفسه .

٦ ـ بعض المواضع يمكن وضعها في أكثر من موضع ؛ لأنها تدل على أكثر من دلالة ، وذلك ما يؤكد ثراء النص القرآني بالمعاني الدلالية ، وأنه يقبل كذا وكذا وهي خاصية للنص القرآني دون غيره ، فهو حمَّالُ أوجه .

٧ ـ تتفاوت بعض الفصول في الدراسة عن بعضها الآخر قصراً وطولاً ، ومرجع ذلك أنَّ الدراسة تعتمد على تصنيف القراءات في الفصول حسب مواضعها . فحظي الاستفهام مثلاً بمواضع قرائية أكثر من غيره فلا سبيل إلا بتصنيف كل قراءة في الفصل المناسب لها ، ومواضع القراءات نص لا اجتهاد فيه .

أما ما يختص بالحاشية فما يلي :

١- تَمَّ توثيق جميع القراءات الواردة في الدراسة من خلال أشهركتب توثيق القراءات ، وهي : السبعة لابن مجاهد ، والتذكرة في القراءات الثمان ، والتيسير في القراءات السبع ، والنشر في القراءات العشر ، كلٌّ بحسب وروده .

٢- أضع رقم الحاشية في آخر الكلام المنقول نصاً عن مرجعه ، أما ما نُقل ليس نصاً واحتوى نفس المعنى في عدة مراجع تناولت الموضع ، فأضع الرقم في أثناء الكلام وأشير في الحاشية إلى تلك المصادر والمراجع مُصدَّراً بكلمة (ينظر :) .

٣- أنسب الكتاب إلى صاحبه مباشرة ، كـ (معاني الأزهري) ، (معاني الزجاج) ، (الحجة لابن خالويه) ، (الحجة للفارسي) ، (حجة أبي زرعة) ، (تفسير أبي السعود) ، وهكذا ...

وفي نهاية المطاف .....

لا يسعني إلا أنْ أزجي آيات الشكر معطرة لسعادة الأستاذ الدكتور / فاروق الطيب البشير على إشرافه على هذه الرسالةوما تفضل به من ملحوظات وتوجيهات ،كما أشكر جامعة أم درمان الإسلامية ممثلة في معهد بحوث ودراسات العالم الإسلامي على إتاحتي هذه الفرصة ، كما أشكر زملائي وأساتذتي في كلية المعلمين بمحافظة جدة ، وأخص منهم سعادة الدكتور / حامد السيوطي الذي رعى هذا البحث وليداً حتى شبَّ عن الطوق ، كما أشكر كل من مدَّ يد العون إليَّ بنصح أو توجيه أو إرشاد .

وبعد ... فإن كان من توفيق فمن الله وحده ، فله الحول ، وله الطول ، وعليه التكلان ، وإن كان من خطأٍ أو زللٍ أو نسيان ، فمن نفسي ومن الشيطان ، و الله ورسوله منه بريئان ، وأستغفر الله من أدنى زيادة على كلامه أو نقصان ، وحسبي أني اجتهدت وأن المجتهد له أجران ، وصلى الله وسلم على عبده ورسوله محمد ، وعلى آله وصحبه أجمعين .

التمهيد

التمهيد

في أنواع الكلام

جرت العادة في كلام الناس أنْ يستخدموه خبراً أو إنشاءً ، فمن نقل كلاماً معيناً لإفادة مستمعه مالم يكن عنده استخدمه على طريقة الإخبار ، ومن طلب أمراً غير موجود وقت الكلام استخدمه على طريقة الإنشاء ، وهذا مما اتفقت عليه اللغات ، فمحاكاة الناس فيما بينهم إما خبر وإما طلب ، فكلٌّ يتخير الكلمات ويركِّبها بالطريقة التي تناسب المعاني المراد إيصالها للمخاطبين .

هذا وقد قسَّم أهل المعاني الكلام أقساماً [1]كثيرة غير الخبر والإنشاء ، قال ابن قتيبة : ((والكلام أربعة : أمر ، وخبر ، واستخبار ، ورغبة)) [2] وقال البطليوسي عند شرحه لكلام ابن قتيبة السابق : وقوله ((والكلام أربعة : أمرٌ ، واستخبارٌ ، وخبرٌ، ورغبةٌ : لم يختلف أحد من المتقدمين والمتأخرين في أصول الكلام أنها ثلاثة : اسم وفعل وحرف جاء لمعنى ، ويسمى الفعل كلمة ، ويسمى الحرف أداةً ورابطاً ، فأما معاني الكلام الذي يتركب من هذه الأصول ، فإن المتقدمين والمتأخرين ، قد اختلفوا في أقسامها ، كم هي ؟ فزعم قوم أنها لاتكاد تنحصر ، ولم يتعرضوا لحصرها ، وهو رأي أكثر النحويين البصريين من أهل زماننا .

وزعم قوم أنَّ الكلام كلَّه قسمان : خبرٌ وغير خبرٍ . وهذا صحيح ؛ ولكن يحتاج كل واحد من هذين القسمين إلى تقسيم آخر .

وزعم آخرون أنها عشرةٌ :نداءٌ ، ومسألةٌ ، وأمرٌ ، ونهيٌ ، وتشفُّعٌ ، وتعجبٌ ، وقسَمٌ ، وشرطٌ ، وشكٌ ، واستفهامٌ .

وزعم آخرون أنها تسعةٌ ، وأسقطوا الاستفهام ، لأنهم رأوه داخلاً في المسألة .

---

(١) ينظر : أمالي ابن الشجري ٣٩٠.٣٨٨/١ ، ٤٢٤/١ ، شرح شذور الذهب ٣٣ ، عروس الأفراح. شروح التلخيص ١٧٣.١٧٢/١ ، البرهان في علوم القرآن ٣١٦/٢ ، الإتقان في علوم القرآن ١٤٧/٢ .

(٢) مقدمة أدب الكاتب ص ٤ .

وزعم قوم أنها ثمانيةٌ ، وأسقطوا التشفُّع ، لأنهم رأوه داخلاً في المسألة كدخول الاستفهام .

وزعم قوم أنها سبعةٌ ، وأسقطوا الشك لأنه من قسم الخبر.

وزعم آخرون أنها ستةٌ ، وأسقطوا الشرط لأنهم رأوه من قسم الخبر.

وكان أبو الحسن الأخفش يرى أنها ستةٌ ، وهي الخبر، والاستخبار، والأمر ، والنهي ، والنداء ، والتمني .

وقال قوم هي خمسةٌ : قول جازمٌ ؛ وهو خبر ، وأمر ، وتضرُّع ، وطلب ، ونداء .

وقال جماعة من النحويين : الكلام أربعة : خبر، واستخبار، وطلب ، ونداء . فجعلوا الأمر والنهي داخلين تحت الطلب ، والتمني داخلاً تحت الخبر.

وقال آخرون : وهم الذين حكى قولَهم ابن قتيبة : أقسام الكلام أربعة : أمرٌ ، واستخبارٌ ، وخبرٌ ، ورغبةٌ .

وقال قوم : هي ثلاثة : أمرٌ ، واستخبارٌ، وخبرٌ، وجعلوا الرغبة داخلةً في الأمر »[1] .

وقال ابن فارس في باب معاني الكلام : « وهي عند بعض أهل العلم عشرة : خبر ، واستخبار ، وأمر ، ونهي ، ودعاء ، وطلب ، وعرض ، وتحقيق ، وتمن ، وتعجب »[2] .

وبعد هذا الاختلاف والتفصيل في ذكر هذه الأقسام فإنَّ الذي عليه المحققون من علماء المعاني ، أنَّ الكلام ينقسم إلى قسمين : خبر وإنشاء .

قال القزويني : « الكلام إما خبر أو إنشاء ؛ لأنه إما يكون لنسبته خارج تطابقه ، أو لا تطابقه ، أو لا يكون لها خارج ، الأول الخبر، والثاني الإنشاء »[3] .

(١) الاقتضاب في شرح أدب الكتّاب ٤٤.٤٣/١ ، وينظر شرح أدب الكاتب لأبي منصور الجواليقي ٣٥.٣٤ .

(٢) الصاحبي في فقه اللغة العربية ومسائلها١٨٣ .

(٣) الإيضاح ٥٦.٥٥/١

وقال السعد التفتازاني : ((وتحقيق ذلك أنَّ الكلام إما أنْ تكون نسبته بحيث تحصل من اللفظ ويكون اللفظ موجداً لها من غير قصد إلى كونه دالاً على نسبة حاصلة في الواقع بين الشيئين وهو الإنشاء ، أو تكون نسبته بحيث يقصد أنَّ لها نسبة خارجية تطابقه أو لا تطابقه وهو الخبر)) [1].

وقال ابن يعقوب المغربي : ((الكلام الذي يحسن السكوت عليه لا محالة يتضمن نسبة المسند إلى المسند إليه ، فإنْ كان القصد منه الدلالة على أنَّ تلك النسبة المفهومة من الكلام حصلت في الواقع ووقعت في الخارج بين معنى المسند والمسند إليه ، فذلك الكلام خبر، وإنْ كان القصد الدلالة على أنَّ اللفظ وُجدت به تلك النسبة فالكلام إنشاء))[2]. وعلى هذا فإنَّ الكلام ينقسم إلى هذين القسمين ويُعْتَبر بهذين الاعتبارين ، فما يتوقف وجوده على لفظ المتكلم فهو الإنشاء ، وما لا يتوقف وجوده على لفظ المتكلم فهو الخبر .

ومن هنا نستطيع أنْ نتلمس ملامح هذين القسمين ، فالخبر له نسبة خارجية تطابقه أو لا تطابقه ، بخلاف الإنشاء الذي توجد نسبته بحصول لفظه .

إذن فالخبر والإنشاء لهما طبيعتان مختلفتان فتلك موجودة مرتبطة بالواقع ، وهذه ناشئة وليدة . وهو ما سنتناوله بالحديث الآن ....

(١) مختصر السعد . شروح التلخيص ١٦٧/١ .

(٢) مواهب الفتاح . شروح التلخيص ١٦٨/١ .

الخبــر

إذا أردنا أنْ نتحدث عن طبيعة الخبر وارتباطه بالواقع ، وهل يطابقه أو لا ؟ وجدنا أنفسنا أمام احتمالين : الصدق والكذب ، فهو منحصر فيهما ، فإذا طابق الخبر الواقع وَسَمْنَاه بالصادق ، وإذا لم يطابق الواقع وسَمْناه بالكاذب ، كما قال القزويني : ((اختلف الناس في انحصار الخبر في الصادق والكاذب ، فذهب الجمهور إلى أنه منحصر فيهما ، ثم اختلفوا ، فقال الأكثر منهم : صدقه مطابقة حكمه للواقع ، وكذبه عدم مطابقة حكمه له. هذا هو المشهور وعليه التعويل)) [١].

واحتمالية الصدق والكذب المرتبطة بالواقع متعلقة بذات الخبر لا بقائله ، فقولنا : محمد مسافر ، يحتمل الصدق والكذب بالنظر لذات الخبر ، وعليه فالخبر هو ما يحتمل الصدق والكذب لذاته [٢] بقطع النظر عن قائله . وهذا بالطبع يخرج ما كان صادقاً قطعاً ، وما كان كاذباً قطعاً ، فقولنا : السماء فوقنا ، هذا خبر صادق قطعاً لا يحتمل التكذيب لأنه من المسلَّمات المألوفة ، وأخبار الله تعالى . وهي محلّ دراستنا . وأخبار رسوله وأنبيائه . صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين . صادقة قطعاً وذلك بالنظر لمن قالها ، وكذلك الحال في أخبار المتنبئين في دعوى النبوة فهي كاذبة قطعاً بالنظر إلى قائليها .

هذا وفي ظلال ما سبق فإن للخبر صوراً وأساليب كثيرة ، منها : أنّ الخبر منه جزم ، ومنه مستثنى ، ومنه ذو شرط . فالجزم مثلُ : زيدٌ قائمٌ وقد جزمْتَ في خبره على قيامه ، والمستثنى : قام القوم إلا زيداً ، فقد استثنيتَ زيداً ممن قام ، وذو الشرط : إذا قام زيدٌ صِرْتُ إليك ، فإنما يجب مصيره إليه إذا قام زيد ، فهو معلق بشرط .

---

(١) الإيضاح ٥٩/١ .

(٢) ينظر: مفتاح العلوم ١٦٦ ، دلالات التراكيب ١٩٩.٢٠٠ ، جواهر البلاغة ٥٥، البلاغة فنونها وأفنانها (علم المعاني) ١٠١، علم المعاني دراسة بلاغية ونقدية لمسائل المعاني ٦٢/١.٦٣ .

وكلُّ واحدٍ من هذه المعاني إمَّا أن يكون مثبتاً وإمَّا أن يكون منفياً ، فالمثبت كقولك : قامَ زيدٌ ، والمنفيُّ : ما قام زيدٌ ، والمستثنى من المثبت منفيّ ، والمنفيّ إذا استثنى منه مثبت .

وليس يخلو الخبرُ المثبتُ أو المنفيّ من أن يكون واجباً أو ممتنعاً أو ممكناً . فالواجب مثلُ : النارُ محرقةٌ ؛ لأنه واجبٌ في طبعها ، والممتنعُ مثلُ : الثلجُ حارٌ ؛ لأنّ ذلك ممتنع في طبعه ، والممكنُ مثلُ : قامَ زيدٌ ؛ لأنه قادر عليه ، وجائز أنْ يقع أو لا يقع .

ثمَّ لا يخلو الخبر بعد هذا كلِّه من أن يكون عمَّا مضى ، مثل : قامَ زيدٌ ، أو عمَّا يستقبل ، مثل : سيقوم زيدٌ ، أو عمَّا أنت فيه ، مثل : زيدٌ قائمٌ .

ولا يخلو بعد ذلك من أن يكون عامّاً كلّياً ، أو خاصّاً جزئياً . فكلُّ ما ظهر فيه حرف العموم فهو عامّ ، مثل :كلُّ القومِ جاءنا ، وجميع المال أنفقتُ ، ومنه قوله تعالى : ﴿كُلُّ شَيءٍ هَالِكٌ إلا وَجْهَه ﴾ [القصص : ٨٨] ، فهذا لا يجوز أن يراد به الخصوص لظهور حرف العموم فيه ، وكلُّ ما ظهر فيه حرف الخصوص فهو خاصٌّ ، مثل قولك : بعض المالِ قبضْتُ ، ومن القومِ مَنْ جاءنا ، ومثل قوله تعالى : ﴿ وَمِنَ الأَعْرابِ مَنْ يَتَّخِذُ ما يُنْفِقُ مَغْرَماً ﴾ [التوبة : ٩٨] فهذا لا يجوز أَنْ يُرَادَ به العمومُ لظهورِ حرف الخصوص فيه .

هذا وإنَّ للخبر أغراضاً أصلية يلقى من أجلها ، فالأصل فيه أنْ يُلقى لأحد غرضين : [1]

١ . إما لإفادة المخاطب الحكم الذي تضمنته الجملة إذا كان جاهلاً له ، ويسمى ذلك الحكم "فائدة الخبر" نحو : (الدين المعاملة) .

٢ . وإما لإفادة المخاطب أنَّ المتكلمَ عالمٌ أيضاً بالحكم الذي يعلمه المخاطب ،كقول خديجة ـ رضي الله عنها ـ للنبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ : " إنك لتصدق الحديث ، وتصل الرحم ، وتؤدي الأمانة " ، وهو يعلم هذه الخصال في نفسه ، ولكن الشيء الجديد في هذا الخبر أن السيدة خديجة أعلمته أنها تعرف عنه هذا الخلق ، ويسمى ذلك الحكم " لازم الفائدة " .

(١) ينظر : مفتاح العلوم ١٦٦ ، الإيضاح ٦٥/١-٦٧ ، شروح التلخيص ١٩٢/١-١٩٦، جواهر البلاغة ٥٦ .

وقد يلقى الخبر على خلاف الأصل لأغراض أخرى تستفاد من سياق الكلام ، ومنها : [1]

١ . الاسترحام والاستعطاف ، نحو : إني فقير إلى عفو ربي .

٢ . وتحريك الهمة إلى ما يلزم تحصيله ، نحو : ليس سواء عالم وجهول .

٣ . وإظهار الضعف والخشوع ، نحو : ﴿ رَبِّ إِنِّي وَهَنَ العَظْمُ مِنِّي ﴾ [مريم : ٤] .

٤ . وإظهار التحسر والحزن ، نحو : ﴿ رَبِّ إِنِّي وَضَعْتُهَا أُنثَى ﴾ [آل عمران : ٣٦] .

٥ . وإظهار الفرح بمقبل ، والشماتة بمدبر ، نحو : ﴿ جَاءَ الحَقُّ وَزَهَقَ البَاطِلُ ﴾ [الإسراء : ٨١] .

٦ . والتوبيخ ، كقولك للعاثر: الشمس طالعةٌ .

٧ . التذكير بما بين المراتب من التفاوت ، نحو : لا يستوي كسلان ونشيط .

و غير ذلك من الأغراض الأخرى . . .

هذا وقد ذكر البلاغيون للخبر أضرباً ثلاثة تتناسب مع أحوال المخاطب بحيث يقتصر التركيب على قدر الحاجة المناسب لحاله ، وهي[2] :

١. أن يكون المخاطب خالي الذهن من الحكم بأحد طرفي الخبر على الآخر ، والتردد فيه ، فيستغنى عن مؤكدات الحكم . كقولك : جاء زيد ، وعمرو ذاهب . فيتمكن في ذهنه لمصادفته إياه خالياً .

٢ـ أن يكون متصوراً لطرفيه ، متردداً في إسناد أحدهما إلى الآخر ، طالباً له ، فيحسن تقويته بمؤكد . كقولك : لَزيدٌ عارف ، أو إنّ زيداً عارف .

٣ـ أن يكون حاكماً بخلافه ، فيجب توكيده بحسب الإنكار ، فتقول : (إني صادق) ، لمن ينكر صدقك ولا يبالغ في إنكاره، و (إني لصادق) لمن يبالغ في إنكاره .وعليه قول الله تعالى : ﴿ وَاضْرِبْ لَهُم مَّثلاً أَصْحَابَ القَريةِ إِذْ جاءها المرسَلون ۞ إِذْ أَرْسَلْنا إِليْهِمُ اثْنَينِ فَكَذَّبوهُمَا فَعَزَّزْنا

(١) ينظر : الصاحبي ١٨٣.١٨٤ ، البلاغة فنونها وأفنانها (علم المعاني) ١٠٧.١١٠ .

(٢) ينظر : مفتاح العلوم ١٧٠.١٧١ ، الإيضاح ٧٢.٦٩/١ ، شروح التلخيص ٢٠٩.٢٠١/١ ، جواهر البلاغة ٥٧. ٥٨ ، البلاغة العربية في ضوء الأسلوبية ونظرية السياق ٦٨.٦٧ ،البلاغة والاتصال ٤٩.٤٨ .

بِثَالِثٍ فَقَالُوا إِنَّا إِلَيْكُم مُّرْسَلُون ۞ قَالُوا مَا أَنتُمْ إِلا بَشَرٌ مِثْلُنا وَمَا أَنْزَلَ الرَّحْمَنُ مِن شَيْءٍ إِنْ أَنتُم إِلا تَكْذِبُونَ ۞ قَالُوا رَبُّنا يَعْلَم إِنَّا إِلَيكُم لَمُرْسَلُونَ ﴾ [يس : ١٣ . ١٦] حيث قال في المرة الأولى : (إنا إليكم مرسلون) وقال في الثانية : (إنا إليكم لمرسلون) .

ويؤيد ما ذكرناه جواب أبي العباس المبرد للكندي [١]، عند قوله : إني أجد في كلام العرب حشواً ، يقولون : عبد الله قائم ، وإنّ عبد الله قائم ، وإنّ عبد الله لقائم ، والمعنى واحد . بأنْ قال له : بل المعاني مختلفة ، فعبد الله قائم ، إخبار عن قيامه ، وإنّ عبد الله قائم ، جواب عن سؤال سائل ، وإنّ عبد الله لقائم جواب عن إنكار منكر .

ويسمى النوع الأول من الخبر ابتدائياً ، والثاني طلبياً ، والثالث إنكارياً .

وإخراج الكلام على هذه الوجوه إخراج على مقتضى الظاهر، وكثيراً ما يخرج الكلام عن مقتضى الظاهر لاعتبارات يلحظها المتكلم ،كما في الحالات الآتية [٢] :

١ . تنزيل العالم بفائدة الخبر، أو لازمها ، أو بهما معاً منزلة الجاهل .

٢ . تنزيل خالي الذهن منزلة السائل المتردد .

٣ . تنزيل الخالي منزلة المنكِر ، إذا ظهر عليه شيء من أمارات الإنكار .

٤ . تنزيل المتردد منزلة الخالي .

٥ . تنزيل المتردد منزلة المنكِر .

٦ . تنزيل المنكِر منزلة الخالي .

٧ . تنزيل المنكِر منزلة المتردد .

(١) دلائل الإعجاز ٣١٥.

(٢) شروح التلخيص ١/٢٠٩.٢٢٣ ، جواهر البلاغة ٥٨.٦٠ ، البلاغة فنونها وأفنانها ١٢٩.١٣٦.

هذا وإن كان الفارق بين الخالي و المتردد و المنكِر يعتمد على عدد المؤكدات في الجملة ، فيحسن بنا هنا أن نشير إلى أدوات توكيد الخبر ، وهي كثيرة ، ومنها [٣] : (إنَّ) : وهي الأصل في التوكيد [١]،كقوله تعالى : ﴿ إِنَّ اللهَ بِالنَّاسِ لَرَؤُوفٌ رَحِيم ﴾ [الحج : ٦٥] ، و (أنَّ) ، كقوله تعالى : ﴿ لِتَعْلَمُوا أَنَّ اللهَ عَلَى كُلِّ شَيءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ اللهَ قَد أَحَاطَ بِكُلِّ شَيءٍ عِلْماً ﴾ [الطلاق : ١٢] ، و (لام الابتداء) ، كقوله تعالى : ﴿ لأَنتُم أَشَدُّ رَهبَةً في صُدُورِهِم مِن الله ﴾ [الحشر : ١٣] ، و (القسَم) ، مثل قوله تعالى : ﴿ فَلا وَرَبِّكَ لا يُؤمِنُون حَتى يُحَكِّمُوك فِيمَا شَجَرَ بيْنَهُم ﴾ [النساء : ٦٥] ، و (أحرف التنبيه) ، نحو قوله تعالى : ﴿ هاأنتُمْ أُولاءِ تُحِبُّونَهم وَلا يُحِبُّونَكُم ﴾ [آل عمران : ١١٩] ، وقوله تعالى : ﴿ أَلا إِنَّ أَوْلِيَاء اللهِ لا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُون ﴾ [يونس : ٦٢] ، و (نونا التوكيد) ، الثقيلة المشددة المفتوحة والخفيفة الساكنة ، وقد اجتمعتا في قوله تعالى : ﴿ وَلَئِن لَّمْ يَفْعَلْ مَا آمُرُهُ لَيُسْجَنَنَّ و َلَيَكُونَنْ مِنَ الصَّاغِرِين ﴾ [يوسف : ٣٢] ، و (التكرار) ، كقوله تعالى : ﴿كَلا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ۞ ثُمَّ كَلا سَوْفَ تَعْلَمُون ﴾ [التكاثر : ٣ ـ ٤] ، و (أمَّا الشرطية) التفصيلية ،كقوله تعالى : ﴿ وَأَمَّا مَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحاً فَلَهُ جَزَاءً الْحُسْنَى ﴾ [الكهف : ٨٨] ، و (قد) حينما تدل على التحقيق ،كقوله تعالى : ﴿ وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ لِمَ تُؤْذُونَنَي وَقَد تَعلَمُونَ أَنِّي رَسُولُ اللهِ إِلَيْكُم ﴾ [الصف : ٥] ، و (السين و سوف) وهما حرفان يدخلان على المضارع فيمحضانه للاستقبال ، ومنه قوله تعالى : ﴿ سَيَجعَلُ اللهُ بَعْدَ عُسْرٍ يُسْراً ﴾ [الطلاق : ٧] ، والحروف التي سموها زوائد ، وهي (مِنْ) الاستغراقية ، و (الباء) الواقعة في خبر ليس ، و (إنْ) بكسر الهمزة الواقعة بعد النفي ، و (أنْ) بفتح الهمزة الوقعة بعد لمَّا الظرفية ، و (ما) ، و (ضمير الفصل) ، كقوله تعالى : ﴿ أُولَئِكَ عَلَى هُدىً مِن رَّبِهِم وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴾ [البقرة : ٥] .

وأدوات التوكيد هذه منها ما يختص بالجملة الاسمية ، مثل : (إنَّ) ، و (أنَّ) ، وضمير الفصل ، ومنها ما يختص بالجملة الفعلية ، مثل : (قد) ، و (السين) ، و (سوف) ، ومنها ما

---

(٣) ينظر : البلاغة فنونها وأفنانها (علم المعاني) ١٢١.١١٥ .

(١) وقد ذكر عبد القاهر (لإنّ) المؤكدة خصائص وفوائد ومحاسن ودقائق تمتاز بها عن غيرها ، ينظر : دلائل الإعجاز ٣٢٩.٣١٥ ، نهاية الإيجاز في دراية الإعجاز ٣٥٢. ٣٦٠ .

يدخل عليهما معاً ، كالقسم ، وبعض الزوائد ...كما أنَّ بعض الجمل قد تتضمن عدة أدوات من أدوات التوكيد بحسب ما تحتاجه في مناسبة السياق الذي وردت فيه .

وهنا ونحن بين الخبر والإنشاء نتحدث عن خصائص التعبير بالجملة الاسمية والجملة الفعلية :

فالتعبير بالجملة الاسمية يفيد معنى الثبوت إذا كان خبرها مفرداً ، كقوله تعالى : ﴿ وَكَلْبُهُم بَاسِطٌ ذِرَاعَيْهِ بِالْوَصِيدِ ﴾ [الكهف : ١٨] ، أو يفيد معنى الدوام والاستمرار بقرينة ، كقوله تعالى : ﴿ إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَنَهَر ﴾ [القمر : ٥٤] ، ويفيد معنى التجدّد إذا كان خبرها جملة فعلية ، كقوله تعالى : ﴿ اللهُ يَتَوَفَّى الأَنْفُسَ حِينَ مَوْتِهَا ﴾ [الزمر : ٤٢] .

أما الجملة الفعلية فإنها تفيد الحدوث والتجدد ، كقوله تعالى :﴿ وَيُنَزِّلُ مِنَ السَّمَاءِ مِن جِبَالٍ فِيهَا مِن بَرَدٍ فَيُصِيبُ بِهِ مَن يَشَاءُ وَيَصْرِفُهُ عَن مَّن يَشَاءُ ﴾ [النور : ٤٣] .

ولنا أن نتأمل قوله سبحانه : ﴿ إن المنافقين يخادعون الله وهو خادعهم ﴾ [النساء:١٤٢] ، ففي هذه الآية جملتان : الأولى خبرها فعل (يخادعون الله) وهو ما يدل على تغير حالة المنافقين فإذا كانوا مع أمثالهم ظهروا على سجيتهم وطبيعتهم ، وأما إذا كانوا مع الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ والمؤمنين فإنهم يضمرون الخداع ، لأجل ذلك عُبِّر بالجملة الفعلية . أما الجملة الثانية (وهو خادعهم) فخبرها اسم لذلك فهي تدل على الثبوت والدوام .

وذلك ما بينه الإمام عبد القاهر بقوله : ((موضوع الاسم على أن يُثْبَتَ به المعنى للشيء من غير أن يقتضي تجدده شيئاً بعد شي ، وأما الفعل فموضوعه على أنه يقتضي تجدد المعنى المثبت به شيئاً بعد شيء ، فإذا قلت : زيدٌ منطلقٌ ، فقد أثبتَّ الانطلاق فعلاً له ، من غير أن تجعله يتجدد ويحدث منه شيئاً فشيئاً ، بل يكون المعنى فيه كالمعنى في قولك : زيدٌ طويل وعمرو قصير ، فكما لا تقصد ههنا إلى أن تجعل الطول أو القصر يتجدد ويحدث ، بل توجبهما وتثبتهما فقط ، وتقضي بوجودهما على الإطلاق ، كذلك لا تتعرض في قولك : زيدٌ منطلق لأكثر من إثباته لزيد ، وأما الفعل فإنه يقصد

فيه إلى ذلك ، فإذا قلت : زيدٌ ها هو ذا ينطلق ، فقد زعمت أن الانطلاق يقع منه جزءاً فجزءاً ، وجعلته يزاوله ويزجّيه »[1] . الإنشاء

الإنشاء :

وهو الكلام الذي لا يحتمل الصدق والكذب لذاته [1] ؛ وذلك لأنه ليس لمدلول لفظه قبل النطق به وجود خارجي يطابقه أولا يطابقه . فالإنشاء يقصد به إنشاء المعاني وصوغها ابتداءً ليُطلب بها مطلوب معين .

وعدم احتمال الأسلوب الإنشائي للصدق والكذب إنما يكون بالنظر إلى ذات الأسلوب الإنشائي بغض النظر عما يستلزمه من معنى خبري ، إذ إن كل أسلوب إنشائي يستلزم خبراً يحتمل الصدق أو الكذب .

فَقَوْلي : اكتبْ ، يستلزم خبراً وهو أنا طالب منك الكتابة ، وقَوْلي : ليت لي مالاً ، يستلزم : إني أطلب المال ، فيصبح هذا التقدير كائناً لمعنى الأسلوب الإنشائي وليس لذاته .. وهذا يعني أنّ الجملة الإنشائية لها نسبة خارجية وهي ما يستلزمه الأسلوب الإنشائي من خبر ، ولكن ليس المقصود من الجملة الإنشائية الإخبار بمطابقة هذه النسبة للنسبة الكلامية فيكون المعنى على الصدق عند مطابقتهما ، أو على الكذب عند عدم مطابقتهما ، وإنما المقصود هو إنشاء المعنى وابتداؤه ، وهذا هو مراد قول السعد التفتازاني . فيما سبق عند حديثه عن الخبر والإنشاء . عندما وضع قيداً بقوله : ويكون اللفظ موجداً لها من غير قصد إلى كونه دالاً على نسبة حاصلة في الواقع بين الشيئين وهو الإنشاء .

وعلى هذا فـ« الإنشاء عند التحقيق كالخبر في احتمال الصدق والكذب من حيث إنّ له نسبة خارجية ونسبة كلامية ، واحتمال الصدق والكذب فرع وجود هذه النسبة الخارجية ، والفرق أنّ

(١) دلائل الإعجاز ١٧٤ .

(١) ينظر : الإيضاح ٥٢/٢ ، جواهر البلاغة ٦٩ ، أساليب بلاغية ١٠٧ ، علم المعاني لعبد العزيز عتيق ٧٥.٧٤، البلاغة في ثوبها الجديد٧٧ ، علم المعاني دراسة بلاغية ونقدية ٦٣/١ .

القصد في الإنشاء ليس هو الإخبار عن هذه النسب الخارجية فينظر في المطابقة وعدمها ، وإنما القصد إلى إنشائها ووجودها » [٢]، أما الخبر فلابد من قصد المطابقة وقصد عدمها ، إذن « الفارق بينهما إنما هو القصد وعدم القصد ، فالخبر لابد فيه من قصد المطابقة ، أو قصد عدمها ، والإنشاء ليس فيه قصد للمطابقة ولا لعدمها » [١].

وينقسم الإنشاء إلى قسمين [٢]: إنشاء طلبي وإنشاء غير طلبي .

فالإنشاء غير الطلبي :ما لا يستدعي مطلوباً غير حاصل وقت الطلب ،كصيغ المدح ، والذم ، والعقود ، والقسم ، والتعجب ، والرجاء ، وأنواعه كثيرة لكنها ليست من مباحث علم المعاني ، وذلك لقلة الأغراض البلاغية التي تتعلق بها ، فالقَسَم لا ينفتق عنه معنى إلا القسم ، هذا من ناحية ، ومن الناحية الأخرى فمعظم أنواعه هي في الأصل أخبار نقلت إلى معنى الإنشاء .

أما الإنشاء الذي هو موضع دراسة البلاغيين لاختصاصه بكثير من الدلالات والمعاني البلاغية التي تتولد بحسب القرائن والسياق فهو الإنشاء الطلبي ، وهو الذي يستدعي مطلوباً غير حاصل وقت الطلب . وأنواعه خمسة وهي : الاستفهام ، والأمر ، والنهي ، والنداء ، والتمني [٣].

فأما الاستفهام فهو : طلب المراد على جهة الاستعلام ، أو هو : طلب حصول صورة الشيء في الذهن .

وبين الاستفهام والاستخبار تقارب وتباعد ، قال الجرجاني : « الاستفهام استخبار ، والاستخبار هو طلب من المخاطب أنْ يخبرك » [٤]، وقال ابن فارس : « وذكر ناس أنّ بين الاستخبار والاستفهام

---

(٢) دلالات التراكيب ١٩٣ .

(١) حاشية الدسوقي. شروح التلخيص ١٦٦/١ .

(٢) ينظر : مفتاح العلوم ٣٠٢ ، الإيضاح ٥١/٢ ، دلالات التراكيب ٢٠٢.٢٠٠ ، علم المعاني لعبد العزيز عتيق ٨٠.٧٥ ، علم المعاني دراسة بلاغية ونقدية ٦٦.٦٤/١ .

(٣) وزاد بعضهم العرض والتحضيض إلا أنهما مولدان من الاستفهام والتمني ، فالأول من الهمزة مع (لا) النافية في (ألا) ، والثاني من (هل) و(لو) للتمني مع (لا) و (ما) الزائدتين في (هلا) و (لولا) و (لوما) .

(٤) دلائل الإعجاز ١٤٠ ، وينظر: أمالي ابن الشجري ٤٠٠/١ .

أدنى فرق . قالوا : وذلك أنّ أُولى الحالين الاستخبار ؛ لأنك تستخبر فتجابُ بشيء ، فربما فهمته وربما

لم تفهمه ، فإذا سألت ثانيةً فأنت مستفهم تقول : أفهمْني ما قلته لي . قالوا : والدليل على ذلك أنّ الباري جل ثناؤه يوصف بالخُبْرِ ولا يوصف بالفهم »[1].

وأدوات الاستفهام إحدى عشرة أداة : حرفان ، هما : الهمزة، و (هل) ، وتسعة أسماء ، وهي : (مَنْ) ، و (ما) ، و (متى) ، و(أين) ، و(أيَّان) ، و(أنَّى) ، و(كيف) ، و(كم) ، و(أي) .

وتنقسم هذه الأدوات من حيث المستفهَم عنه إلى ثلاثة أقسام :[2]

الأول : ما يستفهم به عن الحكم وهو إثبات شيء لشيء ، أو نفيه عنه ، فتقول : هل جاء محمد ؟ فتجاب بنعم أو لا ، وهذا ما يعبر عنه بالتصديق ، ويختص بالاستفهام عن التصديق وحده أداة الاستفهام (هل) .

الثاني : ما يستفهم به عن مفرد ، فتقول : من جاء ؟ فيقال لك : أحمد ، وتقول : أين علي ؟ فيقال لك : في البيت . وهذا ما يعبر عنه بالتصور . والذي يستفهم به عن التصور وحده هو كل الأدوات ما عدا (هل) ، و الهمزة .

الثالث : ما يستفهم به عن التصديق تارة وعن التصور تارة وهو الهمزة وحدها .

هذا وإن للهمزة و (هل) أحكاماً تختص بكل واحدة منهما ، وهي :[3]

أولاً : الأحكام الخاصة بالهمزة ، ومنها :

الأول : أنها للتصور والتصديق .كما سبق .

(١) الصاحبي ١٨٦ ، وينظر : البرهان في علوم القرآن ٢/١٥٩ ، جواهر البلاغة ٧٧.٧٦ ، البلاغة فنونها وأفنانها ١٥٥.١٥٤ .

(٢) ينظر : مفتاح العلوم ٣٠٨ ، الإيضاح ٢/٥٨.٥٦ .

(٣) ينظر : الإيضاح ٢/٦١.٥٩ ، الجني الداني في حروف المعاني ٣٤٠.٣٣٩ ، مغني اللبيب: في أحكام الهمزة ٢٤.١٩ ، وأحكام هل ٤٦١.٤٥٧ ، البرهان في علوم القرآن ٢/٣٤٩.٣٤٧ ، أساليب الطلب عند النحويين والبلاغيين ٣٦٠.٣٢٥ ،بغية الإيضاح لتلخيص المفتاح ١/٣٨.٣٤ ، جواهر البلاغة ٨١.٧٨ ، البلاغة فنونها وأفنانها ١٨٦.١٧٠ .

الثاني : أنها يليها المسؤول عنه دائماً ، سواء أكان :

١ . مسندا إليه . نحو : أأنتَ فعلت هذا أم يوسف ؟

٢ . أم مسنداً . نحو : أراغبٌ أنت عن الأمر أم راغب فيه ؟

٣ . أم مفعولاً . نحو : إيايَ تقصد أم سعيداً ؟

٤ . أم حالاً . نحو : أراكباً حضرت أم ماشياً ؟

٥ . أم ظرفاً . نحو : أيومَ الخميس قدمت أم يوم الجمعة ؟

الثالث : أنها إن كانت للتصور ؛ فيجب أن يذكر بعدها المعادل ، ويكون بعد (أم) المتصلة ، فتقول : أزيد مسافر أم عمرو ؟ ولا تقول : أم مقيم ؟ لأنّ المعادل لزيد هو عمرو وليس الإقامة . وقد يترك المعادل إذا كان مفهوماً من السياق ، كقولك : أفي الدار أبوك ؟ يعني : أم في العمل ؟

الرابع : أنها إن كانت للتصور فيجاب عنها بتعيين المسؤول عنه ، وإذا كانت للتصديق يجاب عنها بـ (نعم) أو (لا) .

الخامس : أنها إذا كانت للتصديق ؛ فلا يذكر المعادل بعدها .

السادس : أنها لا يتقدم عليها حرف العطف كما يتقدم على غيرها . كقوله تعالى : ﴿ أَفَلا تَذَكَّرُون ﴾ [يونس : ٣] .

السابع : أنها لا تقع بعد (أم) فلا يقال : أأنت مقيم أم أأنت مسافر ؟ بخلاف الأدوات الأخرى التي تقع بعد (أم) كقوله تعالى : ﴿ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الأَعْمَى وَالْبَصِيرُ أَمْ هَلْ تَسْتَوِي الظُّلُمَاتُ وَالنُّورِ ﴾ [الرعد : ١٦] .

الثامن : يجوز أن تحذف همزة الاستفهام ، ومنه قول عمر بن أبي ربيعة [١] :

لعمركَ مَا أدريْ وإنْ كنتُ دارياً بسبْعٍ رَمَين الجمرَ أَمْ بثمان ؟

(١) من (الطويل) ديوان عمر بن أبي ربيعة ٣٩٩ .

ثانياً : أحكام (هل) ، ومنها :

الأول : أنها لا تكون إلا للتصديق ، ولهذا لا تذكر بعدها (أم) ولا المعادل . أما إذا ذكرت بعدها فهي المنقطعة وتكون بمعنى (بل) التي هي للإضراب والهمزة . كقول قتيلة بنت النضر [٢] :

هَلْ يَسْمَعَنَّ النَّضْرُ إِنْ نَادَيْتُهُ أَمْ كَيْفَ يَسْمَعُ مَيِّتٌ لا يَنْطِقُ

الثاني : أنها إذا دخلت على المضارع فإنها تخلصه للاستقبال ، أما إذا دخلت على الماضي أو الجملة الاسمية فلا تغير فيهما شيئاً .

الثالث : أنها لا تدخل على الشرط ، ولا على (إنّ) ، ولا على المضارع المنفي ، ولا على حرف العطف ، وهي في هذا كله على خلاف الهمزة ، فلا تقول . تباعاً . : هل إنْ جئتك تكرمني ؟ ولا تقول : هل إنك ناجح ؟ ولا تقول : هل لم يستيقظ النائمون ؟ ولا تقول : هل وتدري ؟

أما بقية أدوات الاستفهام فهي [١] : (ما) : وأكثر ما يستفهم بها عن غير العقلاء ، و(مَنْ) : وأكثر ما يستفهم بها عن العقلاء ، و(أيّ) ويستفهم بها عما يميز أحد المتشاركين عن غيره ، و(كم) ويستفهم بها عن العدد ، و (كيف) ويستفهم بها عن الحال ، و(أين) عن المكان ، و(متى) عن الزمان ماضياً أو مستقبلاً ، و (أيّان) ويستفهم بها عن المستقبل ، و(أنّى) وتكون بمعنى (كيف) أو (مِنْ أين) أو (متى) ...

وقد تخرج ألفاظ الاستفهام عن معناها الأصلي لأغراض أخرى بلاغية تفهم من السياق ودلالته ، ومن أهم تلك الأغراض [٢] وأبرزها :

---

(٢) من (الرجز) ، في البيان و التبيين ٤ / ٤٤ ، وشرح شواهد المغني ٥ / ٥٤ .

(١) ينظر : مفتاح العلوم ٣١٠.٣١٣ ، الإيضاح ٢/٦٢.٦٧ .

(٢) ينظر : مفتاح العلوم ٣١٣.٣١٥ ، الإيضاح ٢/٦٨.٨٠ ، الصاحبي١٨٦.١٨٩ ، أمالي بن الشجري ١/٤٠٢.٤١٠ ، جواهر البلاغة ٨٣.٨٤ ، علم المعاني لعبد العزيز عتيق ١٠٥.١١٦.

أولاً : التقرير [٣] :

ومعناه أن تقرر المخاطب بشيء ثبت عنده ، لكنك تستخرج هذا التقرير منه بصورة الاستفهام ؛ لأنه أوقع في النفس وأدل على الإلزام ، كقوله تعالى : ﴿ أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِير ﴾ [الملك : ٨] .

أقسامه :

١. يأتي بمعنى التثبيت والتحقيق : ومن ذلك قول فرعون لموسى ـ عليه السلام ـ : ﴿ أَلَمْ نُرَبِّكَ فِينَا وَلِيداً ﴾ [الشعراء : ١٨] ، فإن موسى لا ينكر ذلك ، وإنما يريد فرعون تثبيت هذا الأمر ، أي : قد ربيناك فينا وليداً .

وهذا القسْم من الاستفهام التقريري هو إنشاء من حيث اللفظ ؛ لأنه استفهام ، خبر من حيث المعنى ؛ لأن معناه تثبيت الخبر وتحقيقه ، فمعنى (ألم نربك) : قد ربيناك ، فهو لا يحتاج إلى جواب .

٢ . يأتي لطلب إقرار المخاطب بما يريد المتكلم : ومنه قوله تعالى : ﴿ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ ﴾ [الأعراف : ١٧٢] ، فالمقصود حمل المخاطب على الإقرار والاعتراف ، وهذا القسم إنشاء لفظاً ومعنىً فهو يحتاج إلى جواب ولذلك (قالوا : بلى) .

هذا وقد يدخل مع التقرير معانٍ أخرى [١] تفهم من السياق ، كقوله تعالى : ﴿ وَيَوْمَ يُعْرَضُ الَّذِينَ كَفَرُوا عَلَى النَّارِ أَلَيْسَ هَذَا بِالْحَقِّ ﴾ [الأحقاف : ٣٤] فهو يدل مع التقرير على التهكم والتوبيخ . وكذلك قوله : ﴿ إِنَّ مَوْعِدَهُمُ الصُّبْحُ أَلَيْسَ الصُّبْحُ بِقَرِيب﴾ [هود : ٨١] يدل مع التقرير على الوعيد . وتارة يراد تقرير المخاطب واعترافه ليوبخ غيره ، كقوله تعالى : ﴿ وَإِذَا الْمَوْؤُدَةُ سُئِلَتْ

(٣) ينظر : الإيضاح ٢/٧٠.٧١ ، مغني اللبيب ٢٦ ، الإتقان في علوم القرآن ٢/١٥٤، البلاغة فنونها وأفنانها ١٩٠.١٩٣، علم المعاني دراسة بلاغية ونقدية ١٠٧/١ .

(١) ينظر : أساليب الاستفهام في القرآن ٢٢٢.٢٢٨ ، أساليب الطلب عند النحويين والبلاغيين ٤٢٨.٤٢٩ .

﴿ بِأَيِّ ذَنبٍ قُتِلَتْ ﴾ [التكوير : ٨ . ٩] فهو يقرر الموؤودة لتعلن براءتها من الجرم ، وفي ذلك تشنيع على وائديها ، وتوبيخ لهم أيَّ توبيخ .

أما مسألة إيلاء المقرر به للهمزة فقد اشترطه [٢] بعضهم ، وقد أولاه [٣] بعضهم الآخر . والمراد مما يلي الهمزة هو إثبات المقرر به [٤] ، فإذا قلت : أفعلت هذا ؟ أردت أنْ تقرر الفاعل بأنّ الفعل كان منه ، وإذا قلت : أأنت فعلت هذا ؟ أردت أن تقرره بأنه الفاعل ، وإذا قلت : أعمراً ضربتَ ؟ أردت أنْ تقرره بأنّ مضروبه عمرو .

ثانياً : الإنكار[١] :

وهو قسمان :

القسم الأول : الإنكار التوبيخي ، وله حالتان :

إحداهما : أنه إنكار توبيخي على فعل قد وقع في الماضي بمعنى ما كان ينبغي أن يقع ، كقوله تعالى : ﴿ أَكَفَرْتَ بِالَّذِي خَلَقَكَ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ سَوَّاكَ رَجُلاً ﴾ [الكهف : ٣٧] ، فالمعنى : ما كان ينبغي أن يقع هذا الكفر بالله ، وهو الذي قد خلقك وسواك . وكقولك لمن رسب : أرسبت في امتحانك ؟

الثانية : أنه إنكار توبيخي على فعل يُخشى أن يقع في المستقبل بمعنى ينبغي ألا يقع ، كقوله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا لا تَتَّخِذُوا الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ أَتُرِيدُونَ أَنْ تَجْعَلُوا للهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَاناً مُبِيناً ﴾ [النساء : ١٤٤] ، فالاستفهام في قوله (أتريدون) موجه إلى تلك الإرادة وهي غير واقعة ، بل يحتمل وقوعها في المستقبل ، و المراد : لا ينبغي أن تكون هذه الإرادة وذلك باتخاذ الكافرين أولياء من دون المؤمنين ، وهو كقولك : لا تفعل كذا أتريد أن تغضب فلاناً ؟

---

(٢) ينظر : البرهان في علوم القرآن ٣٣٣/٢ ، شروح التلخيص ٢/ ٢٩٤ ، مغني اللبيب ٢٦ ، بغية الإيضاح لتلخيص المفتاح ٤٥/١ .

(٣) ينظر : أساليب الاستفهام في القرآن ٢٣١ .

(٤) ينظر : دلائل الإعجاز ١١٤.١١٣ ، مفتاح العلوم ٣١٥ .

(١) ينظر : دلائل الإعجاز ١١٧.١١٤ ، مفتاح العلوم ٣١٦ ، الإيضاح ٧٧.٧٢/٢ ، مغني اللبيب ٢٧.٢٤ ، البرهان في علوم القرآن ٣٣١.٣٢٨/٢ ، شروح التلخيص ٣٠٣.٣٠٠/٢ ، الإتقان في علوم القرآن ١٥٤.١٥٣/٢ ، دلالات التراكيب ٢٥١.٢٣٩ ، بغية الإيضاح لتلخيص المفتاح ٥٠.٤٦/١ ، علم المعاني لعبد العزيز عتيق ١١٤.١١١ ، علم المعاني دراسة بلاغية ونقدية ١١٠.١٠٧/١ ، البلاغة فنونها وأفنانها ٢٠٠.١٩٤/١ ، أساليب الطلب عند النحويين و البلاغيين ٤٤٢.٤٣٦ .

القسم الثاني : الإنكار التكذيبي ويسمى أيضاً بالإنكار الإبطالي وهو يفيد النفي ، وله حالتان :

إحداهما : أن يكون التكذيب في الماضي ، بمعنى : لم يكن ولم يقع ، كقوله تعالى : ﴿ أَفَأَصْفَاكُمْ رَبُّكُمْ بِالْبَنِينَ وَاتَّخَذَ مِنَ الْمَلائِكَةِ إِنَاثاً إِنَّكُمْ لَتَقُولُونَ قَوْلاً عَظِيماً ﴾ [الإسراء : ٤٠] فالاستفهام يفيد تكذيبهم وإبطال ما قالوه ، والمعنى : لم يكن من الله . سبحانه . اصطفاء ولا اتخاذ .

الثانية : أن يكون التكذيب في المستقبل ، بمعنى لن يكون ولن يقع ، كقوله تعالى : ﴿ قَالَ يَا قَوْمِ أَرَأَيْتُم إِنْ كُنْتُ عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِي وَآتَانِي رَحْمَةً مِنْ عِنْدِهِ فَعُمِّيَتْ عَلَيْكُمْ أَنُلْزِمُكُمُوهَا وَأَنتُم لَهَا كَارِهُون ﴾ [هود : ٢٨] ، فالمراد : أنجبركم و نكرهكم على الاهتداء بها ، والمعنى : لن يكون ذلك الإجبار . ومنه قول امرئ القيس[١] :

أَيَقْتُلنِي وَالْمَشْرفيُّ مُضَاجِعِي وَمَسْنُونَةٌ زُرْقٌ كَأَنْيابِ أَغْوَالِ

فهو يكذب إنساناً توعده بالقتل وينكر أن يقع ذلك منه ، والمعنى : لن يكون هذا القتل .

هذا وللإنكار ظواهر ، فمن ظواهره [٢] :

. أنّ الهمزة أكثر أدوات الاستفهام دلالة على الإنكار .

. ويرى عبد القاهر[٣] أن همزة الإنكار يليها المنكر : فمن إنكار الفعل : أتنسى قديم إحسان فلان ؟ ومن إنكار الاسم : أأنت تمنعني حقي ؟ ومن إنكار المفعول قوله تعالى : ﴿ قُلْ أَغَيْرَ اللهِ أَتَّخِذُ وَلِياً ﴾ [الأنعام : ١٤] ، كما يرى أن فائدة أسلوب الإنكار تنبيه السامع حتى يرجع إلى نفسه فيخجل ويرتدع ويعيى بالجواب .

. وقد يُنكَرُ فعلان بطريق العطف ،كقوله تعالى : ﴿ أَفَأَصْفَاكُمْ رَبُّكُمْ بِالْبَنِينَ وَاتَّخَذَ مِنَ الْمَلائِكَةِ إِنَاثاً ﴾ [الإسراء : ٤٠] .

(١) البيت من الطويل ، ديوان امرئ القيس ١٤٢ (صادر) .

(٢) ينظر : أساليب الاستفهام في القرآن ٢٠٠.٢٠٧ .

(٣) ينظر : دلائل الإعجاز ١١٧.١٢٢ ، مفتاح العلوم ٣١٦ ، الإتقان في علوم القرآن ٢/١٥٧.١٥٨ .

. والإنكار أكثر الأغراض البلاغية للاستفهام في القرآن وأوسعها تصرفاً فجملة أساليبه ٨٠٧ موضعاً من ١٢٦٠ موضعاً استفهامياً . وكثر في المكي إذ بلغت أساليبه ٦٣٠ موضعاً من ٨٠٧ موضعاً إنكارياً . وكثيراً ما يصحبه التعجب والتوبيخ .

كما أن للإنكار مؤكدات [١] ، ومنها :

١ . قد يؤكد الإنكار بالنداء قبله ، كقوله تعالى : ﴿ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تُحَاجُّونَ فِي إِبْرَاهِيم ﴾ [آل عمران : ٦٥] .

٢ . وقد تسبقه جملة تقوي الإنكار ، كقوله تعالى : ﴿ أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنْسَوْنَ أَنْفُسَكُمْ ﴾ [البقرة : ٤٤] . فالمنكَر نسيانهم أنفسهم ، وهو مع علمهم وتصديهم لتذكير غيرهم أقبح .

٣ . وقد تلحقه الجملة المقوية للإنكار في صور ثلاث :

أ . أن تكون حالاً كقوله تعالى : ﴿ أَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ وَأَنْتُمْ تُبْصِرُون ﴾ [النمل:٥٤] وقوله : ﴿ أَفَتَأْتُونَ السَّحْرَ وَأَنْتُمْ تُبْصِرُون ﴾ [الأنبياء : ٣] فإنكار الأفعال مع تلك الأحوال أشد وأقوى .

ب . أن تكون استئنافاً ، كقوله تعالى : ﴿ أَتَتَّخِذَ أَصْنَاماً آلِهَةً إِنِي أَرَاكَ وَقَوْمَكَ فِي ضَلالَ مُبِين ﴾ [الأنعام : ٧٤] . ففي (إني أراك وقومك في ضلال مبين) تأكيد لإنكار اتخاذ الأصنام .

ج . أن تكون إضراباً بـ (بل) ، كقوله تعالى : ﴿ أَأُلْقِيَ الذِّكْرُ عَلَيْهِ مِنْ بَيْنِنَا بَلْ هُوَ كَذَّابٌ أَشِرْ ﴾ [القمر : ٢٥] .

٤ . ويؤكد الإنكار بلفظ (كلا) يتلو أسلوب الاستفهام ، كقوله تعالى : ﴿ أَيَطْمَعُ كُلُّ امْرِئٍ مِنْهُمْ أَنْ يُدْخَلَ جَنَّةَ نَعِيمٍ ۞ كَلا ﴾ [المعارج : ٣٨] .

(٤) ينظر : أساليب الاستفهام في القرآن ٢٠٨.٢١٤ .

٥ . ويؤكد الإنكار بتكرار أساليب الاستفهام ، كقوله تعالى : ﴿ أَفَمَنْ حَقَّ عَلَيْهِ كَلِمَةُ الْعَذَابِ أَفَأَنْتَ تُنْقِذُ مَنْ فِي النَّار ﴾ [الزمر : ١٩] .

٦ . ويؤكد الإنكار بأن يتلوه أسلوب الأمر الذي يراد به التعجيز ، كقوله تعالى : ﴿ أَمْ لَهُمْ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا فَلْيَرْتَقُوا فِي الأَسْبَاب ﴾ [ص : ١٠] .

أما بقية أغراض الاستفهام فهي [١] :

١ . النفي :كقوله تعالى : ﴿ هَلْ جَزَاءُ الإِحْسَانِ إِلا الإِحْسَان ﴾ [الرحمن : ٦٠] ، بمعنى : ما جزاء الإحسان إلا الإحسان ، والدلالة على النفي عن طريق الاستفهام أبلغ من الدلالة عليه بالنفي الصريح ، ففي الاستفهام تحريك للفكر ، وتنبيه للعقل .

٢ . الاستبطاء : كقوله تعالى : ﴿ أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُمْ مَثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِكُمْ مَسَّتْهُمُ الْبَأْسَاءُ وَالضَّرَّاءُ وَزُلْزِلُوا حَتَّى يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آَمَنُوا مَعَهُ مَتَى نَصْرُ اللهِ ﴾ [البقرة : ٢١٤] ، الخطاب في الآية الكريمة للصحابة رضوان الله عليهم . والمعنى : أحسبتم أن تدخلوا الجنة بلا ابتلاء وتمحيص ، وقد جرَت سنة الله تعالى أن يبتلي عباده فقد ابتلى الأمم قبلكم ابتلاءً شديداً ، ومستهم البأساء والضراء حتى قال الرسول وهو أعلم الناس بالله وأوثقهم بنصره ، وقال الذين آمنوا معه . لشدة ما حل بهم ونزل . : متى نصر الله ؟ فقد استطالوا مدة العذاب واستبطأوا مجيء النصر، وسِرُّ التعبير بأسلوب الاستفهام في مقام الاستبطاء هو إظهار المعاناة من طول الانتظار ، وجذب انتباه السامع ودعوته للمشاركة والنظر فيما نزل وحل .

٣ . الاستبعاد : وقد يراد من الاستفهام معنى الاستبعاد وهو عدّ الشيء بعيداً ، والفرق بينه وبين الاستبطاء : أن الاستبعاد متعلقه غير متوقع ، أما الاستبطاء فمتعلقه متوقع والمستفهم يتطلع إلى وقوعه ومجيئه ..ومن الاستفهام الذي جاء مفيداً الاستبعاد قوله تعالى : ﴿ فَقَالَ الْكَافِرُونَ هَذَا شَيْءٌ عَجِيبٌ ۞ أَإِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَاباً ذَلِكَ رَجْعٌ بَعِيدٌ ﴾ [ق : ٢ . ٣] ، فالكفرة يستبعدون البعث وينكرون

(١) ينظر : الإتقان في علوم القرآن ١٥٦.١٥٤/٢ ، علم المعاني دراسة بلاغية ونقدية ١١٣.١٠٢/١ ، أساليب الطلب عند النحويين والبلاغيين ٤٦٠.٤٢١.

وقوعه ، وقد عبروا عن هذا الاستبعاد بصيغة الاستفهام التي طوى فيها البعث المستفهَم عنه ، والتقدير : أنبعث إذا كنا تراباً ؟ ذلك رجع بعيد .

٤ . التحسر : ويَرِدُ الاستفهام مُرَاداً به معنى التحسر والتألم وذلك في مقام يُظهِر فيه المستفهم حزنه وتألمه وتحسره على ما فاته .. ومن ذلك قوله تعالى : ﴿ فَإِذَا بَرِقَ الْبَصَرُ ۞ وَخَسَفَ الْقَمَرُ ۞ وَجُمِعَ الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ ۞ يَقُولُ الْإِنْسَانُ يَوْمَئِذٍ أَيْنَ الْمَفَر﴾ [القيامة : ٧ . ١٠] ، فالاستفهام في الآية يفيد تحسر الإنسان وندمه على ما فاته في الدنيا واستبعاده الفرار في ذلك اليوم .

٥ . التعجب : ومنه قوله عز وجل : ﴿ قَالَتْ يَا وَيْلَتَى أَأَلِدُ وَأَنَا عَجُوزٌ وَهَذَا بَعْلِي شَيْخاً إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عَجِيب ﴾ [هود : ٧٢] ، فقد تعجبت امرأته من بشارة الملائكة لإبراهيم . عليه السلام . بإسحاق ، ومن وراء إسحاق يعقوب ، كيف تلد وهي عجوز وقد عاشت حياتها عقيماً ؟ وهذا بعلها قد صار شيخاً ، إنه لأمر عجيب ، ولذا تساءلت الملائكة متعجبة من تعجبها : ﴿ أَتَعْجَبِينَ مِنْ أَمْرِ اللهِ ﴾ .

٦ . التنبيه إلى ضلال : كما في قوله تعالى : ﴿ فَأَيْنَ تَذْهَبُونَ ۞ إِنْ هُوَ إِلا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِين ﴾ [التكوير : ٢٦] ، فهو تنبيه للكفرة إلى خطأ ما يقولون وضلال ما يعتقدون وباطل ما يعبدون من دون الله .

٧ . التهويل : كما في قوله تعالى : ﴿ الْحَاقَّةُ ۞ مَا الْحَاقَّةُ ۞ وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْحَاقَّةُ ﴾ [الحاقة : ١ . ٣] ، وقوله تعالى : ﴿ الْقَارِعَةُ ۞ مَا الْقَارِعَةُ ۞ وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْقَارِعَةُ ﴾ [القارعة : ١ . ٣] ، وقوله تعالى : ﴿كَلا لَيُنْبَذَنَّ فِي الْحُطَمَة ۞ وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْحُطَمَة ﴾ [الهمزة : ٤ . ٥] ، فالاستفهام في الآيات الكريمة يكشف عن أهوال يوم القيامة ، ويصور ويبرز فظاعة العذاب وشدته .

٨ . الوعيد والتهديد : ومنه قوله عز وجل :﴿ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِين ۞ أَلَمْ نُهْلِكِ الأَوَّلِين ۞ ثُمَّ نُتْبِعُهُمُ الآخِرِين ۞كَذَلِكَ نَفْعَلُ بِالْمُجْرِمِين ..﴾ [المرسلات : ١٥ . ١٨] ولا يخفى ما يفيده الاستفهام من توعد للكفرة وحث لهم على الإقلاع عن كفرهم والانصياع لصوت الحق حتى لا يصيبهم ما أصاب الأولين من إهلاك وتعذيب .

٩ . الأمر والحث على الفعل : كما في قوله تعالى : ﴿ فَإِنْ لَمْ يَسْتَجِيبُوا لَكُمْ فَاعْلَمُوا أَنَّمَا أُنْزِلَ بِعِلْمِ اللهِ وأَنْ لا إِلَهَ إِلا هُوَ فَهَلْ أَنْتُمْ مُسْلِمُون ﴾ [هود : ١٤] وقوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَّكِرٍ ﴾[القمر : ١٧] ، فالمراد بالاستفهام في الآيات الكريمة الأمر ، وقد جاء في صيغة الاستفهام ؛ لأن في ذلك إغراء للمخاطب وحثاً له على الاستجابة وقبول الأمر .

١٠ . التشويق : وقد يأتي الاستفهام للتشويق ، وذلك عندما يقصد المتكلم إلى ترغيب المخاطب واستمالته ، كما في الآية الكريمة : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَى تِجَارَةٍ تُنْجِيكُمْ مِنْ عَذَابٍ أَلِيم ﴾ [الصف : ١٠] ، وقوله تعالى : ﴿ قُلْ أَؤُنَبِّئُكُمْ بِخَيْرٍ مِنْ ذَلِكُمْ ﴾ [آل عمران : ١٥] .

١١ . التحقير : كما في الآيات الكريمة : ﴿ وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ إِبْرَاهِيمَ ۞ إِذْ قَالَ لأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَا تَعْبُدُون ﴾ [الشعراء : ٧٠] ، وقوله : ﴿ وَ إِذَا رَأَوْكَ إِنْ يَتَّخِذُونَكَ إِلا هُزُواً أَهَذَا الَّذِي بَعَثَ اللهُ رَسُولاً ﴾ [الفرقان : ٤١] ، وقوله : ﴿ أَهَذَا الَّذِي يَذْكُرُ آلِهَتَكُمْ ﴾ [الأنبياء : ٣٦] .

١٢ . التهكم : كما في قوله تعالى : ﴿ قَالُوا يَا شُعَيْبُ أَصَلاتُكَ تَأْمُرُكَ أَنْ نَتْرُكَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا أَوْ أَنْ نَفْعَلَ فِي أَمْوَالِنَا مَا نَشَاء ﴾ [هود : ٨٧] ، فهم يسخرون منه ويتهكمون بما جاء به ، وقد عبَّروا عن ذلك بصيغة الاستفهام ليدلّوا على ثباتهم في الكفر ، ووقوفهم الصامد في الضلال والمكابرة .

١٣ . التمني : وذلك عندما يطلب السائل الأمور المحالة أو البعيدة الحصول ، كما في قوله . تعالى . على لسان أهل النار : ﴿ فَهَلْ لَنَا مِنْ شُفَعَاء فَيَشْفَعُوا لَنَا أَوْ نُرَدُّ فَنَعْمَلَ غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَل ﴾ [الأعراف : ٥٣] ، وقوله : ﴿ هَلْ إِلَى مَرَدٍّ مِنْ سَبِيل ﴾ [الشورى : ٤٤] . وقوله : ﴿ إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعاً فَهَلْ أَنْتُمْ مُغْنُونَ عَنَّا نَصِيباً مِنَ النَّار ﴾ [غافر : ٤٧] ، وكأنهم لفرط ما هم فيه من هول العذاب صاروا يسألون غير الممكن كما يسأل عن الشيء الذي لا استحالة في وجوده .

هذا وإنّ هذه المعاني يمكن استنباطها من خلال النظر في السياق وتأمل تراكيبه وقرائن أحواله ، وكثيراً ما نجد أسلوب الاستفهام يفيض بأكثر من معنى بلاغي [1]، كقوله تعالى : ﴿ كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللهِ وَكُنتُمْ أَمْوَاتاً فَأَحْيَاكُم ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُون ﴾ [البقرة : ٢٨] ، فالاستفهام بها يفيد الإنكار التوبيخي ، أي : لا ينبغي أن يكون منكم كفر وقد علمتم قصة خلقكم وحياتكم ... كما يفيد التعجيب من وقوع هذا الكفر والحث على الإقلاع عنه والإقبال على الهدى والإيمان ، لأن في خلق السموات والأرض وفي خلق الإنسان من العبر والعظات والأدلة على قدرة الله ما لو تأمله الكافر وتدبره لأقلع عن كفره وضلاله ، فوجود الكفر منه بعدئذ يدعو إلى التعجب والإنكار .. و مثله قوله تعالى : ﴿ أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالبِرِّ وَتَنْسَوْنَ أَنْفُسَكُمْ وَأَنتُمْ تَتْلُونَ الْكِتَابَ أَفَلا تَعْقِلُونَ ﴾ فالاستفهام في الآية إنكار لوقوع ذلك منهم ، وتعجب من وقوعه ، وحث للإقلاع عنه .

و أما الأمر فهو : طلب فعل على وجه الاستعلاء ، وله أربع صيغ [1] :

الأولى : فعل الأمر، كقوله تعالى : ﴿ وَاصْنَعِ الْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا ﴾ [هود : ٣٧] .

الثانية : المضارع المجزوم بلام الأمر،كقوله تعالى:﴿ لِيُنفِقْ ذُو سَعَةٍ مِن سَعَتِهِ ﴾ [الطلاق: ٧].

الثالثة : اسم فعل الأمر ، نحو: صه ، بمعنى اسكت ، و آمين ، بمعنى استجب ، وعليك ، بمعنى الزم ، كقوله تعالى : ﴿ عَلَيْكُمْ أَنفُسَكُمْ ﴾ [المائدة : ١٠٥] .

الرابعة : المصدر النائب عن فعل الأمر ،كقوله تعالى:﴿ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَاناً ﴾ [النساء : ٣٦]، وقوله تعالى : ﴿ فَضَرْبَ الرِّقَابِ ﴾ [محمد : ٤] .

والأصل في الأمر أنْ يدل على الوجوب[2] ، إلا إذا دلت على غيره قرينة من القرائن ، والأمر يكون من الأعلى إلى الأدنى ، فإذا كان من الأدنى إلى الأعلى ؛ فهو دعاء كقولك: اللهم اغفر لي ، وإن كان من النِدِّ إلى نِدِّهِ فهو التماس ، كقولك لزميلك : أعطني القلم يا أخي .

(١) ينظر : مفتاح العلوم ٣١٤.٣١٥ .

(١) ينظر : جواهر البلاغة ٧١ ، البلاغة فنونها وأفنانها ١٤٩ ، صور الأمر في العربية بين التنظير والاستعمال ٦٥.٢٣٧.

وقد تخرج صيغ الأمر عن معناها الأصلي إلى معان أخرى بلاغية تستفاد من سياق الكلام وقرائن الأحوال ،كالإرشاد ، مثل قوله تعالى : ﴿ خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِين ﴾ [الأعراف : ١٩٩] ، والتهديد ،كقوله تعالى : ﴿ اعْمَلُوا مَا شِئْتُمْ ﴾ [فصلت :٤٠] ، والإباحة ،كقوله تعالى:﴿ وَكُلُوا وَاشْرَبُوا حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَكُمُ الْخَيْطُ الأَبْيَضُ مِنَ الْخَيْطِ الأَسْوَدِ مِنَ الْفَجْرِ ﴾ [البقرة : ١٨٧] ، والتعجيز ،كقوله تعالى : ﴿ فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِنْ مِثْلِهِ ﴾ [البقرة : ٢٣] ، والتسوية ، كقوله تعالى : ﴿ فَاصْبِرُوا أَوْ لا تَصْبِرُوا سَوَاءٌ عَلَيْكُمْ ﴾ [الطور : ١٦] ، وغيرها من المعاني [١] التي تستفاد من السياق .

وأما النهي فهو : طلب الكف عن فعل الشيء على وجه الاستعلاء [٢]، وله صيغة واحدة وهي المضارع مع (لا) الناهية ،كقوله تعالى : ﴿وَلا تَقْتُلُوا أَوْلادَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلاقٍ ﴾ [الإسراء : ٣١] ، وهو كالأمر[٣] في الاستعلاء ، فإنْ لم يكن على جهة الاستعلاء كان دعاء إنْ كان من الأدنى إلى الأعلى ،كقوله تعالى : ﴿ رَبَّنَا لا تُؤَاخِذْنَا إِنْ نَسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا ﴾ [البقرة : ٢٨٦] ، أو التماساً إنْ كان من المتساويين ،كقولك لصديقك : يا أخي لا تكسل في عملك .

وقد تخرج صيغة النهي عن مدلولها الأصلي وهو طلب الكف والترك إلى معانٍ أخرى بلاغية تُستفاد من السياق ،كالإرشاد ، ومنه قوله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَسْأَلُوا عَنْ أَشْيَاءَ إِنْ تُبْدَ لَكُمْ تَسُؤْكُمْ ﴾ [المائدة : ١٠١] ، و التيئيس ،كقوله تعالى : ﴿ لا تَعْتَذِرُوا قَدْ كَفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ ﴾ [التوبة : ٦٦] ، و الإهانة ،كقوله تعالى : ﴿ اخْسَؤُوا فِيهَا وَلا تُكَلِّمُون ﴾ [المؤمنون : ١٠٨

(٢) ينظر : مفتاح العلوم ٣١٨.٣١٩ ، أساليب الطلب عند النحويين والبلاغيين ٩٣.١٠١.

(١) ينظر : الصاحبي ١٩٠.١٩٢ ، أمالي ابن الشجري ٤١٠/١.٤١٤ ، الإيضاح ٨٢/٢.٨٧ ، شروح التلخيص ٣١٢/٢.٣٢١ ، الإتقان في علوم القرآن ١٥٨/٢.١٥٩ ، بغية الإيضاح لتلخيص المفتاح ٥٣/١.٥٥ ، علم المعاني ودلالات الأمر في القرآن الكريم ٢٢٥.٢٤٠ .

(٢) ينظر : مفتاح العلوم ٣٢٠ ، مختصر السعد . شروح التلخيص ٣٢٤/٢ ، أساليب الطلب عند النحويين والبلاغيين ٤٦٥ .

(٣) ينظر في أوجه الشبه والاختلاف بين الأمر والنهي : الطراز ٥٣٢ .

] ، وبيان العاقبة ، كقوله تعالى : ﴿ وَلا تَحْسَبَنَّ اللهَ غَافِلاً عَمَّا يَعْمَلُ الظَّالِمُون ﴾ [إبراهيم : ٤٢] . وغيرها من المعاني [١] التي تعرف من قرائن الأحوال .

وأما النداء فهو : طلب الإقبال بحرف ناب مناب (أدعو) لفظاً أو تقديراً [٢] ، وأدواته ثمانية ، وهي : (يا) ، والهمزة ، و (أيْ) ، و (آي) ، و (أيا) ، و (هيا) ، و (وا) ، و (آ) . وأكثر هذه الأدوات استعمالاً في القرآن الكريم هو (يا) .

وهذه الأدوات نوعان : ما ينادى به القريب ، وهو الهمزة و (أي) ، و ما ينادى به البعيد ، وهو بقية الأدوات .

وقد يُنَزَّل البعيد منزلة القريب ، فينادى بالهمزة و (أيْ) ، إشارة إلى أنه لشدة استحضاره في ذهن المتكلم صار كالحاضر معه ، وقد يُنَزَّل القريب منزلة البعيد ، فينادى بغير الهمزة و (أيْ) ، إشارة إلى علو منزلته ، فيجعل بُعد المنزلة كأنه بُعد في المكان ، أو إشارة إلى انحطاط منزلته ودرجته، أو إشارة إلى أن السامع لغفلته وشرود ذهنه غير حاضر .

وقد تستعمل صيغة النداء في غير معناه الأصلي ، إذ تخرج إلى معان [١] أخرى بلاغية تفهم من السياق وقرائن الأحوال ، ومن هذه الأغراض : الإغراء ، والاستغاثة ، والندبة ، والتعجب ، والزجر ، والتحسر ، والتوجع ، والتذكّر ، والاختصاص ، والوعيد ، والتلهف ، والتأسف ، والتلذذ ، والاستهزاء ، وغيرها ....

و (يا) أم أدوات النداء [٢] ، ولذلك تدخل في النداء الخالص ، وفي النداء المشوب بالندبة ، أو الاستغاثة ، أو التعجب ، كما تتعين وحدها في نداء اسم الله تعالى ، لبُعد مكانه مع قربه الشديد منا ، وتتعين أيضاً في نداء (أيها) كما يجوز حذفها ، ومنه قوله تعالى : ﴿ يُوسُفُ أَعْرِضْ عَنْ هَـذَا ﴾ [يوسف : ٢٩] ، وفي قولك : (اللهم) .

---

(٤) ينظر : الإيضاح ٨٨/٢ ، الإتقان في علوم القرآن ١٥٩/٢ ، جواهر البلاغة ٧٧.٧٦ ، البلاغة فنونها وأفنانها ١٥٥.١٥٤ .

(٥) ينظر : مختصر السعد . شروح التلخيص ٣٣٤/٢ ، جواهر البلاغة ٨٩ ، البلاغة فنونها وأفنانها ١٦٥.١٦٢ .

(١) ينظر : الإيضاح ٩٢.٩١/٢ ، الطراز ٥٣٥ ، بغية الإيضاح لتلخيص المفتاح ٥٩.٥٨/١ ، علوم البلاغة للمراغي ٨٢ ، دلالات التراكيب ٢٨٣.٢٨٠

(٢) ينظر : الجنى الداني في حروف المعاني ٣٤٩ ، مغني اللبيب٤٨٨ ، الأساليب الإنشائية في النحو العربي ١٣٧ .

هذا والنداء يصحب [٣] . غالباً . الأمر والنهي والاستفهام ، وكأنه يُعِدُّ النفس ويُهيِّئها لتلقي تلك الأساليب ،ولذا فهي تَتَقَوى به ، لأن النداء يوقظ النفس ويلفت الذهن وينبِّه المشاعر ، فإذا ما جاء بعده الأمر أو النهي أو الاستفهام صادف نفساً مهيَّأَة يقظة ، فيقع منها موقع الإصابة حيث تتلقاه بحس واعٍ وذهن منتبه .. ولذا كثر مصاحبة النداء لتلك الأساليب في النظم الكريم على نحو ما ترى في الآيات الكريمة : ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُم..﴾ [الحج : ١] ، ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا أَوْفُوا بِالْعُقُود..﴾ [المائدة : ١] ، ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا لا تُحَرِّمُوا طَيِّبَاتِ مَا أَحَلَّ اللهُ لَكُمْ..﴾ [المائدة : ٨٧] ، ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَى تِجَارَةٍ تُنْجِيكُمْ مِنْ عَذَابٍ أَلِيم ﴾ [الصف : ١٠] ، وقد تجتمع هذه الأساليب جميعها كما في قوله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا اجْتَنِبُوا كَثِيراً مِنَ الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ وَلا تَجَسَّسُوا وَلا يَغْتَب بَّعْضُكُمْ بَعْضاً أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَنْ يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتاً فَكَرِهْتُمُوه..﴾ [الحجرات : ١٢] .

ونختم النداء بمسألة : وهي ما نقله ابن الشجري من أنَّ ((النداء خبر من وجه وغير خبر من وجه ، فإذا قلت : يا فُسَق فهو خبر ؛ لدخول التصديق والتكذيب فيه ، وإذا قلت : يا زيد ، فليس بخبر لامتناع التصديق و التكذيب فيه)) [١] ، وكما قال : ((وقد وجدت للنداء وجوهاً ، أكثرها لا تخرجه عن كونه نداءً ، فمن ذلك أن نداءك لله سبحانه في قولك : يا ألله يا رحمن يا رحيم ، إلى غير ذلك من أسمائه الحسنى وصفاته العلى ، يكون خضوعاً وتضرعاً وتعظيماً . وقد يقتصر على ألفاظ المدح للمدعو ، إذا كان قصدك تعظيمه ، ومرادك مدحه ، كقولك يا سيِّد الناس، و يا خير مطلوبٍ إليه ، ويا فارسَ الهيجاء ، تريد : أنت سيد الناس ، وأنت خير مطلوب إليه ، وأنت فارس الهيجاء ، فيكون نداؤه بذلك داخلاً في الخبر ،كما يكون نداؤك لله جلت عظمته ، إقراراً منك بالربوبية وتعبداً ، وبحسب ذلك يكون النداء ذماً للمنادى وتقصيراً به ، وزرياً عليه ، كقولك : يا فُسَقُ ويا خُبَثُ ، ويا أبخلَ الناس ، ويا مستحلَّ الحرام ، وما أشبه هذا ، مما تقتصر عليه ولا تذكر معه شيئاً غيره ،كما اقتصرت على نداء الممدوح بما ناديته ، فالنداء في هذا الوجه داخل في حيز الخبر ، وقد ورد النداء مراداً به الخبر

(٣) ينظر : البرهان في علوم القرآن ٣٢٤،٣٢٣/٢ ، الإتقان في علوم القرآن ١٦١/٢ ،. علم المعاني دراسة بلاغية ونقدية ١٢٢،١٢١ .

(١) أمالي ابن الشجري ٣٨٩/١ .

في شيء من كلامهم ، وذلك في قولهم : (اللهم اغفر لنا أيتها العصابة) قال أبو العباس محمد بن يزيد : معناه أخص هذه العصابة » [٢] . فإنّ المقصود مما سبق أنّ في النداء إثبات الصفة للمنادى ، كما أنّ في الخبر إثباتها للمخبر عنه ، وهذه الصفة تحمل صدقاً أو كذباً وهي المعنى الإنشاء الخبري الذي يستلزمه الأسلوب الإنشائي ، وهو ما أخبرنا عنه . سابقاً . من أنّ للأسلوب الإنشائي نسبة خارجة مثل الخبر ، إلا أننا لسنا مطالبين بمطابقة هذه النسبة في الأسلوب الإنشائي مثله في الخبري .

فعندما تقول: يا سارق فإن ما يستلزمه هذا النداء هو أنت سارق ، وقد يكون سارقاً وقد لا يكون ، فهو يحتمل الصدق أو الكذب إذا طوبق بالواقع .

أما الأسلوب الإنشائي فإنه يكون لذات اللفظ وهو : يا سارق على أنه نداء ، لا إلى مدلوله اللغوي ، فإذا نظرنا إلى ذات اللفظ فإنه إنشاء لا يحتمل الصدق أو الكذب ، أما إذا نظرنا إلى ما يستلزمه وذلك بتقدير فعل النداء لأَصبَحَ خبراً يحتمل الصدق أو الكذب . والذي يظهر أنّ الذي دعاهم لهذا القول لا سيما مع النداء خاصة هو أن فعل النداء مُضمَر ، ناب عنه حرف النداء ، وأنّ سرَّ الطلب يكمن في هذا الفعل المُضمَر المقدَّر بـ (أدعو) بمعنى أطلبُ ، كما قال ابن هشام : « وليس نصب المنادى بها (يعني : يا) ، ولا بأخواتها أحرفاً ، ولا بهنَّ أسماء لـ " أدعو " متحملة لضمير الفاعل ، خلافاً لزاعمي ذلك ، بل بـ " أدعو " محذوفاً لزوماً ، وقول ابن الطراوة : النداء إنشاء ، وأدعو خبر ، سهو منه ، بل أدعو المقدر إنشاء كبعتُ وأقسمتُ » [١] ، فهو إنشاء يدل على الطلب ضمنياً ؛ كأنك تقول للمنادى : أقبلْ بصيغة الطلب .

وهذا الفعل لا يجوز إظهاره ؛ لأن سِرَّ الطلب في إضماره « ألا ترى أنه لو تُجُشم إظهاره فقيل : أدعو زيداً ، وأنادي زيداً ، لاستحال أمر النداء فصار إلى لفظ الخبر المحتمل للصدق والكذب ، والنداء مما لا يصح فيه تصديق ولا تكذيب » [٢] ، كما أن ذلك يظهر جلياً فيما قاله ابن خشاب : « المنادى مفعول ، وحرف النداء نائب عن الفعل ، إلا أنه فعل لا يصح إظهاره ، لأنه لو ظهر لكان

(٢) أمالي ابن الشجري ٤١٨/١ .
(١) مغني اللبيب ٤٨٨ .
(٢) الخصائص ١٨٦/١ .

خبراً، والنداء ليس بخبر لأنه أصل من أصول الكلام لا يحتمل الصدق ولا الكذب ، ولهذا عُدَّ ركناً من أركان الكلام ، كما عُدَّ الخبر ركناً و الاستفهام ركناً وغيرهما ›› [٣] .

ويربط ابن يعيش بين الطلب في النداء وبين عملية التصويت بالمنادى فيقول : ‹‹ والنداء ليس بإخبار، وإنما هو نفس التصويت بالمنادى ، ثم يقع الإخبار عنه فيما بعد فتقول : ناديت زيداً ››[٤].

وبناءً على ما سبق يتقرر أن النداء أسلوب إنشائي ، وليس خبرياً ، وهو ما تضافرت عليه أقوال الأئمة [١] .

وأما التمني فهو : طلب حصول الشيء المحبوب الذي لا يرجى حصوله [٢] ، أما المحبوب الذي يرجى حصوله فهو الترجي وهو ليس من أقسام الإنشاء الطلبي ؛ لأن الترجي ترقب حصول الشيء [٣]، أما التمني فهو طلب الشيء .

والمُتَمَنَّى قد يكون ممكناً وقد يكون مستحيلاً .

والأداة الموضوعة للتمني هي (ليت) [٤]، كقوله تعالى : ﴿ يَقُولُ يَالَيْتَنِي قَدَّمْتُ لِحَيَاتِي ﴾ [الفجر : ٢٤] ، وقد يُتَمَنَّى بألفاظ أخرى لأغرض بلاغية ، ومنها : هل ، وأين ، ومتى ، كقوله تعالى : ﴿ فَهَلْ إِلَى خُرُوجٍ مِنْ سَبِيل ﴾ [غافر : ١١] ، وقوله تعالى : ﴿ يَقُولُ الإِنْسَانُ يَوْمَئِذٍ أَيْنَ الْمَفَر ﴾ [القيامة : ١١] ، والسر البلاغي وراء التمني بالاستفهام في الآيتين هو أن هؤلاء لشدة دهشتهم وفرط حيرتهم طارت عقولهم فظنوا أن غير الممكن صار ممكناً ، فاستفهموا عنه .

وقد يُتَمَنَّى بـ (لو) كما في قوله تعالى : ﴿ فَلَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَكُونَ مِنْ الْمُؤْمِنِين ﴾ [الشعراء : ١٠٢] ، و التمني بـ (لو) يزيد المتمنى بعداً واستحالة إذ هي حرف امتناع لامتناع .

---

(٣) المرتجل ١٩٢،١٩١ .

(٤) شرح المفصل ١٢٧/١ .

(١) ينظر : مفتاح العلوم ٣٠٤،٣٠٣ ، الإيضاح ٩١/٢ ، الطراز ٥٣٥ ، شروح التلخيص ٣٣٣/٢ ، البرهان في علوم القرآن ٣٢٥،٣٢٣/٢ ، الإتقان في علوم القرآن ١٦١/٢ .

(٢) ينظر : الطراز ٥٣٥،٥٣٤ ، الإتقان في علوم القرآن ١٦٠،١٥٩/٢ ، دلالات التراكيب ٢١٣،٢٠٣ ، جواهر البلاغة ٨٨،٨٧ ، بغية الإيضاح لتلخيص المفتاح ٣٤،٣٢ ، علم المعاني دراسة بلاغية ونقدية ١٢٦،١٢٢/١ ، البلاغة فنونها وأفنانها ١٦١،١٥٦ ، أساليب الطلب عند النحويين والبلاغيين ٥٣٩،٥١٧ .

(٣) ينظر : حاشية الدسوقي. شروح التلخيص ٢٤٥،٢٣٩/٢ ، البحر ١٠٣/٤ .

(٤) ينظر : مفتاح العلوم ٣٠٧ ، الإيضاح ٥٢/٢ .

وقد يُتَمَنَّى بـ (لعل) ، كقوله تعالى : ﴿ وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَا هَامَانُ ابْنِ لِي صَرْحاً لَعَلِّي أَبْلُغُ الأَسْبَاب ۞ أَسْبَابَ السَّمَوَاتِ فَأَطَّلِعَ إِلَى إِلَهِ مُوسَى ﴾ [غافر : ٣٦ ـ ٣٧] ، والتمني بـ (لعل) لإبراز المتمني المحال في صورة الممكن القريب .

هذا وقد قال بعضهم إن التمني من الخبر ، كما بيَّن ابن فارس ذلك في قوله : ((قال قوم : هو من الأخبار ، لأنّ معناه (ليس) ، إذا قال القائل : (ليت لي مالاً) فمعناه : ليس لي مالٌ . وآخرون يقولون : لو كان خبراً لجاز تصديق قائله أو تكذيبه ، وأهل العربية مختلفون فيه على هذين الوجهين))[١]، أما ابن الشجري فإنه يفنّد هذه المسألة ويثبت أن التمني ليس بخبر من جهتين فيقول: ((وأما التمني فزعم قوم أنه داخل في الخبر ، لأنه إذا قال : ليت لي مالاً ، فقد أخبر بأنه تمنى ذلك ، فكأنه قال : وددت أنّ لي مالاً ، وليس الأمر عندي على ما قالوا ؛ لأن التمني مما أجابته العرب بالفاء ، كما أجابوا الأمر والنهي والاستفهام ، كما جاء في التنزيل : ﴿ يَا لَيْتَنِي كُنتُ مَعَهُمْ فَأَفُوزَ فَوْزاً عَظِيماً ﴾ [النساء : ٧٣] ، والفاء لا يجاب بها الخبر الموجب إلا في ضرورة شعر، ويقوّي ذلك أنك لو قلت : ليت لي مالاً ، لمَا عورضت بتصديق ولا تكذيب ، فقد خرج التمني عن حيّز الخبر بهذين))[٢]، وهو كذلك كما تضافرت عليه أقوال الأئمة في أنه أسلوب من الأساليب الإنشائية [٣].

أما حروف التنديم والتحضيض [٤] وهي : هلاّ وألاَ ولوما ولولا.... فإنها مأخوذة من (هل) ، و (لو) بقلب الهاء همزة في (ألا) مركبتين مع (لا و ما) الزائدتين ، لإفادتهما معنى التمني ، وذلك ليتولد من التمني الذي أفادتاه ، معنى التنديم في الماضي ، كقولك : هلا أكرمت صاحبك .. ومعنى التحضيض في المضارع ، كقولك : ألا تكرم صاحبك .

(١) الصاحبي ١٩٤ .

(٢) أمالي ابن الشجري ٤٢٧.٤٢٦/١ ، وينظر : الدر المصون ٥٨٦.٥٨٥/٤ ، أساليب الطلب عند النحويين والبلاغيين ٥١٩.٥١٨ .

(٣) ينظر : مفتاح العلوم ٣٠٣ ، الإيضاح ٥٢/٢ ، الطراز ٥٣٥.٥٣٤ ، البرهان في علوم القرآن ٣٢٣.٣٢١/٢ ، الإتقان في علوم القرآن ١٦٠.١٥٩/٢.

(٤) ينظر : مفتاح العلوم ٣٠٧ ، الإيضاح ٥٤/٢ ، دلالات التراكيب ٢١٣.٢١٢ ، علم المعاني دراسة بلاغية ونقدية ١٢٦/١ .

وبعد هذه الجولة المختصرة من الحديث عن الخبر وأغراضه وطبيعته ثم الحديث عن أساليب الإنشاء وهي الأمر والنهي والاستفهام والنداء والتمني وبعد أن تعرفنا على طبيعتها ... ننتقل الآن إلى الحديث عن المزاوجة بين الخبر والإنشاء .

المزاوجة بين الخبر و الإنشاء

رأيْنا _ مما سبق _ أنَّ الخبر والإنشاء حقيقتان متغايرتان ، فالخبر ما كان له ارتباط بالواقع يصدِّقه أو يكذبه ، فهو أمر حاصل و موجود ، بخلاف الإنشاء الذي يتعلق حصوله بحصول لفظه ، وذلك بقطع النظر عما يستلزمه من معنى خبري ، فهو أمر حادث ومطلوب ، ولن يكون كذلك إلا مع كونه معدوماً حال طلبه ، وإلا فكيف يطلب الموجود ، ومن هنا كانا حقيقتين متغايرتين ، فالخبر عن موجود وحاصل ولذلك يحتمل الصدق والكذب ، والإنشاء طلب لغير موجود ولا حاصل ولذلك لا يحتمل الصدق والكذب ، وهو ما نبه إليه صاحب الطراز في دقيقته إذ يقول: ((اعلم أن الخبر والإنشاء متضادان ، لأن الخبر ما كان محتملاً للصدق والكذب ، والإنشاء ما ليس يحتمل صدقاً ولا كذباً ، فلا يجوز في صيغة واحدة أنْ تكون حاملة إنشاءً وخبراً ، لما ذكرناه من التناقض بينهما ، نعم قد ترد صيغة الخبر والمقصود بها الإنشاء ، إما لطلب الفعل ، وإما لإظهار الحرص على وقوعه ، وهذا كقوله تعالى : ﴿ وَالْوَالِدَاتُ يُرْضِعْنَ أَوْلادَهُنَّ حَوْلَيْن ﴾ [البقرة : ٢٣٣] ، ونحو قوله تعالى : ﴿ وَمَنْ دَخَلَهُ كَانَ آمِناً ﴾ [آل عمران : ٩٧] ، فليس وارداً على جهة الإخبار فيهما جميعاً ، لأنه يلزم منه الكذب، وهو محال في كلامه تعالى ، لأنَّ كثيراً من الوالدات لا ترضع الحولين ، بل تزيد وتنقص ، وهكذا قد يدخل البيت من هو خائف ، فلهذا وجب تأويله على جهة الإنشاء ، والمعنى فيه ، لترضع الوالدات أولادهن حولين على جهة الندب والإرشاد إلى المصالح ، وهكذا قوله (ومن دخله كان آمناً

المزاوجة بين الخبر و الإنشاء

) معناه ليأمن من دخله ، ومخالفة الأوامر لا فساد فيها ، ولا يلزم عليه محال ، بخلاف الأخبار فإنه يلزم من مخالفتها الكذب)) [١] .

وعلى هذا فلا يمكن الجمع بين الخبر والإنشاء لأنهما متغايران ، وإنْ كان من سبيل للتقارب بينهما فلن يكون بالجمع بينهما ولكنْ بإحلال أحدهما محل الآخر كما أشار إليه الطراز في قوله تعالى : ﴿ والوالداتُ يرضعْنَ أولادَهن ﴾ ، وهو ما يكشف عنه كذلك الزمخشري في قوله تعالى : ﴿ والمطلَّقاتُ يتربصْنَ بأنفسهنَّ ثلاثةَ قروء ﴾ [البقرة : ٢٢٨] ، إذ يقول : ((وإخراج الأمر في صورة الخبر تأكيد للأمر وإشعار بأنه مما يجب أنْ يُتَلقى بالمسارعة إلى امتثاله ، فكأنهن امتثلن الأمر بالتربص فهو يخبر عنه موجوداً ، ونحوه قولهم في الدعاء رحمك الله ، أخرج في صورة الخبر ثقة بالاستجابة كأنما وجدت الرحمة فهو يخبر عنها)) [١] .

وهو ما أشار إليه البلاغيون بمسألة التبادل [٢] بين الخبر والإنشاء في مواقعهما .

فقد يتبادل الخبر والإنشاء مواقعهما ، فيحل أحدهما محل الآخر ، وذلك لأغراض بلاغية يقتضيها السياق ، فـ ((القالب اللفظي ليس فيصلاً بين الخبر والإنشاء ، وإنما ما يحسه الإدراك من طبيعة المعنى وقصد المتكلم إليه)) [٣] ، فالقصد يكمن في الباطن ومناسبة السياق وليس في اللفظ الظاهر ، ويكون ذلك كما في هاتين الصورتين :

الأولى : التعبير بالخبر في موضع الإنشاء :

يقع لفظ الخبر موقع لفظ الإنشاء لأغراض بلاغية ، منها [٤] :

---

(١) الطراز ٥٣٦،٥٣٥ .

(١) الكشاف ٣٦٥/١ .

(٢) ينظر : المسائل العسكريات ٥٩،٥٦ ، الخصائص ٢/ ٣٠١ ، الصاحبي ٢٦٢،٢٦١ ، المنزع البديع ٣٠٢،٣٠١ .

(٣) دلالات التراكيب ١٩٧ .

(٤) ينظر: أمالي ابن الشجري ٣٩٩،٣٩٢/١ ، مفتاح العلوم ٣٢٦،٣٢٤ ، الإيضاح ٩٣،٩٢/٢ ، شروح التلخيص ٢/ ٣٤٠،٣٣٨ ، البرهان في علوم القرآن ٣٤٩،٣٤٧/٣ ، بغية الإيضاح لتلخيص المفتاح ٦٠،٥٩ ، دلالات التراكيب ٣٨٥،٢٨٣ ، أساليب الطلب عند النحويين والبلاغيين ٢٠٦،٢٠٥ ، البلاغة فنونها وأفنانها ٢٠٣ .

١ ـ قصد التفاؤل بالوقوع : كما إذا قيل في مقام الدعاء : (غفر الله له) ، فإنه أبلغ من (رب اغفر له) ، ليتفاءل بلفظ الماضي على عدّها من الأمور الحاصلة ، التي حقّها الإخبار عنها بأفعال ماضية .

٢ ـ إظهار الحرص على وقوعه : فالطالب متى اشتد حرصه على ما يطلب ، ربما ارتسمت في الخيال صورته لكثرة ما يناجي به نفسه ، فيخيل إليه غير الحاصل حاصلاً .

٣ ـ الاحتراز عن صورة الأمر : كقول العبد للمولى إذا حوَّل عنه وجهه : (ينظر المولى إليّ) ، فإنه أكثر تأدباًمن قوله : (انظر إليّ) بصيغة الأمر .

٤ ـ حمل المخاطب على المطلوب : بأنْ يكون المخاطب ممن لا يحب أنْ يكذِّب الطالب ، أي ينسب إليه الكذب ، كقولك لصاحبك الذي لا يحب تكذيبك : (تأتيني غداً) ، مقام (ائتني) ، تحمله بألطف وجه على الإتيان ، لأنه إنْ لم يأتك غداً صرت كاذباً من حيث الظاهر ، لكون كلامك في صورة الخبر .

٥ ـ المبالغة في الطلب للتعبير على سرعة الامتثال : نحو قوله تعالى : ﴿ وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ لا تَسْفِكُونَ دِمَاءَكُمْ ﴾ [البقرة : ٨٤] ، لم يقل : لاتسفكوا قصداً للمبالغة في النهي حتى كأنهم نهوا فامتثلوا ، ثم أخبر عنهم بالامتثال ، ومنه قوله تعالى : ﴿ وَالْمُطَلَّقَاتِ يَتَرَبَّصْنَ بِأَنْفُسِهِنَّ ثَلاثَةَ قُرُوء ﴾ [البقرة : ٢٢٨] ، وقوله تعالى : ﴿ وَالْوَالِدَاتُ يُرْضِعْنَ أَوْلادَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْن ..﴾ [البقرة : ٢٣٣] .

الثانية : التعبير بالإنشاء في موضع الخبر لأغراض منها [(١)] :

١ـ منها إظهار العناية بالشيء والاهتمام بشأنه ،كقوله تعالى : ﴿ قُلْ أَمَرَ رَبِّي بِالْقِسْطِ وَأَقِيمُوا وُجُوهَكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِد ﴾ [الأعراف : ٢٩] لم يقل : وإقامة وجوهكم إشعاراً بالعناية بأمر الصلاة ، لعظيم شأنها، وجليل قدرها في الدين .

(١) ينظر : مفتاح العلوم ٣٢٦.٣٢٧ ، البرهان في علوم القرآن ٣/ ٣٥٠.٣٥١ ، جواهر البلاغة ٩٢ ، علوم البلاغة ١٤٧ ، علم المعاني دراسة بلاغية ونقدية ١٢٩/١ ، علم المعاني لعبد العزيز عتيق ١٢٠.١٢١ .

٢ـ ومنها التحاشي والاحتراز عن مساواة اللاحق بالسابق ، كقوله تعالى : ﴿ قَالَ إِنِّي أُشْهِدُ اللهَ وَاشْهَدُوا أَنِّي بَرِيٌء مِمَّا تُشْرِكُونَ مِنْ دُونِه ﴾ [هود : ٥٤ . ٥٥] لم يقل : وأشهدكم تحاشياً وفراراً من مساواة شهادتهم بشهادة الله تعالى . وغير ذلك من الحالات ...

ومن خلال هذه الإشارة إلى مسألة التبادل بين الخبر والإنشاء فإننا نريد أنْ نبين أنّ مسألة المزاوجة بين الخبر والإنشاء _ التي هي مدار حديثنا في هذه الدراسة _ تختلف عن مسألة التبادل بين الخبر والإنشاء ، وذلك أنهما ظاهرتان مختلفتان ، إذ التبادل بين الخبر والإنشاء يكون في الآية أحادية القراءة على أنه يقوم بإحلال أحدهما محل الآخر؛ لأن الظاهر منهما يتعارض وقوعه مع الواقع والسياق _ كما أشار إلى ذلك صاحب الطراز في كلامه السابق _ فالمراد هو صيغة الباطن ، ولكن جيء بصيغة الظاهر منهما تفاؤلاً بوقوعه بصورة الخروج عن مقتضى الظاهر .

أما المزاوجة فإنها ظاهرة أعم وأشمل من ظاهرة التبادل ، وذلك من ناحيتين :

الأولى : أنها تكون في آية ثنائية القراءة ، فيكون الخبر في قراءةٍ كطرفٍ ، والإنشاء في قراءةٍ أخرى كطرفٍ آخر ، فمجالها أرحب من ظاهرة التبادل التي تكون في آية أحادية القراءة يقوم أحد طرفيها مقام الآخر ، وهنا تظهر علاقة الخصوص والعموم ، إذ يمكن لظاهرة التبادل أن تندرج ضمناً في حالة من حالات ظاهرة المزاوجة ، على أنْ تكون في أحد طرفيها ، فعلى سبيل المثال حصل في موضع (لا تضارّ : صفحة ١٤٧) إذا كانت قراءة النهي الطرف الأول من طرفي المزاوجة ، وقراءة الخبر الطرف الثاني ، فحصل أنَّ الخبر في الطرف الثاني مثَّل (ظاهرة التبادل) ، إذ هو خبر في معنى النهي ، فخروج الخبر إلى معنى النهي في الطرف الثاني من خلال ظاهرة التبادل ، إنما هو تأكيد لقراءة النهي وهي الطرف الأول من طرفي المزاوجة ، وذلك هو سبيل المزاوجة بين طرفي أو قراءتي هذا الموضع .

أما الناحية الثانية : فهي أن عملية التبادل تأخذ بدلالة أحد الأسلوبين ؛ لأن أحدهما قام مقام الآخر خروجاً عن مقتضى الظاهر وذلك لأنهما متناقضان ، فلا سبيل إلا بتبادل الأدوار ، فهي أحادية المعنى . أما المزاوجة فتأخذ بدلالة الأسلوبين جميعاً ، فهي ثنائية المعنى وذلك أنَّ فيها إعْمَالاً لكل دور من الأدوار ، مما يثري السياق ، ويضفي عليه صفة التكاملية ، وصورة المشاركة والبناء ، فالجميع فاعل في بناء مكونات السياق ، فسبيل المزاوجة يجمع بين الأسلوبين والمعنيين في مشهد واحد ، فالخبر معتبر في السياق ، كما أن الإنشاء معتبر كذلك ، فهذا هو سر المزاوجة إذ تحيكُ علاقة تكاملية بين الأسلوبين ، لكل منهما دوره في صياغة المعنى وإثراء السياق .

ومن هنا نتبين أنَّ التبادل إنْ كان بليغاً بخروجه عن مقتضى الظاهر فإنَّ المزاوجة أبلغ من حيث ورودها على مقتضى الظاهر ، وذلك أنَّ التبادل حصل لأنَّ السياق يقتضيه ويوجبه لحصول التناقض مع أحد طرفيه ، فكان الخروج عن مقتضى الظاهر هروباً من هذا التناقض ، أما المزاوجة فإن السياق لا يحكمها بل هي التي تشكل السياق وترسم حدوده وأُطُره .

هذا و إنَّ ثمة سراً آخر من أسرار المزاوجة ، أَلا وهو أنَّ التباعد والتغاير والتناقض بين الخبر والإنشاء يختفي في ظل إطار فكرة المزاوجة ، فحينما تقرر سابقاً أنَّ الخبر والإنشاء طبيعتان متغايرتان لكل منهما سبيله ، سيتبين لنا أنهما مع المزاوجة صنوان ، كلٌّ منهما يأخذ بيد الآخر فيتعاضدان و يتكاملان ،وهذا هو سبيل المزاوجة ، إذ تجعل من المتغايرين صنوين ، ومن المختلفين أخوين مترابطين.

فالمزاوجة تؤلف بين المتغايرين وتجمع بينهما في نفس السياق ، ولذلك صور كثيرة ، و لكن قبل أن نذكر هذه الصور علينا أن نبين خصائص الأسلوب الإنشائي و خصائص الأسلوب الخبري حتى نجسد طبيعة كل منهما .

ذلك أنَّ الأسلوب الإنشائي يتناسب مع مواضع الخطاب ، و إثارة الوجدان و تحريك الضمير ، فإنَّ النفس إذا امتلأت بالأحاسيس ، وفاضت بالمشاعر ، وكانت مشحونة بالمعاني ، فإنه لا يكفيها التعبير بالأسلوب الخبري لتفريغ هذه الشحنات بقدر ما تحتاج إلى الأسلوب الإنشائي لترجمة هذه

المعاني إلى كلمات تتسع لإطلاق بواقي زفرات النفس وأنّات الضمير ، و لتصوير تلك المعاني بصور مختلفة ، و لبعثها من خلال أساليب التواصل الخطابية ، للتعايش مع الآخرين ، فالإنسان اجتماعي بطبعه لا يمكن أنْ يكبت عواطفه ومشاعره وأحاسيسه ووجدانه ، بل يبعث بها رسائل إلى قلوب الآخرين ، وذلك من خلال أساليب كثيرة ؛ كالأمر والنهي التي تنبئ عن معاني إثبات الذات وتحقيق الوجود ، أو تؤدي إلى دوران عجلة الحياة وتسيير حركتها في الاتجاه المطلوب ، بشتى وسائل التفاعلات النفسية من التماس أو توجيه أو إرشاد .

وقد يكون تفريغ المعاني والمشاعر من خلال أساليب الاستفهام التي تفيد التثبت والتحقيق في صورتها الأولية ، أو ترتقي إلى معانٍ أخرى تصدر من أعماق النفس تعبر عن التوبيخ والإنكار أو التهديد مصحوبة بتغيير في نبرات الصوت ، أو ترسم تلك المعاني من خلال تقاسيم الوجه التي تدل على الرضا أو التعجب والاستغراب أو التقرير أو الدهشة .

أو يكون ذلك من خلال أسلوب التمني الذي يسعف الإنسان ليتخلص من أغلال الحاضر ، فيتذكر الماضي ويحنُّ إليه بكل ما فيه من ذكريات الطفولة والصبا ، أو يستحضر الماضي التليد فيشتاق إليه ، أو يطير بأشواقه إلى المستقبل البعيد حيث الخيال البراق ، والأماني اللامعة ، والأسوار المحطمة ، والأحلام السابحة في الفضاء الرحب ، فهناك الأبراج العاجية والحصون المبنية ، والهموم المنسية .....

وقد يكون من خلال أسلوب النداء الذي تخرج معه المعاني من خلال امتداد صوت المنادي ، يترجم بها علامات الحب والقرب للمنادى ولو كان بعيداً ، أو علامات الكره والبعد ولو كان قريباً ، فالنداء يحقق له الراحة النفسية إذ يقرّب البعيد ويبعّد القريب شعورياً ، لذلك يستطيع الإنسان أنْ يعبّر عما في نفسه من خلال ندائه ما حوله ليشعر بالتعايش والتواصل ، وقد يجرّد من نفسه إنساناً آخر يناديه ، وربما تعايش مع بيئته فأخذ ينادي الديار أو الذكريات .

والنداء عملية تفاعلية توقظ النفس وتلفت الذهن لتلقّى المراد ، وكثيراً ما تصحب الأساليب الإنشائية من أمر أو نهي أو استفهام وذلك لتهيئ لها النفس وتوقظها لما هو آت .

أما الخبر فيجيء بخطى ثابتة الأقدام ، راسخة الجذور ، يجيء ليبعث الثقة في النفوس بدلالات التأكيد ، وأساليب القطع والإثبات والجزم ، كما يجيء ليشيع معاني الأمان والاطمئنان والاستقرار ، فيصل المقطوع ، ويعرِّف الموصول ، ويصف النكرات بأوصاف التقريب ، ويثبت المعارف بأحوال التقييد ، ويستميل النفوس ويستدرجها إلى دائرة الإحسان من خلال الثناء العاطر ، أو يكبح جماحها من خلال التوجيه والحث والإرشاد ، يكون ذلك بالتصريح تارة وبالتلميح تارات عبر رسائل ضمنية وإشارات دلالية .

كما أنه يلبس ثوب الحكاية ليبث أخبار الماضي ، فيسافر بالنفس من احتمالات الحاضر إلى حقائق الماضي عبر متن سفينة الإسناد ، يجدِّف بها تارة لتتحرك في خضمّ أمواج بحار الجملة الفعلية المتلاطمة ، ويستريح بها تارة في أحضان شواطئ الجملة الاسمية ، مراعياً في ذلك أحوالها ، فإنْ كانت خالية أهداها كل مفيد ، وإن كانت مرتابة رسّخ أقدامها بالخبر الأكيد ، وإن كانت ولاّجةً خرّاجةً متملِّصة منكِرة صوّب عليها سيلاً من سهام التوثيق والتوكيد ، وجرّعها جرعات من التوطيد ، ليأخذ بتلابيبها إلى ساحة الرضا والقبول .

و بعد ؛ فهذه طبيعة الأسلوب الإنشائي و طبيعة الأسلوب الخبري ، و من هاتين الطبيعتين تتشكل ملامح المولود الجديد عبر وسيلة المزاوجة ، و التي هي عملية بناء معنى السياق من خلال الربط بين دلالات الأسلوبين المتغايرين على سبيل التكامل و التأييد .

أمّا التكامل فيكون بالجمع بين الأسلوبين المتغايرين ومعنييهما المختلفين ، إذ تقوم المزاوجة بعملية تكامل بناء السياق من خلال الربط و التفاعل بين الأسلوبين المتغايرين ، و لذلك صور كثيرة منها :

أنها مرّة تجمع بين الأسلوبين المتغايرين في صورتين متعاقبتين [1] متتابعتين ، فها هو الستار يكشف عنهم في الصورة الأولى وهم مأمورون مطلوبون من خلال أسلوب الإنشاء ثم يسدل عليهم ، ثم يُزاح عنهم في الصورة الثانية من خلال أسلوب الخبر وقد صاروا محققين ممتثلين في صورة محكية ، فاختزل السياق مسافات الزمن عندما جمع بين الصورتين ، واختصر أساليب التعبير عندما زاوج بين المعنيين _ من خلال القراءتين في آية واحدة _ فتراهم وهم مأمورون وتراهم وهم ممتثلون ، وكأنك ترى الصورتين في آن واحد ، فلن تملك إلا أنْ تسبح القدير على هذا النص المعجز ، فعندما طرأ تغيير على اللفظة في مبناها جمعت بين الصورتين في معناها .

ومرة تجمع بين الأسلوبين المتغايرين في صورتين متقابلتين[2] ، فترسم الصورة الأولى وجهاً من المعنى وترسم الثانية الوجه الآخر ، فعندما يُطلبون ويُؤمرون من خلال أسلوب الإنشاء ، يأتيهم أسلوب الخبر مبيناً لسبب وعلة ذلك الطلب ، فقد يكون من وسائل الإقناع بيان الحكمة والسبب ترويضاً لبعض النفوس .

وقد يكون الجمع بين الصورتين المتقابلتين جمعاً لصور[1] التفلُّت عند بعض النفوس فتارة ينكرون ويعترضون من خلال أسلوب الإنشاء وتارة يثيرون الشبه والشكوك من خلال أسلوب الخبر ، فهو على سبيل تصوير الموقف بجمع شوارده .

ومرة يجتمع الأسلوبان المتغايران في صورة واحدة ومشهد [2] حيّ ، فهؤلاء قالوه خبراً وهؤلاء قالوه إنشاءً وهي سنة الاختلاف بين طبائع النفوس البشرية ، فهي صورة مركبة جمعت في موقف واحد بين هذه الطبائع المختلفة تصويراً للحدث وبياناً لكيفية وقوعه ....

و أمّا التأييد فيكون من خلال التقوية أو التأكيد .

---

(١) انظر على سبيل المثال : موضع (اتخذوا) : صفحة / ١٠٠، و موضع (اعلم) : صفحة / ١٠٤، و موضع (قل سبحان ربي) : صفحة / ١٠٨، و موضع (باعد) : صفحة / ١١٤، و موضع (قل إنما أدعو) : صفحة / ١٢١، و موضع (انطلقوا) : صفحة / ١٢٢ .

(٢) انظر على سبيل المثال : موضع (إنا لمغرمون) : صفحة / ٨٤ ، و موضع (و ليحكم) : صفحة / ١٢٣ ، و موضع (و ليتمتعوا) : صفحة / ١٢٥ ، و موضع (ألا تتخذوا) : صفحة / ١٤٠ .

(١) انظر على سبيل المثال : موضع (أأعجمي) : صفحة / ٨٢ .

(٢) انظر على سبيل المثال : موضع (أإنك لأنت يوسف) : صفحة / ٩٣ ، و موضع (لئن لم يرحمنا ربنا) : صفحة / ١٥٧ ، و موضع (و لا نكذب و نكون) : صفحة / ١٧٠ .

فأما التقوية فتكون من خلال تنوع الأسلوبين المتغايرين ،على أنَّ أحدهما يتضمن [٣] معنى الآخر ، فتقوم المزاوجة بتقوية أحدهما بالآخر ، فتحصل التقوية للمعنى ؛ لأنه جاء مرةً بأسلوب صريح ، و مرةً بأسلوب ضمنيّ .

و أما التأكيد فيكون من خلال تنوع الأسلوبين المتغايرين مع اتحاد معنييهما [٤] ، فتقوم المزاوجة بعملية تأكيد أحدهما بالآخر ، فحصل تأكيد المعنى لأنه جاء بأسلوبين مختلفين في موقف تكاتف وتأييد ، فيكون أسلوب الخبر معاضداً ومؤكداً لأسلوب الإنشاء ، آخذاً بيده ومؤيداً لِمذهبه ورُؤَاه ... إلى غير ذلك من الصور التي تعمل على توظيف كل أسلوب ليؤدي دوره الهام في بناء النص وإثراء معناه .

(٣) انظر على سبيل المثال : موضع (أإنكم لتأتون الرجال) : صفحة / ٦٤ ، و موضع (أإذا ما مت) : صفحة / ٧٥ ، و موضع (أصطفى) : صفحة /٨٠ ، و موضع (و لا تسأل) : صفحة / ١٣٦ .

(٤) انظر على سبيل المثال : موضع (أن يؤتى) : صفحة / ٥٩ ، و موضع (أو أمن) : صفحة / ٦٥ ، و موضع (أذهبتم) : صفحة / ٧٠ ، و مواضع (أإذا . أإنّا) : صفحة / ٨٦ ، و موضع (أو آباؤنا) : صفحة / ٨٩ ، و موضع (فلا رفث) : صفحة / ١٤٤ ، و موضع (لا تضار) : صفحة / ١٤٧ ، و موضع (و لا تتبعان) : صفحة /١٥٠ .

القراءات والنظم القرآني

لقد كان القرآن الكريم معجزاً [١] في وجوه كثيرة ، ومن ذلك أنه معجز في يسره وسهولته ؛ وذلك من خلال نزوله على سبعة أحرف ، كما جاء في حديث ((إنَّ هذا القرآن أنزل على سبعة أحرف فاقرؤوا ما تيسر منه)) [٢]، فكانت هذه الأحرف رحمة على هذه الأمة الأمية ، يقول ابن قتيبة ((وكل هذه الحروف كلام الله تعالى ، نزل به الروح الأمين على رسوله عليه السلام . وذلك أنه كان يعارضه في كل شهر من شهور رمضان بما اجتمع عنده من القرآن ، فيُحْدِثُ الله إليه من ذلك ما يشاء ، وينسخ ما يشاء ، فكان من تيسيره أنْ أمره بأن يُقْرئ كل قوم بلغتهم وما جرت عليه عادتهم ..)) [٣] .

فهذه الأحرف هي اللغات أو الأوجه التي نزل عليها القرآن ، وقد اختلف الناس في تفسير هذه الأوجه اختلافاً[٤] واسعاً ، مع إجماعهم على أنَّ الأحرف السبعة ليست هي القراءات السبع المتواترة ، إذ القراءات جزء من الأحرف ، يقول أبو محمد مكي بن أبي طالب : ((هذه القراءات كلها التي يقرأ بها الناس اليوم وصحَّت رواياتها عن الأئمة ، إنما هي جزء من الأحرف السبعة التي نزل بها القرآن ، ووافق اللفظ بها خط المصحف ، مصحف عثمان الذي أجمع الصحابة فَمَنْ بعدهم عليه)) [٥].

ومن هنا فالقراءة المتواترة المستفيضة المشهورة المتلقاة بالقبول تسمى قرآناً، وتأخذ أحكامه، ومالم يكن كذلك فهي شاذة ولا يصح تسميتها قرآناً .

والقراءة سنة متبعة يأخذها الآخر عن الأول بالرواية والإسناد ، ولا مجال فيها للرأي ولا للقياس ؛ ولذلك أجمع المسلمون على أنْ لا تقبل قراءة ولا يحكم بقرآنيتها إلا بتوفر وتحقيق ثلاثة ضوابط

---

(١) ينظر : إعجاز القرآن للباقلاني ٤٩.٣٣ .

(٢) صحيح البخاري باب (أنزل القرآن على سبعة أحرف)٤٧٠٦ .

(٣) تأويل مشكل القرآن لابن قتيبة ٣٠ .

(٤) ينظر : البرهان في علوم القرآن ٢٢٧.٢١٣/١، النشر في القراءات العشر ٣١.٢٦/١، الإتقان في علوم القرآن ٦١/١ ، مناهل العرفان في علوم القرآن ١٦٩.١٥٤/١، حديث الأحرف السبعة ٦٥.٤٢، الأحرف السبعة ١٨٩.١٢١، القراءات أحكامها ومصدرها ٣٨.٣٢، أثر القراءات القرآنية في الدراسات النحوية ٢٩.١٨، لمحات في علوم القرآن ١١٤.١١٢ .

(٥) الإبانة ٣٤.

مجموعة فيها ، وهي[1] كما قال ابن الجزري : ((كل قراءة وافقت العربية ولو بوجه ، ووافقت أحد المصاحف العثمانية ولو احتمالاً ، وصحَّ سندها ، فهي القراءة الصحيحة التي لا يجوز ردها ، ولا يحل إنكارها ، بل هي من الأحرف السبعة التي نزل بها القرآن ، ووجب على الناس قبولها ، سواء كانت عن الأئمة السبعة أم عن العشرة أم عن غيرهم من الأئمة المقبولين))[2]. ثم حصرها في العشرة إذ قال : ((والذي جمع في زماننا هذه الأركان الثلاثة هو قراءة الأئمة العشرة التي أجمع الناس على تلقيها بالقبول ، وهم أبو جعفر ونافع وابن كثير وأبو عمرو ويعقوب وابن عامر وعاصم وحمزة والكسائي وخلف))[3].

وعلى هذا فالقراءات المتواترة هي قراءات هؤلاء الأئمة العشرة ، وهم :

١. نافع المدني[4]: وهو أبو رويم ، نافع بن عبد الرحمن بن أبي نعيم الليثي ، أصله من أصفهان وهو مولى (جعونه بن شعوب الليثي) ، توفي بالمدينة المنورة سنة تسع وتسعين ومائة .

وأشهر الرواة عنه اثنان :

أ ـ قالون[5]: وهو عيسى بن مينا بن وردان بن عيسى بن عبد الصمد ، وقالون لقب له لقَّبه به نافع لجودة قراءته ، توفي بالمدينة المنورة سنة عشرين ومائتين .

ب ـ ورش[6]: وهو عثمان بن سعيد بن عبد الله المصري ، ويكنى بأبي سعيد ، و ورش لقب له لُقِّب به لشدة بياضه ، توفي سنة سبع وتسعين ومائة .

٢. ابن كثير المكي[1] : وهو عبد الله بن كثير بن عمر بن زاذان بن فيروز بن هرمز المكي . توفي سنة عشرين ومائة .

---

(١) ينظر : البرهان في علوم القرآن ١/١٥٢.١٥٥، مناهل العرفان في علوم القرآن ١/٤١٦.٤٢٢، القراءات القرآنية لقابة ١٥٥.١٦١، القراءات أحكامها ومصدرها ٧٧، القراءات القرآنية للفضلي ١١٢، حديث الأحرف السبعة ٩٦.٩٧ ، الأحرف السبعة ٣١ ، لمحات في علوم القرآن ١٠٧.١٠٨ .

(٢) النشر ١/١٥ .

(٣) منجد المقرئين ١٥، وينظر : مناهل العرفان في علوم القرآن ١/٤٣٩ ، الأحرف السبعة ٢٩٩ ، القراءات أحكامها ومصدرها ٨١.٨٣ ، القراءات القرآنية لقابة ١٩٥.١٩٦ ، حديث الأحرف السبعة ١٠٨.١١٥ .

(٤) ينظر في سيرته : معرفة القراء الكبار ١/ ١٠٧ . ١١١ ، سير أعلام النبلاء ٧ / ٣٣٦ ، النشر ١/٩٢.٩٣ .

(٥) ينظر في سيرته : معرفة القراء الكبار ١/ ١٥٥ . ١٥٦ ، سير أعلام النبلاء ١٠ / ٣٢٦ ،النشر ١/٩٣ .

(٦) ينظر في سيرته : معرفة القراء الكبار ١/ ١٥٢ . ١٥٥ ، سير أعلام النبلاء ٩ / ٢٩٥ ،النشر ١/٩٣ .

(١) ينظر في سيرته : معرفة القراء الكبار ١/ ٨٦ . ٨٨ ، سير أعلام النبلاء ٥ / ٣١٨ ،النشر ١/٩٩ .

وأشهر الرواة عنه اثنان :

أ ـ البـــزي[٢]: وهـو أحمـد بـن محمـد بـن عبـدالله بـن القاسـم بـن نـافع بـن أبـي بـزة . توفي سنة خمسين ومائتين .

ب ـ قنبـــل[٣]: وهـو محمـد بـن عبـد الـرحمن بـن محمـد بـن خالـد بـن سـعيد المخزومـي . توفي سنة إحدى وتسعين ومائتين .

٣. أبو عمرو البصري[٤] : وهو زبان بن العلاء بن عمار بن العريان المازني التميمي البصري ، وقيل اسمه يحيى . توفي بالكوفة سنة أربع وخمسين ومائة .

وأشهر الرواة عنه اثنان :

أ ـ الـدوري[٥]: وهـو حفـص بـن عمـر بـن عبـد العزيـز بـن صـبهان بـن عـدي الـدوري الأزدي . توفي سنة ست وأربعين ومائتين .

ب ـ السوسي[٦]: وهو صالح بن زياد بن عبد الله بن إسماعيل بن الجارود السوسي ، وكنيته أبو شعيب . توفي سنة إحدى وستين مائتين .

٤. عبد الله بن عامر الشامي[٧]: وهو عبد الله بن عامر بن يزيد بن تميم بن ربيعة اليحصبي ، المكنى بأبي عمرو . توفي بدمشق سنة ثماني عشرة ومائة .

وأشهر من روى عنه اثنان :

أ ـ هشام[١]: وهو هشام بن عمار بن نصير بن ميسرة السلمي الدمشقي ، كنيته أبو الوليد . توفي سنة خمس وأربعين ومائتين .

---

(٢) ينظر في سيرته : معرفة القراء الكبار ١/ ١٧٣ ـ ١٧٨ ، سير أعلام النبلاء ١٢ / ٥٠ ،النشر ٩٩/١ .
(٣) ينظر في سيرته : معرفة القراء الكبار ١/ ٢٣٠ ، سير أعلام النبلاء ١٤ / ٨٤ ، النشر ٩٩/١ .
(٤) ينظر في سيرته : معرفة القراء الكبار ١/ ١٠٠ ـ ١٠٥ ، سير أعلام النبلاء ٦ / ٤٠٧ ، النشر ١٠٩/١ .
(٥) ينظر في سيرته : معرفة القراء الكبار ١/ ١٩١ ـ ١٩٢ ، سير أعلام النبلاء ١١ / ٥٤١ ، النشر ١١٠/١ .
(٦) ينظر في سيرته : معرفة القراء الكبار ١/ ١٩٣ ، سير أعلام النبلاء ١٢ / ٣٨٠ ، النشر ١١٠/١ .
(٧) ينظر في سيرته : معرفة القراء الكبار ١/ ٨٢ ـ ٨٦ ، سير أعلام النبلاء ٥ / ٢٩٢ ، النشر ١١٧/١ .
(١) ينظر في سيرته : معرفة القراء الكبار ١/ ١٩٥ ـ ١٩٨ ، النشر ١١٧/١ .

ب ـ ابن ذكوان[٢]: وهو عبد الله بن أحمد بن بشر، ويقال : بشير بن ذكوان بن عمر القرشي الدمشقي ويكنى بأبي عمرو . توفي بدمشق سنة اثنتين وأربعين ومائتين .

٥ـ عاصم الكوفي[٣]: وهو عاصم بن أبي النجود ، وقيل اسم أبيه عبد الله ، وكنيته أبو النجود ، ويكنى بأبي بكر . توفي بالكوفة سنة سبع وعشرين ومائة .

وأشهر الرواة عنه :

أ ـ شعبة[٤]: وهو أبو بكر شعبة بن عياش بن سالم الحناط الأسدي الكوفي . توفي سنة ثلاث وتسعين ومائة .

ب ـ حفص[٥] : وهو حفص بن سليمان بن المغيرة بن أبي داود الأسدي الكوفي . توفي سنة ثمانين ومائة .

٦ـ حمزة الكوفي [٦]: وهو حمزة بن حبيب بن عمارة بن إسماعيل الكوفي . توفي سنة ست وخمسين ومائة بحلوان في العراق .

وأشهر من روى عنه :

أ ـ خلف : و ستأتي ترجمته في قراءته إنْ شاء الله تعالى .

ب ـ خلاد[٧]: وهو خلاد بن خالد الشيباني الصيرفي الكوفي ، وكنيته أبو عيسى . وتوفي سنة عشرين ومائتين .

٧ـ الكسائي الكوفي[١]: وهو علي بن حمزة بن عبد الله بن عثمان النحوي ، المكنى بأبي الحسن ، ولقّب بالكسائي لأنه أحرم في كساء . وتوفي سنة تسع وثمانين ومائة .

---

(٢) ينظر في سيرته : معرفة القراء الكبار ١/ ١٩٨ . ٢٠١ ، سير أعلام النبلاء ١١ / ٤٨٩ ، النشر ١١٨/١ .

(٣) ينظر في سيرته : معرفة القراء الكبار ١/ ٨٨ . ٩٤ ، سير أعلام النبلاء ٥ / ٢٥٦ ، النشر ١٢٦/١ .

(٤) ينظر في سيرته : معرفة القراء الكبار ١/ ١٣٤ . ١٣٨ ، سير أعلام النبلاء ٨ / ٤٩٥ ، النشر ١٢٦/١ .

(٥) ينظر في سيرته : معرفة القراء الكبار ١/ ١٤٠ . ١٤١ ، سير أعلام النبلاء ٦ / ٧ ، النشر ١٢٦/١ .

(٦) ينظر في سيرته : معرفة القراء الكبار ١/ ١١١ . ١١٨ ، سير أعلام النبلاء ٧ / ٩٠ ، النشر ١٣٣/١ .

(٧) ينظر في سيرته : معرفة القراء الكبار ١/ ٢١٠ ، النشر ١٣٣/١ .

(١) ينظر في سيرته : معرفة القراء الكبار ١/ ١٢٠ . ١٢٨ ، سير أعلام النبلاء ٩ / ١٣١ ، النشر ١٣٨/١ .

وأشهر من روى عنه اثنان :

أ ـ **الليـــث**(٢): وهو الليث بن خالد المروزي البغدادي ، وكنيته أبو الحارث . توفي سنة أربعين ومائتين .

ب ـ **حفص الدوري** : تقدم الكلام عليه في ترجمة أبي عمرو بن العلاء ، لأنه روى عنه وعن الكسائي .

ﻫ ـ أبو جعفر المدني(٣): وهو يزيد بن القعقاع المخزومي المدني ، كنيته أبو جعفر . توفي سنة ثلاثين ومائة .

وأشهر من روى عنه اثنان :

أ ـ **عيســى بــن وردان**(٤): وهو عيسى بن وردان المدني ، وكنيته أبو الحارث . توفي سنة ستين ومائة .

ب ـ **ابن جماز**(٥): وهو سليمان بن محمد بن مسلم بن جماز الزهري المدني ، وكنيته أبو الربيع . وتوفي بعد سنة سبعين ومائة .

ي ـ يعقوب البصري(٦): وهو يعقوب بن إسحاق بن زيد بن عبد الله بن أبي إسحاق الحضرمي البصري ، وكنيته أبو محمد . توفي سنة خمس ومائتين .

وأشهر تلاميذه :

أ ـ **رويـــس**(١): وهو محمد بن المتوكل اللؤلؤي البصري ، وكنيته أبو عبدالله . توفي بالبصرة سنة ثمان وثلاثين ومائتين .

---

(٢) ينظر في سيرته : معرفة القراء الكبار ١/ ٢١١ ، سير أعلام النبلاء ١١ / ٤٧٤ ، النشر ١٣٨/١ .

(٣) ينظر في سيرته : معرفة القراء الكبار ١/ ٧٢ . ٧٦ ، سير أعلام النبلاء ٥ / ٢٨٧ ،النشر ١٤٣/١ .

(٤) ينظر في سيرته : معرفة القراء الكبار ١/ ١١١ ، النشر ١٤٣/١ .

(٥) ينظر في سيرته : النشر ١٤٣/١ .

(٦) ينظر في سيرته : معرفة القراء الكبار ١/ ١٥٧ . ١٥٨ ، سير أعلام النبلاء ١٠ / ١٦٩ ،النشر ١/ ١٤٩ .

ب ـ روح[٢]: وهو روح بن عبد المؤمن الهذلي البصري النحوي ، وكنيته أبو الحسن . توفي سنة أربع أو خمس وثلاثين ومائتين .

١٠ـ خلف الهاشم[٣]: الإمام العاشر خلف بن هشام بن ثعلب الأسدي البغدادي ، وكنيته أبو محمد . توفي ببغداد سنة تسع وعشرين ومائتين .

ومن أشهر من روى عنه :

أ ـ إسحاق[٤]: وهو إسحاق بن إبراهيم بن عثمان بن عبد الله المروزي ثم البغدادي الوراق ، كنيته أبو يعقوب . توفي سنة ست وثمانين ومائتين .

ب ـ إدريس[٥]: وهو إدريس بن عبد الكريم الحداد البغدادي ، وكنيته أبو الحسن . توفي سنة ست وثمانين ومائتين .

---

(١) ينظر في سيرته : معرفة القراء الكبار ١/ ١١٢ ، النشر ١٤٩/١ .

(٢) ينظر في سيرته : معرفة القراء الكبار ١/ ١٠٩ ، النشر ١٤٩/١ .

(٣) ينظر في سيرته : معرفة القراء الكبار ١/ ١٠٣ ، سير أعلام النبلاء ١٠ / ٥٧٦ ، النشر ١٥٣.١٥٢/١ .

(٤) ينظر في سيرته : النشر ١٥٣/١ .

(٥) ينظر في سيرته : معرفة القراء الكبار ١/ ١٦٢، سير أعلام النبلاء ١٤ / ٤٤ ، النشر ١/ ١٣٤ .

عوداً على بدْء ، فتعدُّد القراءات وتنوُّعها في الموضع الواحد أو في الآية الواحدة يعتبر وجهاً من وجوه إعجاز النظم القرآني الكريم ، وله حِكَمٌ وفوائد ، منها [1]:

١ ـ أنَّ في تعددها كمال الإعجاز مع غاية الاختصار وجمال الإيجاز ، إذ كل قراءة بالنسبة إلى الأخرى بمنزلة آية مستقلة ، ولا يخفى أنَّ تنوع المعاني تابع لتنوع الألفاظ ، ولو جعل الله كل قراءة تخالف الأخرى آية مستقلة لكان في ذلك من التطويل ما يتعارض مع جمال الإيجاز وبقاء الإعجاز .

٢ ـ أنها تشتمل على أضرب منها متغايرة متنوعة ، فكلما أجريتَ الآية على وجه تبين لك ضرب من المعاني مغاير لما يحتويه الوجه الآخر منها ، وفي ذلك جانب عجيب مدهش من جوانب إعجاز هذا القرآن .

٣ ـ أنَّ القرآن تحدَّى جميع العرب ، فلو أتى بلغة دون لغة لقال الذين لم يأت بلغتهم : لو أتى بلغتنا لأتينا بمثله .

٤ ـ أنَّ وجود القراءات حمل العلماء على توجيهها ، فأغنى هذا التوجيهُ العربيةَ .

هذا وإنَّ الاختلاف في القراءات اختلاف تنوُّع ، لا اختلاف تضاد ، فالقرآن كلَّه على تنوُّع قراءاته يصدِّق بعضه بعضاً ، ويبيِّن بعضه بعضاً ، ويشهد بعضه لبعض ، وهو معجز إذا قرئ بهذه القراءة ، ومعجز إذا قرئ بتلك القراءة ، ومن هنا فإنَّ اجتماع القراءات في الموضع الواحد مما يزيد النظم قوة وسبكاً ، ومما يدل على أنَّ القرآن الكريم معجز في نظمه . وهذا بطبيعة الحال يخالف مسألة ترجيح قراءة على حساب قراءة ،كما قال أبو حيان : ((وهذا الترجيح الذي يذكره المفسرون والنحويون بين القراءتين لا ينبغي ؛ لأنَّ هذه القراءات كلها صحيحة ، ومروية ثابتة عن رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ ، لكل منها وجه ظاهر حسن في العربية ، فلا يمكن فيها ترجيح قراءة على قراءة)) [2] . فلابد من قبول كل قراءة طالما أنها متواترة ،كما قال ابن الجزري : ((وكل ما صحّ عن النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ من ذلك فقد وجب قبوله ولم يَسَعْ أحداً من الأمة رَدُّه ،

(١) ينظر : النشر في القراءات العشر ٤٧ . ٤٨ ، مناهل العرفان في علوم القرآن ١٥١.١٤٨/١ ،حديث الأحرف السبعة ٩٣.٨١ ، القراءات أحكامها ومصدرها ٤١.٣٩ ، القراءات القرآنية لقابة ٧٢.٦٧ ، الأحرف السبعة ٢٢٨.٢١٤ ، لمحات في علوم القرآن ١٢٠.١١٩ .

(٢) البحر ٢٦٥/٢ ، وينظر : الإتقان في علوم القرآن ١٦٥/١ .

ولزم الإيمان به ، وأنَّ كله منزَّل من عند الله ، إذ كل قراءة منها مع الأخرى بمنزلة الآية مع الآية، يجب الإيمان بها كلها ، واتباع ما تضمنته من المعنى علماً وعملاً ، لا يجوز ترك موجب إحداهما لأجل الأخرى ظناً أنَّ ذلك تعارض ، وإلى ذلك أشار عبد الله بن مسعود _ رضي الله عنه _ بقوله : لا تختلفوا في القرآن ولا تتنازعوا فيه فإنه لا يختلف ولا يتساقط ، ألا ترون أنَّ شريعة الإسلام فيه واحدة ، حدودها وقراءتها وأمر الله فيها واحد ، ولو كان من الحرفين حرف يأمر بشيء ينهى عنه الآخر كان ذلك الاختلاف ، ولكنه جامع ذلك كله ، ومن قرأ على قراءة فلا يدعها رغبة عنها ، فإنه من كفر بحرف منه كفر به كله .

قلت : وإلى ذلك أشار النبي _ صلى الله عليه وسلم _ حيث قال لأحد المختلفين " أحسنت " وفي الحديث الآخر " أصبت " وفي الآخر " هكذا أنزلت " . فصوَّب النبي _ صلى الله عليه وسلم _ قراءة كل من المختلفين وقطع بأنها كذلك أنزلت من عند الله »[1].

فالأوْلى من عملية الترجيح هو استنباط الأوجه البلاغية ، والمعاني الخصبة التي تترتَّب على تعدُّد هذه القراءات في ذلك الموضع ، من خلال توجيه هذه القراءات ، وهو الفن الذي انبرى له ثلة من العلماء ، فأخذوا يؤلفون فيه بمصطلحات مختلفة ، كوجوه القراءات أو الحجة في القراءات أو معاني القراءات أو علل القراءات ، وكان الباعث لذلك هو الكشف عن وجوه القراءات وبيان معانيها، وهنا تبرز فوائد وحكم هذا التنوع والتعدد للقراءات والمزاوجة بينها في الموقع الواحد خلافاً لمسألة الترجيح أو الرد .

هذا وإنَّ أوجه تنوع القراءات في الموضع الواحد تتبادل بين التعريف والتنكير ، أو التقديم والتأخير ، أو الحذف والذكر ، أو الخبر والإنشاء ، وهذا الأخير هو محل دراستنا : **المزاوجة بين الخبر والإنشاء في النظم القرآني** ، كما سيأتي تطبيقه من خلال الفصول القادمة إنْ شاء الله تعالى ، وذلك بدراسة مواضع القراءات القرآنية التي زاوجت بين الخبر والإنشاء في الموضع الواحد ، وهو ما سننتقل إليه الآن ، مستمدين العون من الله فهو خير مستعان ...

(١) النشر ١/٤٦.٤٧ .

الفصل الأول

المزاوجة

بين الخبر والاستفهام

و أثرها في إثـــراء دلالات الســيـاق

الفصل الأول

المزاوجة بين الخبر والاستفهام

و أثرها في إثراء دلالات السياق

تعمل المزاوجة بين الخبر والاستفهام على إكساب النص دلالات خصبة ؛ ذلك بالجمع بين وجوه هذه الأساليب ؛ مما يكوِّن صورة تكاملية للمواقف ، أو بحمل بعضها على الآخر على سبيل التأكيد ، أو بالتقريب بينهما على سبيل التكاتف والتأييد ، فمرة يؤكد الاستفهام وجه الخبر ، وأخرى يتضمن الخبر وجه الاستفهام ،وهذا الدور الذي تقوم به المزاوجة إنما يؤدي إلى تولَّد المعاني من خلال التقاء الأسلوبين ، فحينما بعثت قراءة الاستفهام دلالات الإثارة تصويراً للمعنى المناسب لذلك الموقف ، جاءت قراءة الخبر لتفصِل في ذلك الموقف بصورة الحكاية أو بصيغة التأكيد الضمني ، ومنهما تتكوَّن أبلغ المعاني و آكدها – ولا غرو– فالاستفهام من أبلغ الأساليب إثارةً للوجدان وأقواها وقعاً على النفس ، ويأتي الخبر فيزيده قوة إلى قوته .

ويظهر من خلال استقراء مواضع المزاوجة بين قراءة الخبر وقراءة الاستفهام أن موضع المزاوجة القرائية يدور دوراناً مع الهمزة وجوداً وعدماً ؛ لأنها أكثر الأدوات الاستفهامية وروداً في القرآن ، كما أنها الصورة التي يمكن قراءتها بأسلوب الخبر وأسلوب الإنشاء ؛ لأنها أصغر أدوات الاستفهام رسماً مع أنها أمها استعمالاً ، فوجود الهمزة وعدمه لا يؤثر

كثيراً في اختلاف رسم الكلمة المقروءة ، بقدر ما يزيد من معان دلالية تحمل السياق فيها مرة على الاستفهام ومرة على الخبر .

هذا وإنّ اللافت هنا في المزاوجة بين الخبر والاستفهام أنها تدور في فلك دلالات الإنكار و التوبيخ و التقرير وهي من أبرز الأغراض البلاغية التي تحدث عنها البلاغيون ، وأولوها اهتماماً كبيراً ، بل هي من أكثر الأغراض البلاغية وروداً في القرآن الكريم ، على أن الأغراض البلاغية الأخرى تندرج تحتها ضمناً وتدور في رحاها تباعاً ؛ ما يدل على قوة هذه الأغراض وثرائها بالدلالات التي تستفيض من النصوص .

وتتكون هذه المعاني نتيجة تزاوج أسلوب الخبر مع أساليب الاستفهام _ وهما ما تحدثنا عنهما سابقاً في التمهيد النظري _ أما في هذا الفصل فستظهر تلك النتيجة تطبيقاً من خلال المباحث الآتية : .

المبحث الأول : المزاوجة بين الخبر والاستفهام لإثراء السياق بدلالات الإنكار والتوبيخ .

المبحث الثاني : المزاوجة بين الخبر والاستفهام لإثراء السياق بدلالات الإنكار والتكذيب .

المبحث الثالث : المزاوجة بين الخبر والاستفهام لإثراء السياق بدلالات التقرير والتأكيد .

المبحث الأول

المزاوجة بين الخبر والاستفهام لإثراء السياق بدلالات الإنكار والتوبيخ

الإنكار معنىً قوي بطبيعته ، ويكون مدلوله أقوى لو داخله الاستفهام _ لاسيما الهمزة _ وبيْن الهمزة والإنكار علاقة وطيدة ، فهي من آكد الأدوات الاستفهامية دلالة عليه ، بل إن العلاقة بينهما لتبلغ إلى حد وجوب الإيلاء بين الهمزة والمنكَر بها ، وعدم التفريق بينهما .

هذا وإنَّ للقوة الناتجة عن ارتباط الهمزة الاستفهامية بالإنكار مفعولاً قوياً يكشفه لنا الإمام عبد القاهر بقوله : ((واعلم أَنَّا وإنْ كنا نفسر الاستفهام في مثل هذا بالإنكار ، فإنَّ الذي هو مَحْض المعنى : أنه ليتنبه السامع حتى يرجع إلى نفسه فيخجلَ ويرتدعَ ويَعْيَى بالجواب ، إما لأنه قد ادعى القدرة على فعل لا يقدر عليه ، فإذا ثبت على دعواه قيل له : (فافعل) فيفضحه ذلك ، وإما لأنه همَّ بأن يفعل ما لا يُسْتَصْوَب فعلُه ، فإذا روجع فيه تنبه وعَرَف الخطأ ، وإما لأنه جوَّز وجودَ أمر لا يوجد مثله ، فإذا ثبت على تجويزه قبَّح على نفسه ، وقيل له : (فأرناه في موضع وفي حال ، وأقم شاهداً على أنه كان في وقت))) [1]

إذن هذه هي نتيجة الاستفهام الإنكاري ، ففيه تخجيل وتوبيخ ، وردع وتكذيب ، وذلك ليتنبه السامع ويرجع إلى نفسه فيفكِّر ويقدِّر علَّه أن يؤوب إلى صوابه .

(١) دلائل الإعجاز ١١٩.١٢٠ .

ولا عجب في ذلك فإن لدلالة الإنكار أثراً بالغاً ووقعاً قوياً ، وطرقاً يتكافأ مع بعض النفوس الشاردة أو الغافلة أو الميتة والتي تحتاج إلى بعثٍ من جديد ، وذلك بطرق أبواب عقولها والولوج إلى أعماق قلوبها ، وكشف أكنانها وأغشيتها ، وقرع أسماعها ، وصخّها صخّاً ، وهو ما يتجرَّد له سيف الإنكار حينما يُسَنُّ حده بأداة الاستفهام ، وذلك ليأطرها على الحق أطراً ، ويردها إلى جادة الصواب .

هذا هو مفعول الاستفهام الإنكاري بدلالتيه ، فما بالك إن اجتمع معهما الخبر الإنكاري بأدواته ومؤكداته ، و كذلك الخبر حينما تخرج دلالاته إلى معنى التوبيخ ؟ كم ستكون قوة هذا المخلوط ؟ ذلك ما سنكشف عنه من خلال المواضع الآتية :

الموضع الأول :

في قوله تعالى : ﴿ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَلْبِسُونَ الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ وَتَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ ۞ وَقَالَت طَائِفَةٌ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ آمِنُوا بِالَّذِي أُنْزِلَ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَجْهَ النَّهَارِ وَاكْفُرُوا آخِرَهُ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ۞ وَلا تُؤْمِنُوا إلا لِمَنْ تَبِعَ دِينَكُمْ قُلْ إِنَّ الْهُدَى هُدَى اللَّهِ أَنْ يُؤْتَى أَحَدٌ مِثْلَ مَا أُوتِيتُمْ أَوْ يُحَاجُّوكُمْ عِنْدَ رَبِّكُمْ قُلْ إِنَّ الْفَضْلَ بِيَدِ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ ﴾ [آل عمران : ٧١ . ٧٣] .

فقد قرأ (١) جمهور القرّاء (أَنْ يُؤْتَى) بهمزة واحدة على لفظ الخبر ، وقرأ ابن كثير (أَأَنْ يُؤْتَى) ممدوداً بهمزتين على وجه الاستفهام .

فأما قراءة الخبر(٢) (أَنْ يُؤْتَى) ففي معناها وجوه :

الوجه الأول : أن يكون (أَنْ يُؤْتَى) متعلقاً بقوله : ﴿ وَلا تُؤْمِنُوا ﴾ على حذف حرف الجر، بتقدير : (لا تؤمنوا بأن يؤتى أحد مثل ما أوتيتم إلا لمن تبع دينكم) ، وعلى هذا يكون ﴿ إِلا لِمَنْ تَبِعَ دِينَكُمْ ﴾ مستثنى من شيء محذوف ، والتقدير : ولا تؤمنوا بأن يؤتى أحد مثل ما أوتيتم لأحد من

(١) ينظر: السبعة ٢٠٧ ، التذكرة ٢/٢٩٠، التيسير ٧٤، النشر ٢/١٨١.

(٢) ينظر: معاني الفراء ١/٢٢٢– ٢٢٣، معاني الأخفش ١/٢٠٧، تفسير الطبري ٣/٤٢٦–٤٢٨، معاني الزجاج ١/٤٣٠–٤٣١، معاني النحاس ١/٤٢١– ٤٢٣، الحجة للفارسي ٢/٢٦– ٢٧، المحرر الوجيز ١/٤٥٤– ٤٥٧، زاد المسير ١/٤٠٦– ٤٠٧، البحر ٢/٤٩٤– ٤٩٦، الدر المصون ٣/٢٥٢.٢٥٦ ، تفسير أبي السعود ١/٣٧٦، روح المعاني ٢/١٩٢– ١٩٤، تفسير المنار ٣/٣٣٥.٣٣٧ ، التحرير والتنوير ٣/٢٨١– ٢٨٣.

الناس إلا لأشياعكم دون غيرهم ، وتكون جملة : ﴿ وَلا تُؤْمِنُوا... ﴾ من تمام كلام الطائفة المتقدمة من أهل الكتاب وهم علماء اليهود الذين قالوا لعامتهم : آمنوا بالذي أنزل على الذين ... و يتواصل كلامهم إلى قوله (والله سميع عليم) . ويكون قوله ﴿ قُلْ إِنَّ الْهُدَى هُدَى اللَّهِ ﴾ جملة اعتراضية ، وفائدة الاعتراض في أثناء كلامهم المبادرة بما يفيد ضلالهم لأن الله حَرَمَهم التوفيق ، وهو كما لو حكى المسلم عن بعض الكفار قولاً فيه كفر . فيقول عند بلوغه إلى تلك الكلمة : آمنت بالله ، أو لا إله إلا الله ، أو تعالى الله ، ثم يعود إلى تلك الحكاية .

الوجه الثاني : أن اللام صلة في ﴿ لِمَنْ تَبِعَ ﴾ وهو مستثنى من (أحد) المتأخر ، والتقدير : ولا تصدّقوا أن يؤتى أحد مثل ما أوتيتم إلا من تبع دينكم .

وفي هذين الوجهين تعلق معنى (أن يؤتى) بالنفي الوارد في صدر الآية من علماء اليهود على تقدير (ولا تؤمنوا ، ولا تصدقوا) فاكتسب منه معنى الإنكار ، وذلك أنَّ « النفي الأول دل على إنكارهم في قولهم ولا تؤمنوا ... ولأنَّ المعنى في الإنكار يقوم بغير زيادة الألف (يعني همزة الاستفهام) ؛ لأنّ (لا) تغني عن الألف »[1] ، وعلى هذا يدل السياق في هذين الوجهين على أن الإنكار موجه من علماء اليهود إلى عامتهم أن يؤمنوا أو يصدقوا أن يؤتى أحد مثل ما أوتوا إلا من تبع دينهم .

الوجه الثالث : أن يكون (أنْ يؤتى) مجروراً بحرف العلة وهو اللام ، و المعلَّلُ محذوف تقديره : لِأنْ يؤتى أحد مثل ما أوتيتم قلتم ذلك و دبَّرتموه ، لا لشيء آخر ، و على هذا يكون كلام الطائفة قد تمَّ عند قوله : ﴿ إِلاَّ لِمَنْ تَبِعَ دِينَكُمْ ﴾ ، ثم يوجه الخطاب إلى الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ ليقول لهم ذلك منكراً عليهم يعني : « أنّ ما بكم من الحسد والبغي أنْ يؤتى أحد مثل ما أوتيتم من فضل العلم و الكتاب دعاكم إلى أنْ قلتم ما قلتم ، و الدليل عليه قراءة ابن كثير : (أأنْ يؤتى أحد) بزيادة همزة الاستفهام للتقرير و التوبيخ بمعنى : ألأن يؤتى أحد ... ؟ »[2]

---

(١) الكشف ٣٤٨/١ .

(٢) الكشاف ٤٣٧/١.

الوجه الرابع : أنْ ينتصبَ (أنْ يُؤتى) بفعل مقدَّر يدل عليه ﴿ وَلا تُؤْمِنُوا إلا لِمَنْ تَبِعَ دِينَكُمْ ﴾ كأنه قيل : قل إنَّ الهدى هدى الله فلا تنكروا أنْ يؤتى أحد مثل ما أوتيتم . و (لا تنكروا) ناصب لأنْ وما في حيّزها ؛ لأنّ قوله (و لا تؤمنوا إلا لمن تبع دينكم) إنكار لأن يؤتى أحد مثل ما أوتوا .

وفي هذين الوجهين على تقدير (لأَنْ يُؤتى ، لا تنكروا) يتعلق معنى (أنْ يؤتى) بمقول الرسول ــ صلى الله عليه وسلم ــ : قل إنَّ الهدى هدى الله ... ، فاكتسب منه معنى الإنكار ، وذلك لإنكاره ــ صلى الله عليه وسلم ــ على علماء اليهود ما قالوه فيما قالوا لعامتهم « على طريقة اللف والنشر (١) المعكوس ، فقوله (أنْ يؤتى أحد مثل ما أوتيتم) إبطال لقولهم (و لا تؤمنوا إلا لمن تبع دينكم) أي قلتم ذلك حسداً من أنْ يؤتى أحد مثل ما أوتيتم ، وقوله (أوْ يحاجوكم) ردٌّ لقولهم (آمنوا بالذي أُنزل على الذين آمنوا وجه النهار واكفروا آخره) على طريقة التهكم » (٢) .

الوجه الخامس : أنْ يكون (هدى الله) بدلاً من (الهدى) الذي هو اسم إنّ ، و يكون خبر إنّ : (أنْ يؤتى أحد) ، و التقدير : قل إنَّ هدى الله أنْ يؤتى أحد ، أي : إنّ هدى الله إيتاء أحد مثل ما أوتيتم ، و تكون " أو " بمعنى " حتى " ، و المعنى : حتى يحاجوكم عند ربكم فيغلبوكم ويدحضوا حجتكم عند الله ، و لا يكون (أوْ يحاجوكم) معطوفاً على (أنْ يؤتى) و داخلاً في حيِّز أنْ .

الوجه السادس : أنْ يكون (أنْ يؤتى) بدلاً من (هدى الله) ، ويكون المعنى : قل إنّ الهدى هدى الله وهو أنْ يؤتى أحد كالذي جاءنا نحن .

وفي هذين الوجهين يتعلق معنى (أنْ يؤتى) بـ (هدى الله) الذي هو من مقول الرسول ــ صلى الله عليه وسلم ــ فاكتسب منه الإنكار لأنّ مقول الرسول ــ صلى الله عليه وسلم ــ تضمن معنى الإنكار على علماء اليهود لما قالوه كما في الوجهين السابقين .

ومن هنا فإن كل تقديرات (أنْ يؤتى) كما في الوجوه السابقة تشي بمعنى الإنكار بصور مختلفة ، يتجلى ذلك في الوجوه التي جعلت الإنكار موجهاً من علماء اليهود إلى عامتهم ، أو في الوجوه التي جعلته موجهاً من الرسول الكريم ــ صلى الله عليه وسلم ــ إلى علماء اليهود لإنكارهم على عامتهم .

(١) اللف والنشر: وهو أن نذكر عدة أشياء ثم نذكر لكل واحد ما يناسبه وما يتصل به اعتماداً على فهم المخاطب ، ينظر: أنوار الربيع في أنواع البديع ٣٤١/١.
(٢) التحرير والتنوير ٢٨٢/٣ .

و أما قراءة الاستفهام : (أأن يؤتى) [1] فبهمزتين مفتوحتين أولاهما همزة استفهام والثانية جزء من حرف (أَنْ) وتسهَّل الهمزة الثانية في قراءتها . وخرّجت هذه القراءة على أوجه :

أحدها: أن يكون (أن يؤتى) على حذف حرف الجر وهو لام العلة ، و المعلل محذوف تقديره : ألِأَنْ يؤتى أحد مثل ما أوتيتم قلتم ذلك ودبرتموه ؟ و ((هو استفهام معناه الإنكار)) [1] ، والإنكار موجه من الرسول ــ صلى الله عليه وسلم ــ إلى علماء اليهود على سبيل التوبيخ على ما كان منهم .

الثاني : أنّ (أن يؤتى) في محل رفع بالابتداء ، والخبر محذوف تقديره : أأن يؤتى أحد يا معشر اليهود مثل ما أوتيتم من الكتاب و العلم تصدّقون به ، أو تعرّفون به ، أو تذكرونه لغيركم ، أو تشيعونه في الناس .

الثالث : أنْ يكون (أنْ يؤتى) منصوباً بفعل مقدر ، تقديره : أتذكرون أو أتشيعون أن يؤتى أحد مثل ما أوتيتم ، ويكون بمعنى : أتحدثونهم بما فتح الله عليكم .

والاستفهام في هذين الوجهين إنكاري أفاد توبيخ الأحبار للأتباع على تصديقهم .

والجامع بين هذه الوجوه الثلاثة أن صيغة الاستفهام خرجت إلى معنى الإنكار ، كما أشار إلى ذلك أبو زرعة حيث قال : ((قرأ ابن كثير : آن يؤتى أحد بمد الألف على الاستفهام على وجه الإنكار)) [2] وأيده ابن أبي مريم حينما قال : ((وذلك أن المراد أأن بهمزة الاستفهام التي معناها الإنكار)) [3] ، إنْ كان من الأحبار للأتباع ، أو من الرسول لأولئك الأحبار ثم إن هذا الإنكار توبيخي كما قال أبو حيان : ((قراءة ابن كثير (أنْ يؤتى) على الاستفهام الذي معناه الإنكار عليهم والتقرير والتوبيخ)) [4] .

(٣) ينظر: الحجة لابن خالويه ٥٣ ، الكشف ٣٤٧/١–٣٤٨، الحجة للفارسي ٢٧/٢–٢٨، المحرر الوجيز ٤٥٥/١، البحر ٤٩٦/٢، الدر المصون ٢٥٧/٣–٢٥٩، أساليب الاستفهام في القرآن ٣١٦ .

(١) معاني الأزهري ١٠٤ .
(٢) حجة القراءات ١٦٥، ١٦٦ .
(٣) الموضح ٣٧٦/١ .
(٤) البحر ٤٩٤/٢ .

ومن هنا أفادت المزاوجة بين القراءتين أن قراءة الاستفهام تؤكد قراءة الخبر وتشد على يدها في دلالتها على معنى الإنكار ، كما بيّن ذلك مكي بن أبي طالب بأنَّه مَنْ ((أدخل ألف الاستفهام على (أنْ) ؛ ليؤكد الإنكار الذي قالوه بأنْ لا يؤتى أحد مثل ما أوتوا)) (٥) ، على أن الاستفهام الإنكاري أكد الإنكار الخبري بكل وجوه الأسلوبين ، إنْ كان الإنكار من علماء اليهود إلى عامتهم ، أو من الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ إلى أولئك العلماء على إنكارهم على عامتهم ، وكأن الإنكار أحاط بهذه الآية من كل جانب ، بياناً للحق ودحضاً للباطل ، وذلك أن إنكار الرسول على علماء اليهود لإنكارهم على عامتهم ، إنما هو إنكارٌ لإنكار ، ﴿ بل نقذف بالحق على الباطل فيدمغه فإذا هو زاهق ﴾ [الأنبياء : ١٨] ، ولكأننا نقرأ من الآية أن إنكار الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ يدمغ إنكار علماء اليهود على عامتهم فيزهقه ، فينكشف الغطاء ويزول الخداع الذي أشار إليه الزجاج بقوله : ((المعنى : لا تجعلوا تصديقكم النبي في شيء مما جاءكم به إلا لليهود ، فإنكم إنْ قلتم ذلك للمشركين كان عوناً لهم على تصديقه)) (١) وعندها يظهر الحق ويزهق الباطل وينكشف ذلك التلبيس عن عامة اليهود ، وهي صورة من صور تلبيس أهل الكتاب الخطير التي أنكرها السياق أيَّما إنكار ووبَّخها أيَّما توبيخ في الآية الموطِّئَةِ لهذا الحديث في قوله : ﴿ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَلْبِسُونَ الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ وَتَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ ، وفي ذلك ما فيه من بيان للحق ودعوة للأحبار ألاّ يكتموا الحق ويلبِّسوه ، ودعوة للأتباع أن يعرفوا الحق ويتبعوه ، ودعوة للمشركين أن يؤمنوا بالحق ويصدقوه ، فإن الهدى هدى الله ، وإنَّ الفضل بيد الله يؤتيه من يشاء والله واسع عليم .

وكما أنَّ الآية حملت الدعوة إلى اليهود و المشركين فإنها تكشف لنا عن وجه آخر، وهو أنها تحمل تثبيتاً للمؤمنين ، وذلك عند من حمل الآية على أنها كلها خطاب للمؤمنين من الله ـ تعالى ـ ((على جهة التثبيت لقلوبهم و التشحيذ لبصائرهم ؛ لئلا يشكّوا عند تلبيس اليهود و تزويرهم

(٥) الكشف ٣٤٧/١ .

(١) معاني الزجاج ٤٣٠/١ .

في دينهم ، و المعنى : لا تُصدِّقوا يا معشر المؤمنين إلا من تبع دينكم ، ولا تُصدِّقوا أنْ يؤتى أحد مثل ما أوتيتم من الفضل والدين ، ولا تصدِّقوا أنْ يحاجكم في دينكم عند ربكم من خالفكم » [٢] .

كل تلك المعاني شيء مما أتاحه لنا أسلوب المزاوجة بين القراءتين في هذه الآية من آيات الذكر الحكيم .

الموضع الثاني :

في قوله تعالى : ﴿ وَلُوطاً إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ أَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ مَا سَبَقَكُمْ بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِنَ الْعَالَمِينَ ۞ إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ شَهْوَةً مِنْ دُونِ النِّسَاءِ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ مُسْرِفُونَ ﴾ [الأعراف : ٨٠ – ٨١] حيث قرأ [١] نافع وأبو جعفر وحفص : (إنّكم لتأتون) بهمزة واحدة على الخبر ، و قرأ الباقون : (أَإِنّكم لتأتون) بهمزتين على الاستفهام ، و همْ على أصولهم في التسهيل و التحقيق والفصل .

فأما قراءة الخبر (إنّكم لتأتون) بهمزة إنّ المكسورة ، فعلى أنه خبر مستأنف ، و هو بيان وتفسير[٢] للفاحشة المذكورة في قوله ﴿ أَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ ﴾ ، بمعنى أنَّ الفاحشة المستنكرة في قوله : ﴿ أَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ ﴾ فُسِّرت بقوله : ﴿ إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ ﴾ ، « و الإتيان كناية عن عمل الفاحشة » [٣] ، و بهذا زاد تفسير الفاحشة بقوله ﴿ إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ ﴾ توبيخاً لفعلها وذلك أن « في زيادة إنّ واللام مزيد توبيخ وتقريع » [٤] و « لهذا يجوز اعتباره خبراً مستعملاً في التوبيخ » [٥]

وأما قراءة الاستفهام (أَإِنَّكم لتَأتون) بهمزتين [٦] ، فـ « على أنَّه تأكيد للإنكار السابق و تشديد للتوبيخ » [٧] وذلك « أنَّه لَمَّا رأى ﴿ أتأتون الفاحشة ﴾ و ما بعده كلاماً تاماً ، ابتدأ الجملة الثانية بالاستفهام ، لتأكيد التوبيخ لهم والتقرير » [٨] وعلى هذا فيكون الاستفهام الثاني تأكيداً وتكريراً و

(٢) تفسير القرطبي ١١٣/٤ ، وينظر : البحر ٢٩٤/٢ ، الدر المصون ٢٥٦/٣ ، روح المعاني ١٩٤/٢ ، فتح القدير ٤٤٤/١ .

(١) ينظر: السبعة ٢٨٥ ، التذكرة ١١٢/١ ، التيسير ٩١ ، النشر ٢٨٩/١.

(٢) ينظر : الكشف ٤٦٨/١، الكشاف ٩٢/٢، المحرر الوجيز ٤٢٥/٢،الموضح ٥٣٧/٢، الدر المصون ٣٧٢/٥.

(٣) التحرير والتنوير ٢٣١/٨.

(٤) تفسير أبي السعود ٢٦٩/٢.

(٥) التحرير والتنوير ٢٣١/٨

(٦) ينظر : إعراب النحاس ٦٢/٢، معاني الأزهري ١٨٢–١٨٤، حجة أبي زرعة ٢٨٧–٢٨٨.

(٧) تفسير أبي السعود ٢٦٩/٢، و ينظر: الحجة لابن خالويه ٨٦، زاد المسير ٢٢٧/٣، فتح القدير ٢٨٣/٢.

(٨) الكشف ٤٦٨/١.

مبالغة في التقريع والتوبيخ الذي يقتضيه الاستفهام الأول ، لأنّ ((ذلك أمر لا يتحقق صدوره عن أحد ، فيؤكد تأكيداً قوياً)) [١] لشناعته وخطورته ، ولذلك أكد الإنكار بإنّ واللام .

كما يمكن أنْ يكون الاستفهام الثاني بياناً [٢] للاستفهام الأول وذلك ؛ ((لأنّ الأول استفهامٌ عن أمر مجمل ، و الثاني عن مفسّر)) [٣] ، و كلاهما للإنكار والتقريع .

وبهذا تكون قراءة الخبر فَسَّرت الفاحشة بإتيان الرجال ، وتَضَمَّن هذا التفسير مزيد توبيخ لها ، وقراءة الاستفهام زادت هذا الإتيان تشنيعاً و توبيخاً على سبيل التأكيد .

الموضع الثالث :

في قوله تعالى : ﴿ أَفَأَمِنَ أَهْلُ الْقُرَى أَنْ يَأْتِيَهُمْ بَأْسُنَا بَيَاتاً وَهُمْ نَائِمُونَ ۞ أَوَ أَمِنَ أَهْلُ الْقُرَى أَنْ يَأْتِيَهُمْ بَأْسُنَا ضُحَىً وَهُمْ يَلْعَبُونَ ۞ أفأمنوا مكر الله فلا يأمن مكر الله إلا القوم الفاسقون ﴾ [الأعراف : ٩٧ . ٩٩] .

فقد قرأ [١] المدنيان وابن كثير وابن عامر بإسكان الواو من (أَوْ أَمِنَ) ، وورش يلقي حركة الهمزة من (أَمِنَ) على الواو من (أوْ) على أصله فتصبح (أَوَ امِنَ) ، وقرأ الباقون (أَوَ أَمِنَ) بفتح الواو .

فأما قراءة (أَوْ أَمِنَ) بإسكان [٢] الواو ، فعلى العطف بـ (أَوْ) ، على معنى الإباحة [٣] ، مِثْل قوله تعالى : ﴿ وَلا تُطِعْ مِنْهُمْ آثِماً أَوْ كَفُوراً ﴾ [الإنسان : ٢٤] ، ومِثْل قولك : جالس الحسن أو ابن سيرين ، فالمعنى : أفأمنوا هذه الضروب من العقوبات ، أي : إنْ أمنتم ضرباً منها لم تأمنوا الضرب الآخر . ويجوز أن تكون (أَوْ) لأحد الشيئين [٤] ، بتقدير : أفأمنوا إحدى هذه العقوبات ، بمعنى :

---

(٩) تفسير أبي السعود ٢٦٩/٢ .

(١٠) ينظر : الكشاف ٩٢/٢.

(١١) المحرر الوجيز ٤٢٥/٢.

(١) ينظر : السبعة ٢٨٧.٢٨٦ ، التذكرة ٣٤٣/٢ ، التيسير ٩٢.٩١ ، النشر ٢٠٣/٢ .

(٢) ينظر : إعراب النحاس ٦٣/٢، الحجة للفارسي ٢٥٤.٢٥٣/٢ ، حجة أبي زرعة ٢٨٩ ، الكشف ٤٦٩.٤٦٨/١ ، المحرر الوجيز ٤٣٣/٢ ، تفسير القرطبي ٢٢٦/٧ ، تفسير المنار ٢٧.٢٦/٩ .

(٣) ينظر : شرح ابن عقيل ٢٣٢/٣ ، شرح قطر الندى وبل الصدى ٥٠٧ .

(٤) ينظر : مغني اللبيب ٩٥ .

أفأمنوا أن يأتيهم العذاب بياتاً وهم نائمون ، أوْ أمنوا أن يأتيهم العذاب ضحىً وهم يلعبون ؟ وتحديد هذين الوقتين بالعذاب ، لِما فيه من المفاجأة والمباغتة ، فالبيات هو وقت الغفلة والنوم ، فمجيء العذاب في ذلك الوقت _ وهو وقت الراحة والاجتماع _ في غاية الصعوبة ، إذْ أتى في وقت المأمن ، وكذلك الضحى فهو وقت الغفلة والإعراض والاشتغال بما لا يجدي كأنهم يلعبون ، وجاء التعبير باسم الفاعل (نائمون) عن حالة البيات ؛ لأنها حالة ثبوت واستقرار ، والتعبير بالفعل المضارع (يلعبون) عن حالتهم وقت الضحى ؛ لأنهم مشتغلون بأفعال متجددة شيئاً فشيئاً في ذلك الوقت . و (أوْ) عطفت الفعل (أَمِنَ) الثاني على (أَمِنَ) الأول المسبوق بالهمزة الإنكارية وذلك أنَّ ((الهمزة دخلت على (أَمِنَ) للاستفهام على جهة التوقيف والتوبيخ والإنكار والوعيد للكافرين المعاصرين للرسول _ صلى الله عليه وسلم – أَنْ يَنْزِلَ بهم مثلُ ما نَزَل بأولئك))[1] ، وبهذا فإن (أَمِنَ) الثاني المعطوف استفاد[2] الإنكار من (أَمِنَ) الأول وهو المعطوف عليه ، فأصبح على نسقه في الاستفهام الإنكاري .

وأما قراءة (أَوَ أَمِنَ) بفتح[3] الواو وهمز (أَمِنَ) ، فعلى العطف بـ (الواو) ، ودخلت عليها همزة الاستفهام وتقدمت عليها لفظاً ، وإنْ كانت بعدها تقديراً ، كقوله تعالى : ﴿ أَوَ كُلَّمَا عَاهَدُوا عَهْداً ....﴾ [البقرة : ١٠٠] ، فهو عطف استفهام ثانٍ بالواو المفيدة للجمع ، بتقدير : أفأمنوا مجموع العقوبتين ؟ وكلا الاستفهامين إنكاري ، وسُلِّطَ الإنكار على حال أَمْنِ أولئك الكافرين ، فهو ((إنكار بعد إنكار ، للمبالغة في التوبيخ والتشديد ، ولذلك لم يقل أفأمن أهل القرى أنْ يأتيهم بأسنا بياتاً وهم نائمون ، أو ضحىً وهم يلعبون))[4] ، وإنما ((تكرَّر لفظ أهل القرى لما في ذلك من التسميع والإبلاغ والتهديد والوعيد بالسامع ما لا يكون في الضمير لو جاء أوَ أمنوا ، فإنه متى قُصِد

(١) البحر ٣٤٨/٤-٣٤٩ .

(٢) ينظر : أساليب الاستفهام في القرآن ٣٢١-٣٢٢ .

(٣) ينظر : معاني الأخفش ٣٠٧/٢ ، معاني الأزهري ١٨٤ ، الحجة لابن خالويه ٨٦ ، الكشاف ٩٨/٢ ، الدر المصون ٣٩٢/٥-٣٩٣ ، روح المعاني ١٣/٥ ، التحرير والتنوير ٢٣/٩ ، القراءات وأثرها في التفسير والأحكام ٩١٦/٢ .

(٤) تفسير أبي السعود ٢٧٨/٢ .

التفخيم والتعظيم والتهويل جيء بالاسم الظاهر »[1] ، وكذلك تكررت الهمزة الاستفهامية و في تكرارها مزيد تأكيد للإنكار . فهذا التكرار من قبيل وضع المظهر موضع المضمر لفائدة التأكيد .

وحاصل المزاوجة بين القراءتين أنَّ قراءة الاستفهام أكَّدت الإنكار الذي استفادته قراءة الخبر من الاستفهام الذي عُطِفت عليه . فَشُمِلت الآية بالإنكار ، فهو إنكار بعد إنكار ، وتوبيخ بعد توبيخ لحال أولئك الكافرين المكذبين المترفين الآمنين لمكر الله ، فشدة الإنكار عليهم تتناسب مع شدة الغفلة الضاربة بأطنابها على أوتار قلوبهم علَّهم أنْ يفيقوا ويؤمنوا ويتقوا .

الموضع الرابع :

في قوله تعالى: ﴿ فَلَمَّا أَلْقَوْا قَالَ مُوسَى مَا جِئْتُمْ بِهِ السِّحْرُ إِنَّ اللَّهَ سَيُبْطِلُهُ إِنَّ اللَّهَ لا يُصْلِحُ عَمَلَ الْمُفْسِدِينَ ﴾ [يونس: ٨١]

فقد قرأ [2] أبو عمرو وأبو جعفر (آلسحرُ) بالمد على الاستفهام ، و قرأ الباقون (السحرُ) بدون مد على الخبر .

فأما قراءة أبي عمرو وأبي جعفر (آلسحرُ) على الاستفهام [3] ، فعلى اعتبار أنَّ (ما) في قوله : (ما جئتم به) استفهامية ، و فيها وجهان [4] :

الأول : أنها في موضع نصب بفعل محذوف يفسِّره ما بعدها على تقدير : أيَّ شيء جئتم به ؟ وعلى هذا الوجه يكون (آلسحرُ) إما خبراً لمبتدأ محذوف تقديره : أيّ شيء جئتم به أهو السحرُ ؟ أو مبتدأ لخبر محذوف تقديره : آلسحرُ هو ؟ و « هو استفهام على جهة التوبيخ ؛ لأنهم قد علموا أنه سحر ، فقد دخل استفهام على استفهام ، فلهذا يقف على قوله : ﴿ مَا جِئْتُمْ بِهِ ﴾ ثم يبتدىء (آلسحرُ) بالرفع ، و خبره محذوف و المعنى : (السحرُ هو) »[5]

---

(٥) البحر ٣٤٩/٤ .

(١) ينظر : السبعة ٣٢٨ ، التذكرة ٣٦٦/٢ ، التيسير ١٠٠ ، النشر ٢٩٤.٢٩٣/١ .

(٢) ينظر : معاني الفراء ٤٧٥/١ ، معاني الأخفش ٣٤٧/٢ ، معاني الزجاج ٣٠/٣ ، معاني النحاس ٣٠٨/٣ ، الحجة لابن خالويه ١٠٣ ، الكشاف ٢٤٨.٢٤٧/٢ ، تفسير القرطبي ٣٢٧/٧ ، أساليب الاستفهام في القرآن ٣١٧ .

(٣) ينظر : إعراب النحاس ١٥٤/٢ ، الحجة للفارسي ٣٧١/٢ ، الموضح ٦٣٤/٢ ، إملاء ما من به الرحمن ٣٢٨/١ ، البحر ١٨٣/٥ .

(٤) حجة أبي زرعة ٣٣٥ .

الثاني : أنها في موضع رفع بالابتداء و ﴿ جِئْتُمْ بِهِ ﴾ خبرها ، وعلى هذا الوجه يكون(آلسحرُ) على ما تقدّم من التقديرين ، أو أنه بدل من (ما) المبتدأة كما تقول : ما عندك ؟ أدينارٌ أمْ درهم ؟ و الاستفهام في هذه القراءة ((مستعمل في التحقير ، و المعنى : أنه أمر هيّن يستطيعه كثير من الناس)) (١) .

وأما قراءة الجمهور (السحرُ) على لفظ الخبر (٢) ، ففيها (ما) اسم موصول بمعنى (الذي) في محل رفع بالابتداء ، و (جئتم) صلته ، و (به) عائده ، و (السحرُ) خبره ، على تقدير : الذي جئتم به السحر ُ . و يقوِّي هذه القراءة ما روي أنَّ في حرف عبدالله بن مسعود (ما جئتم به سحر) و في حرف أبي (ما أتيتم به سحر) . و المعنى على قراءة الجمهور (ما جئتم به السحرُ) : ((أيْ هو السحر ، لا ما سمَّاه فرعون و قومه من آيات الله سبحانه ، أو هو جنس من السحر ، يريهم أنَّ حاله بيِّنٌ لا يُعبأ به ، كأنه قال : ما جئتم به مما لا ينبغي أن يُجاء به)) (٣)

و من هنا نتبين أن قراءة الاستفهام عملت على إظهار معنى التحقير والتقليل لما جاء به السحرة ، و أن موسى لا يعبأ به و لا يخشاه ، و أنه على ثقة من أنه باطل واهٍ ، و أن ما جاء به هو الحق المبين . و أنَ قراءة الخبر بينت أن ما جاء به السحرة هو السحر الحقيقي لا ما ادعوه بقولهم عن الحق (إن هذا لسحر مبين) ، و في ذلك ما فيه من توبيخ لهم على مغالطتهم ، و محصلة القراءتين أن فيهما توبيخاً للسحرة وتحقيراً لما جاؤوا به .

---

(٥) التحرير والتنوير ٢٥٦/١١ .

(١) ينظر: تفسير الطبري ١٩٢/١١، الكشف ٥٢١/١، المحرر الوجيز ١٣٥/٣، زاد المسير ٥١/٤، الدر المصون ٢٥٠/٦– ٢٥١، فتح القدير ٥٩٣/٢.

(٢) تفسير أبي السعود ٥٢٢/٢.

الموضع الخامس :

في قوله تعالى:﴿ وَقَالُوا مَا لَنَا لا نَرَى رِجَالاً كُنَّا نَعُدُّهُمْ مِنَ الْأَشْرَارِ ۞ أَتَّخَذْنَاهُمْ سِخْرِيّاً أَمْ زَاغَتْ عَنْهُمُ الأبْصَارُ۞ إِنَّ ذَلِكَ لَحَقٌّ تَخَاصُمُ أَهْلِ النَّارِ ﴾ [ص : ٦٢ – ٦٤].

فقد قرأ(١) أبو عمرو و حمزة و الكسائي و يعقوب و خلف بوصل همزة (اتخذناهم) على الخبر ، و قرأ الباقون بقطع الهمزة على لفظ الاستفهام.

فأما قراءة الاستفهام(٢) (أتخذناهم) فبهمزة مفتوحة و هي همزة الاستفهام ، سقطت لأجلها همزة الوصل من الفعل (اتخذنا) ، وهنا يكون الوقف على قوله ﴿ مِنَ الأَشْرَارِ ﴾ ، ثم يُبتدَأُ بالاستفهام وصلاً بقوله : ﴿ أَمْ زَاغَتْ عَنْهُمُ الْأَبْصَارُ ﴾ ؛ لأنَّ (أمْ) هنا متصلة للتسوية ، ((والمعنى أيّ الفعلين فعلنا بهم الاستسخار منهم أم ازدراؤهم و تحقيرهم و أن أبصارنا كانت تعلو عنهم وتقتحمهم ؟ ويكون استفهاماً على معنى الإنكار على أنفسهم للاستسخار و الزيغ جميعاً ، وقال الحسن : كل ذلك قد فعلوا اتخذوهم سخرياً و زاغت عنهم أبصارهم محقِّرة لهم))(٣)، وذلك أنهم كما ((قال المفسرون : إذا دخلوا النار ، نظروا فلم يجدوا مَنْ كان يخالفهم مِن المؤمنين ، فيقولون ذلك . قال مجاهد : يقول أبو جهل في النار : أين صهيب ، أين عمار ، أين خباب ، أين بلال ؟))(٤) ، و الاستفهام في قولهم (اتخذناهم) يخرج إلى معنى ((التقرير و التوبيخ ، وليس على جهة الاستخبار على أمر لم يُعلم ، بل علموا أنهم فعلوا ذلك في الدنيا ، فمعناه أنهم يوبِّخ بعضهم بعضاً على ما فعلوه في الدنيا من استهزائهم بالمؤمنين))(٥) ، فهم يقررون أنفسهم ويؤكدون التوبيخ الأول في قولهم (ما لنا...) بالتوبيخ الثاني في قولهم (أتخذناهم) إنكاراً لها على ما وقع منها .

و أما قراءة الخبر (اتخذناهم) فبهمزة وصل تكسر عند الابتداء بها . وهذه القراءة تحتمل وجهين :

---

(٣) ينظر : السبعة ٥٥٦ ،التذكرة ٥٢٦/٢ ، النشر ٢٧١/٢ .

(٤) ينظر : حجة أبي زرعة ٦١٧ ، الموضح ١١٠٦/٣ ، الدر المصون ٣٩٣/٩ .

(١) البحر ٤٠٧/٧ ، وينظر : تفسير أبي السعود ٤٤٨/٤ .

(٢) زاد المسير ١٥٣،١٥٢/٧ .

(٣) الكشف ٢٣٤/٢ ، وينظر : الكشاف ٣/ ٣٨٠ ، المحرر الوجيز ٥١٢/٤ ، إبراز المعاني ١٣٦/٤ ، تفسير النسفي ٤٤٢/٢ ، روح المعاني ٢٠٨/١٢ .

الأول : أن يكون استفهاماً حذفت أداته لدلالة[١] (أمْ) عليه ، كقول امرئ القيس[٢] :

تَرُوحُ مِنَ الحيِّ أمْ تبْتكرْ وَماذا عَلَيْكَ بأنْ تَنْتظِرْ

أراد أتروح؟ فحذف الألف .

والاستفهام في (اتخذناهم) يخرج إلى معنى التوبيخ والتعجب كما قال الفراء: ((وهو مِن الاستفهام الذي معناه التعجب والتوبيخ، فهو يجوز بالاستفهام وبطرحه))[٣]، وعندما طرح الاستفهام هنا دلت عليه قرينة التوبيخ ، مع وجود (أمْ) ، وبهذا فالاستفهام بالألف وبطرحها سيّان .

الثاني : أنْ يكون خبراً محضاً ، و تكون الجملة في محل نصب صفة ثانية[٤] لِـ (رجالاً) ، مثل: ﴿ كُنَّا نَعُدُّهُمْ مِنَ الْأَشْرَارِ ﴾ ، و هنا لا يكون الوقف على (من الأشرار) ، إنما على (سخرياً) ، ثم تأتي (أمْ) و هي في هذا السياق ((منقطعة بمعنى بل و الهمزة ، أيْ : بلْ أزاغت عنهم الأبصار، على معنى توبيخ أنفسهم على الاستسخار ، ثم الإضراب و الانتقال منه إلى التوبيخ على الازدراء و التحقير))[٥] ، فهو توبيخ بعد توبيخ ، وذلك بأنهم قطعوا بسخريتهم من المؤمنين في الدنيا ، فأثبتوا هذا الفعل على أنفسهم من خلال جملة الصيغة الخبرية الواقعة في سياق التوبيخ المستفاد من الاستفهام الأول في قولهم (ما لنا...) ، ثم أضربوا إلى التوبيخ الآخر على ازدرائهم .

و من هنا فإن المزاوجة بين هاتين القراءتين جمعت لنا بين الإخبار المتضمن للتوبيخ ، والاستفهام التوبيخي في آية واحدة ، فهو توبيخ على توبيخ وهو معنىً يتلاءم مع مشهد الكفار و هم في النار يتلاومون و يتخاصمون و يوبخون أنفسهم ، فتارة تشتد وتيرة التوبيخ و تارة تخف ، فيزاوجون في مشهد التحسر و التلاوم بين التوبيخ الضمني لأنفسهم من خلال الأسلوب الخبري و بين التوبيخ الصريح من خلال أسلوب الاستفهام الإنكاري التوبيخي تقريعاً لأنفسهم على ما وقع منهم ، و ذلك

---

(٤) ينظر : إعراب النحاس ٣١٦/٣ ، الحجة لابن خالويه ١٩٩ ، الدر المصون ٣٩٣/٩ ، تفسير أبي السعود ٤٤٨/٤ ، أساليب الاستفهام في القرآن ٣١٠،٣٠٩

(٥) البيت من المتقارب ، وهو في ديوانه ص ١٠٩ .

(٦) معاني الفراء ٤١١/٢ ، وينظر : معاني النحاس ١٢٣/٦ ، تفسير القرطبي ١٩٧/١٥ .

(١) ينظر : إعراب النحاس ٣١٦/٣ ، معاني الأزهري ٤١٨ ، الكشاف ٣٨٠/٣ ، البحر ٤٠٧/٧ .

(٢) فتح القدير ٥٥٢/٤ .

عندما يعدِّدون مهلكاتهم و ذنوبهم و أنَّهم فعلوا هذه .. و هذه ، و أنه ما كان ينبغي لهم أن يفعلوه ، ولات حين مندم . أعاذنا الله من حالهم ومآلهم .

الموضع السادس :

في قوله تعالى : ﴿ وَيَوْمَ يُعْرَضُ الَّذِينَ كَفَرُوا عَلَى النَّارِ أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَاتِكُمْ فِي حَيَاتِكُمُ الدُّنْيَا وَاسْتَمْتَعْتُمْ بِهَا فَالْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ الْهُونِ بِمَا كُنْتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ فِي الأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَبِمَا كُنْتُمْ تَفْسُقُونَ﴾ [الأحقاف : ٢٠]

فقد قرأ [١] ابن كثير : (آذْهبتم) بهمزة واحدة مطولة ، و قرأ ابن عامر : (أَأَذْهبتم) بهمزتين على الاستفهام ، و قرأ الباقون : (أَذْهبتم) بهمزة واحدة على لفظ الخبر.

فأما القراءة بألف الاستفهام [٢] فيقوِّيها مجيء الاستفهام في قوله تعالى : ﴿ وَيَوْمَ يُعْرَضُ الَّذِينَ كَفَرُوا عَلَى النَّارِ أَلَيْسَ هَذَا بِالْحَقِّ قَالُوا بَلَى وَرَبِّنَا﴾[الأحقاف:٣٤] ، وقوله تعالى﴿ فَأَمَّا الَّذِينَ اسْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ أَكَفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ﴾[آل عمران: ١٠٦] ، و في جميع هذه المواضع أُضمر القول على تقدير: يقال لهم أذهبتم ....، و الاستفهام هنا ليس استفهاماً محضاً ، إنما ((هو على معنى التوبيخ و التقرير ، فهو خبر في المعنى ، فلذلك حسنت الفاء، ولو كان استفهاماً محضاً لم تدخل الفاء)) [٣] يعني في قوله : ﴿فَالْيَوْمَ تُجْزَوْنَ﴾[الاحقاف:٢٠] ، و على هذا يكون المعنى : ((أَأَذْهبتم طيباتكم وتلتمسون الفرج؟ هذا غير كائن)) [٤] .

و أما قراءة الجمهور (أَذْهبتم) جاءت على لفظ الخبر [٥] ، فحسن دخول الفاء بعد ذلك. وهي تدل على التوبيخ والتقرير مثل قراءة الاستفهام ، والجديد الذي تقرره هذه القراءة أن التوبيخ يكون

---

(١) ينظر : السبعة ٥٩٨ ، التذكرة ٥٥٥/٢ ، التيسير ١٦٢ ، النشر ٢٨٥/١ .

(٢) ينظر : معاني الأزهري ٤٤٨، الكشف٢٧٣/٢، الحجة لابن خالويه ٢١٣، الدر المصون ٦٧٣/٩، تفسير أبي السعود٥٧٧/٥ ، أساليب الاستفهام في القرآن ٣١٧ .

(٣) البحر ٦٣/٨ ، وينظر: الحجة للفارسي ٤٠١/٣، المحرر الوجيز ١٠٠/٥.

(٤) حجة أبي زرعة ٦٦٥ .

(٥) ينظر : الحجة لابن خالويه ٢١٣، إعراب النحاس ١١٠/٤، حجة أبي زرعة ٦٦٥، الكشف ٢٧٤/٢ .

بالاستفهام وبطرحه ، كما قال الفراء :((العرب تستفهم بالتوبيخ ولا تستفهم ، فيقولون : ذَهَبْتَ فَفَعلتَ وَفَعَلتَ ، و يقولون : أَذَهَبْتَ فَفَعَلتَ وَ فَعَلتَ، و كلٌّ صواب)) (١) ، وقال أبو جعفر النحاس : ((العرب تقرِّر وتوبِّخ بالاستفهام وغير الاستفهام)) (٢) .

و على هذا فالخبر هنا يحمل معنى التوبيخ ((فكأنهم يُوبَّخون بهذا الذي يُخبَّرون به و يُبكَّتون)) (٣) .

ومن هنا فالقراءتان تظهران معنى التوبيخ بصورتين مختلفتين ، على أن قراءة الاستفهام تعاضد قراءة الخبر وتؤكدها فيما ذهبت إليه ، مما يدل على تواتر هذا المعنى وقوته بأساليب كثيرة ، فيكون بالاستفهام وبطرحه ، وأن أحدى القراءتين لم تكن تكراراً للأخرى بدون مزيد فائدة ، وإنما جاءت بفائدة جديدة ، وهي أن التوبيخ يتحقق بأسلوب آخر غير الأسلوب الذي جاءت به القراءة الأولى ، على سبيل التوكيد والتأييد .

الموضع السابع :

في قوله تعالى:﴿ وَلا تُطِعْ كُلَّ حَلافٍ مَهِينٍ۞ هَمَّازٍ مَشَّاءٍ بِنَمِيمٍ ۞مَنَّاعٍ لِلْخَيْرِ مُعْتَدٍ أَثِيمٍ ۞ عُتُلٍّ بَعْدَ ذَلِكَ زَنِيمٍ ۞أَنْ كَانَ ذَا مَالٍ وَبَنِينَ ۞ إِذَا تُتْلَى عَلَيْهِ آيَاتُنَا قَالَ أَسَاطِيرُ الأَوَّلِينَ ﴾ [القلم : ١٠ – ١٥] .

فقد قرأ (١) أبو بكر وحمزة (أَأَنْ كانَ) بهمزتين محققتين ، وابن عامر بهمزة ومَدَّة على الاستفهام ، وقرأ الباقون بهمزة واحدة مفتوحة على الخبر .

فأما قراءة (٢) (أَأَنْ كانَ) بهمزة ومدة أو بهمزتين محققتين ((فهو استفهام ، والمراد به التوبيخ ، ويحسن له أن يقف على﴿ زَنِيْم ﴾ ، ويبتدئ ﴿ أَأَنْ كانَ ﴾ على معنى : ألأنْ كان ذا مال وبنين تطيعه ؟

(٦) معاني الفرّاء ٣ / ٥٤ ، و ينظر : تفسير الطبري ٢٦ / ٢٩ ، معاني الزجاج ٤ / ٤٤٤ ، زاد المسير ٧ / ٣٨٢ .

(٧) معاني النحاس ٤٥١/٦ .

(٨) الحجة للفارسي ٤٠١/٣.

(١) ينظر : السبعة ٦٤٦ ، التذكرة ٥٩٥/٢ ، التيسير ١٧٣ ، النشر ٢٨٦.٢٨٥/١ .

(٢) ينظر : معاني الفراء ١٧٤/٣ ، تفسير الطبري ٣٥/٢٩ ، معاني الزجاج ٢٠٦/٥ ، إعراب النحاس ٧/٥ ، معاني الأزهري ٥٠١ ، حجة أبي زرعة ٧١٨.٧١٧ ، الكشف ٣٣١/٢ ،زاد المسير ٢٣٤/٨ ، أساليب الاستفهام في القرآن ٣١٧ .

ويجوز أن يكون القدير : ألِأنْ كان ذا مال وبنين يقول إذا تتلى عليه آياتنا : أساطير الأولين !! ويجوز أن يكون التقدير : ألأنْ كان ذا مال وبنين يكفر ويستكبر)) [٣] .

ومن خلال هذه التقديرات يتضح لنا خروج الاستفهام إلى معنى التوبيخ لهذا الحلَّاف وهو الوليد بن المغيرة ، وقيل غيره [٤] .

وأما قراءة الخبر [١] (أَنْ كانَ) بهمزة واحدة ، فهي لا تبعد عن قراءة الاستفهام في مخرجها ؛ ((لأنه لا يبعد أن يكون التوبيخ بلفظ الخبر ، و المعنى : لأجل كونه ذا مال وبنين يكذب بآياتنا ، و العامل في قوله : لأنْ كان ذا مال وبنين ، هو ما دل عليه الكلام الذي بعده من معنى التكذيب ، وهو قوله : ﴿ قَالَ أَسَاطِيرُ الأَوَّلِينَ ﴾ ؛ لأنّ هذا تكذيب ، كأنه قال : لِأنْ كان ذا مال وبنين يكذب بآياتنا)) [٢] .

ومن هنا يظهر لنا أن قراءة الخبر بيَّنت سبب تكذيب ذلك الحلَّاف لآيات الله ، وهذا البيان يحمل في طياته توبيخاً ضمنياً لذلك المكذب ، وأن قراءة الاستفهام وبخته على ذلك السبب ، فحاصل المزاوجة بين هاتين القراءتين أن قراءة الاستفهام أكدت التوبيخ الذي تضمنته قراءة الخبر على سبيل التقوية والتأييد .

الموضع الثامن :

في قوله تعالى ﴿ قَالَ فِرْعَوْنُ آمَنْتُمْ بِهِ قَبْلَ أَنْ آذَنَ لَكُمْ إِنَّ هَذَا لَمَكْرٌ مَكَرْتُمُوهُ فِي الْمَدِينَةِ لِتُخْرِجُوا مِنْهَا أَهْلَهَا فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴾ [الأعراف : ١٢٣] .

و في قوله تعالى : ﴿ قَالَ آمَنْتُمْ لَهُ قَبْلَ أَنْ آذَنَ لَكُمْ إِنَّهُ لَكَبِيرُكُمُ الَّذِي عَلَّمَكُمُ السِّحْرَ فَلأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ مِنْ خِلافٍ وَلأُصَلِّبَنَّكُمْ فِي جُذُوعِ النَّخْلِ ﴾ [طه : من الآية ٧١] .

---

(٣) تفسير القرطبي ٢٠٧/١٩ .

(٤) قال ابن حجر في الفتح عند شرحه للحديث الذي رواه البخاري عن ابن عباس ــ رضي الله عنهما ــ في قوله تعالى : ﴿ عُتُلٍ بَعْدَ ذَلِكَ زَنِيم ﴾ قال : رجل من قريش له زنمة مثل زنمة الشاة ؛ قال ابن حجر : اُخْتُلِفَ في الذي نزلت فيه ، فقيل : هو الوليد بن المغيرة وذكره يحيى بن سلام في تفسيره ، وقيل : الأسود بن يغوث ، ذكره سنيد في تفسيره ، وقيل : الأخنس بن شريق وذكره السهلي عن القتيبي . فتح الباري كتاب التفسير ، باب (عتل بعد ذلك زنيم) ٦٦٢/٩ .

(١) ينظر : الحجة للفارسي ٥٧/٤ ، الكشاف ١٤٣/٤ ، المحرر الوجيز ٥/ ٣٤٨ ، البحر ٣١٠/٨ ، الدر المصون ٤٠٧.٤٠٦/١٠ .

(٢) الموضح ١٢٨٨/٣ .

و في قوله سبحانه : ﴿ قَالَ آمَنْتُمْ لَهُ قَبْلَ أَنْ آذَنَ لَكُمْ إِنَّهُ لَكَبِيرُكُمُ الَّذِي عَلَّمَكُمُ السِّحْرَ فَلَسَوْفَ تَعْلَمُونَ لأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ مِنْ خِلافٍ وَلأُصَلِّبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ ﴾ [الشعراء : ٤٩] .

فقد قرأ [١] حفص في المواضع الثلاثة (آمنتم) بهمزة واحدة بعدها ألف على لفظ الخبر ، و قرأها الباقون بهمزتين على الاستفهام ، وهم على أصولهم في تحقيق الهمزة و تسهيلها .

فأما قراءة الاستفهام [٢] (أآمنتم) بهمزتين بعدها ألف ، على أنّ الأولى هي همزة الاستفهام مفتوحة، و الثانية همزة ألف القطع مفتوحة ، و الثالثة هي فاء الفعل ساكنة على وزن (أَأَفْعَلْتُمْ) ، ((و وجه الاستفهام أنه استفهام على وجه التقرير ، يوبّخهم به و ينكره عليهم)) [٣] فهو توبيخ للسحرة و إنكار لهم على إيمانهم بدعوة موسى .

وأما قراءة حفص (آمنتم) فبهمزة واحدة وهي ألف الفعل مفتوحة ، بعدها ألف وهي فاء الفعل ساكنة على وزن (أَفْعلتم) ، و هذه القراءة تحتمل وجهين [٤] :

الأول : أنها جاءت على لفظ الخبر المتضمن للتوبيخ ، بمعنى : ((أنه يخبرهم بإيمانهم على وجه التقريع لهم بإيمانهم ، و الإنكار له عليهم)) [٥] إذ ليس المقصود أنه يخبرهم بأمر يجهلونه ، إنما ينكر عليهم ذلك .

الثاني : أنها جاءت استفهاماً محذوف الأداة على لفظ الخبر ، ((و إنما حذفت ألف الاستفهام من اللفظ استخفافاً ، و حسن ذلك ؛ لأنَّ ما في الكلام من معنى التوبيخ و التقريع من فرعون للسحرة يدل على الاستفهام الذي معناه الإنكار منه لفعلهم الإيمان)) [٦] وهو ما تؤيده قراءة الباقين بهمزتين على الاستفهام .

---

(٣) ينظر : السبعة ٢٩٠.٢٩١ ، التذكرة ٢/ ٣٤٤.٣٤٥، التيسير ٩٢ ، النشر ٢٨٧/١.

(١) ينظر : الحجة لابن خالويه ٨٨ ، حجة أبي زرعة ٢٩٣ ، تفسير القرطبي ٢٣١/٧ ، تفسير المنار ٧١/٩ .

(٢) الحجة للفارسي ٢٦١/٢ .

(٣) ينظر : الدر المصون ٥/ ٤٢٠ ، روح المعاني ٢٧/٥ ، التحرير والتنوير ٥٣/٩ .

(٤) الحجة للفارسي ٢٦١/٢ ، وينظر : الكشاف ١٠٤/٢ ، المحرر الوجيز ٢ / ٤٤٠ ، الموضح ٥٥٠/٢ .

(٥) الكشف ٤٧٣/١ ، وينظر : معاني الأزهري ١٨٧ ، التوجيه البلاغي للقراءات القرآنية ٢١٥ .

إذن جمعت المزاوجة في كل موضع من مواضع هذه الآيات بين الخبر المتضمن توبيخ فرعون للسحرة على إيمانهم ، والاستفهام الموبخ لهم فعلتهم ، على أن قراءة الاستفهام تؤكد قراءة الخبر فيما ذهبت إليه .

المبحث الثاني

المزاوجة بين الخبر والاستفهام

لإثراء السياق بدلالات الإنكار والتكذيب

يتعاضد الخبر بدلالاته مع الاستفهام الإنكاري التكذيبي لبناء علاقة تكاملية تطفح بدلالات الإنكار والتكذيب المشوب بشيء من التقرير والتهكم والتوبيخ والتعجب ، وذلك من خلال تزاوجهما كما في المواضع الآتية :

الموضع الأول :

في قوله تعالى ﴿ وَيَقُولُ الإِنْسَانُ أَإِذَا مَا مِتُّ لَسَوْفَ أُخْرَجُ حَيّاً ۞ أَوَلا يَذْكُرُ الْإِنسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِن قَبْلُ وَلَمْ يَكُ شَيْئاً ﴾ [مريم : ٦٦ . ٦٧] .

فقد قرأ [١] ابن ذكوان (إذا مَا مِتُّ) بهمزة واحدة مكسورة على لفظ الخبر ، و قرأ الباقون بهمزتين على لفظ الاستفهام ، و هم على أصولهم .

فأما قراءة الاستفهام [٢] (أإذا مَا مِتُّ) فالهمزة الأولى للاستفهام مفتوحة ، والثانية أصلية مكسورة ، وهذا الاستفهام في معناه وجهان :

الأول : أنه استبعاد حصول البعث بعد الممات ، و هو ((استفهام معناه الإنكار ، كأنه أنكر أن يخرج حياً بعد موته)) [٣] ، وذلك أن سبب نزولها أنَّ أُبَيَّ بن خلف أخذ عظماً بالياً ، فجعل يفته بيده

(١) ينظر: التذكرة ١/ ١١٢ ، التيسير ١٢١، النشر ٢٨٩/١ .

(٢) ينظر: الكشاف ٥١٧/٢، تفسير القرطبي ١٢٠/١١، البحر ٢٠٧/٦ ، تفسير أبي السعود ٤٣٦/٣، التحرير والتنوير ١٤٥/١٦.

(٣) معاني الأزهري ٢٨٥ .

ويذريه في الريح ويقول : زعم لكم محمد أنَّ الله يبعثنا بعد أنْ نكون مثل هذا العظم البالي ، فنزلت هذه الآية [١] ، رواه أبو صالح عن ابن عباس ، و روى عطاء عن ابن عباس : أنه الوليد بن المغيرة [٢] . وهذا الاستفهام إنكار تكذيبي يبطل وقوع البعث وينفيه ؛ ولذلك أُتِيَ بالجملة المسلط عليها الإنكار مقترنة بلام الابتداء الدالة على توكيد الجملة الواقعة هي فيها ، فهي تأكيد لإنكار حصول البعث .

الثاني : أنه على معنى التوبيخ للإنسان ، ويكون مراد مَنْ ((أدخل همزة الاستفهام فيها على التوبيخ والتقرير للمُخبَر عنه أنه يقول : لا يبعث أبداً)) [٣] .

وأما قراءة الخبر[٤] بهمزة واحدة (إذا ما مت) فإما أنْ يكون استفهاماً حذفت أداته للعلم بها ، و لدلالة القراءة الأخرى عليها ، ولقوله تعالى :﴿ أَوَلا يَذْكُرُ الإِنسَانُ ... ﴾ ، و إما أنْ يكون ((إخباراً على سبيل الهزء والسخرية بمن يقول ذلك)) [٥] ، فهو سخرية من الإنسان الكافر بمن يقول بالبعث ، وهذا الهزء من قبيل ((قولهم خرج فلان عالماً وخرج شجاعاً ، إذا كان نادراً في ذلك ، يريد سَأُخْرَج حياً ! نادراً على سبيل الهزء)) [٦] ، وهذا الهزء مؤدَّاه الإنكار والاستبعاد لحصول البعث .

وعلى هذا فقراءة الخبر تؤيد معنى قراءة الاستفهام التي سلَّطت الإنكار على حصول البعث ، وهذا الإنكار صدر من الإنسان الكافر كما في الآية ، ولكنها لا تتجه مع المعنى الثاني للاستفهام الذي أفاد معنى التوبيخ للإنسان . لكننا إذا أعملنا مفهوم المزاوجة فإنها ستفتح لنا نافذة أخرى من المعنى ، وذلك أن الإنكار التكذيبي للبعث الصادر من الإنسان الكافر بمعنى : لن يقع كما في

---

(١) ينظر : أسباب النزول للواحدي ٢٤٨ عن الكلبي .

(٢) ينظر : زاد المسير ٢٥١/٥– ٢٥٢ .

(٣) الكشف ٩٠/٢ .

(٤) ينظر : معاني الأزهري ٢٨٥ ، الكشف ٩٠/٢ ، الدر المصون ٦١٨/٧ ، أساليب الاستفهام في القرآن ٣٢٤ .

(٥) البحر ٢٠٧/٦ .

(٦) الكشاف ٥١٧/٢ .

المعنى الأول ، تضمن توبيخاً لذلك الإنسان المنكِر على إنكاره ، بمعنى : ما كان ينبغي أن يقع ، كما في المعنى الثاني ، فكما سَلَّطَ إنكاره على حصول البعث سُلِّطَ عليه التوبيخ لإنكاره البعث فَوُبِّخَ على ما وقع منه من تكذيبه لما سيقع ، فاجتمع في قوله الإنكاران : التكذيبي والتوبيخي ولا يحيق المكر السيء إلا بأهله . ذلك ما فتحته لنا نافذة المزاوجة ! .

الموضع الثاني :

في قوله تعالى : ﴿ قُل لَّا يَعْلَمُ مَن فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ الْغَيْبَ إِلا اللَّهُ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ ۞ بَلِ ادَّارَكَ عِلْمُهُمْ فِي الآخِرَةِ بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ مِّنْهَا بَلْ هُم مِّنْهَا عَمِونَ ﴾ [النمل ٦٥ . ٦٦] .

فقد قرأ [١] الجمهور (بلِ ادّارك) بكسر لام بلْ ، وهمزة وصل ، وتشديد الدال ، وألف بعدها، وقرأ أبو عمرو وابن كثير وأبو جعفر (بلْ أدْرك) بسكون اللام ، وهمزة قطع ، وسكون الدال ، من غير ألف بعدها .

فأما قراءة الجمهور [٢] (بلِ ادّارك) فـ (بل) للإضراب [٣]، وأصل (ادّارك) هو (تَدَارَك) أُدغمت التاء في الدال فجيء بألف الوصل ؛ لأنه لا يُبتدأ بساكن ، فإذا وصلت سقطت ألف الوصل وكسرت اللام لالتقاء الساكنين ، وهي كقوله :﴿ فادّارأتم فيها ﴾[البقرة : ٧٢] ، و قوله : ﴿ حتى إذا ادّاركوا فيها ﴾ [الأعراف : ٣٨] .

هذا ويتعلق معنى (ادّارك) على قراءة الجمهور بـ (في) في قوله (في الآخرة) ،

و فيه وجهان [٤] :

أحدهما : أنّ (في) بمعنى (الباء) [٥]، أيْ : ادّارك علمهم بالآخرة ، وعلى هذا يتعلق (الباء)

(١) ينظر : السبعة ٤٨٥ ، التذكرة ٤٧٧/٢ ، التيسير ١٣٧ ، النشر ٢٥٤/٢ .

(٢) ينظر : تفسير الطبري ١١.١٠/٢٠، إعراب النحاس١٥٠/٣، معاني الأزهري ٣٦١.٣٦٠، الحجة لابن خالويه ١٧١، الموضح٩٦٩/٢، تفسير القرطبي ٢٠٣/١٣، روح المعاني٢٢٥.٢٢٤/١٠ .

(٣) ينظر : الجنى الداني في حروف المعاني ٢٥٣ .

(٤) الدر المصون ٦٣٧/٨ بتصرف .

(٥) ينظر : الجنى الداني في حروف المعاني ٢٦٦ .

بـ (علمهم) ،كقولك : علمي بزيد كذا ، وعلى هذا الوجه يكون معنى (ادّارك) كما قال الفراء : ((تتابع علمهم في الآخرة ، يريد بعلم الآخرة أنها تكون أو لا تكون)) (١) فاضطربت أحكامهم عندما تتابعت أقوالهم ،كما جاء في البحر نقلاً عن الكرماني : ((التدارك التتابع ، والمراد هنا الحكم والقول ، والمعنى : بل تتابع منهم القول والحكم في الآخرة وكثر منهم الخوض فيها ، فنفاها بعضهم ، وشك فيها بعضهم ، واستبعدها بعضهم)) (٢) ، وعلى هذا فالنتيجة كما قال مكي بن أبي طالب أنهم ((جهلوا علم وقتها ، فلم ينفرد أحد منهم بزيادة علم في وقتها ، فهم في الجهل لوقت حدوثها متساوون)) (٣) .

أما الزمخشري فإنه ارتقى بتتابع علمهم بالآخرة إلى درجة الاستحكام والتكامل ، ذلك عندما بيَّن أنَّ أسباب استحكام العلم وتكامله بأنَّ القيامة كائنة لا ريب فيها قد حصلت لهم ومُكّنوا من معرفته... ولكنه سرعان ما بيّن نتيجة هذا الاستحكام إذ قال :((إنَّ وصفهم باستحكامه وتكامله تهكمٌ بهم ، كما تقول لأجهل الناس : ما أعلمك! على سبيل الهزء)) (٤) ، ومِنْ هذا الترقِّي نتبيّن ((أنهم في جهل أفحش من جهلهم بوقت بعثهم ، حيث لا يعلمون أحوال الآخرة مطلقاً مع تعاضد أسباب معرفتها)) (٥) .

إذن فالمعنى على هذا الوجه يبيّن اضطرابهم واختلافهم وجهلهم بعلم الآخرة ،كما تهكم من محاولاتهم الفاشلة في طلب ما لا يبلغون ، والتي تدل على جهل مطبق متناهٍ في السفول .

الثاني : أنَّ " في " على بابها في الظرفية متعلقة بادّارك ، وهو وإنْ كان ماضياً لفظاً فهو مستقبل معنى ؛ لأنه كائن قطعاً ،كقوله تعالى : ﴿ أتى أمر الله ﴾ [النحل : ١] فالإخبار به صدق فكأنه قد وقع ، وعلى هذا يكون معنى (بل ادارك علمهم في الآخرة) ((أي : بل تكامل علمهم يوم القيامة

(١) معاني الفراء ٢٩٩/٢ .
(٢) البحر ٩٣/٧ .
(٣) الكشف١٦٥/٢ .
(٤) الكشاف ١٥٧.١٥٦/٣ .
(٥) تفسير أبي السعود ٢١٢/٤ .

بأنهم مبعوثون ، وأنَّ كل ما وُعِدوا به حق ، قال ابن عباس :بل ادارك علمهم في الآخرة ، أيْ : ما جهلوا في الدنيا علموه في الآخرة » (١) .

والمعنى على هذا الوجه لا يذهب بعيداً عن معنى الوجه الأول ، بل يؤكد أنَّ ما تكامل علمهم به في الآخرة من الحقائق والبعث إنما كانوا يجهلونه في الدنيا ، وهو ما بيّنه ابن عطية حين قال : « أي أنهم في الآخرة يدرك علمهم وقت القيامة ، ويرون العذاب والحقائق التي كذبوا بها ، وأما في الدنيا فلا » (١) ، و لا شك أن علمهم في ذلك الوقت لا ينفعهم ؛ إذ لم يكونوا في الدنيا مؤمنين موقنين بل كانوا مكذبين .

ومن هذين الوجهين يكون « حاصل المعنى على قراءة الجمهور: (وما يشعرون أيان يبعثون) وقد تلقى بعضهم عن بعض ما يعلمون في شأن الآخرة ، وهو ما اشتهر عنهم من إنكار الحياة الآخرة ، أو قد اضطرب ما يعلمونه في شأن الآخرة وأنهم سيعلمون ذلك لا محالة في يوم الدار الآخرة » (٢) .

وأما قراءة أبي عمرو وابن كثير وأبي جعفر (بلْ أدْرك) (٣) على وزن (أفْعل) ، فيكون معنى (أدرك) أي : بلغ ولحق ، تقول : هذا ما أدركه علمي ، أي : بلغه ، وتكون " بل " بمعنى " هل " ، و " في " بمعنى " الباء " ، فالمعنى : هل أدرك علمهم بالآخرة ؟ أي : هل بلغ غايته ؟ ، وهو استفهام فيه « إنكار أنْ يبلغ علمهم أمر الآخرة ، وفيه معنى التقرير والتوبيخ لهم ، وطلبهم علم ما لا يبلغونه أبداً ، فالمعنى : هل أدرك علمهم في الآخرة أي : بعلم حدوث الآخرة ، ومتى تكون ؟ أي : إنهم لم يدركوا علم الآخرة ووقت حدوثها ، ودلّ على ذلك قوله : ﴿ بل هم في شك منها بل هم منها عمون ﴾ » (٤) .

ومن هنا عملت المزاوجة بين قراءة الخبر وقراءة الاستفهام على تكامل صورة موقف هؤلاء الكافرين وتجسيدها ، فأما قراءة الخبر فإنها تبين التهكم من مواقف الكافرين وحواراتهم وآراءهم ،

---

(٦) حجة أبي زرعة ٥٣٥ .

(١) المحرر الوجيز ٢٦٨/٤ .

(٢) التحرير والتنوير ٢٢/٢٠ .

(٣) ينظر : الحجة للفارسي ٢٤٣/٣ ، حجة أبي زرعة ٥٣٥ ، الكشاف ١٥٧/٣ ، زاد المسير ١٨٨/٦ ، البحر ٩٢/٧ ، تفسير أبي السعود ٢١٣/٤ .

(٤) الكشف ١٦٥/٢ .

واختلافهم حول الآخرة وما خاضوا فيه وما وصلوا إليه من نتائج خاسرة ، وأما قراءة الاستفهام فتوبِّخ محاولاتهم الواهية ، وتستنكر فعلهم وانشغالهم بطلب ما لا يبلغون وتقررهم بجهلهم ، كما قال ابن عطية : ((فأما قراءة الاستفهام فهو على معنى الهزء بالكفرة والتقرير [١] لهم على ما هو في غاية البعد عنهم)) [٢] ، وذلك أن المطلوب منهم ليس الانشغال بوقت حدوث الآخرة ، وتكون أو لا تكون ، إنما الإيمان بها والاستعداد لها .

الموضع الثالث :

في قوله تعالى : ﴿ فَاسْتَفْتِهِمْ أَلِرَبِّكَ الْبَنَاتُ وَلَهُمُ الْبَنُونَ ۞ أَمْ خَلَقْنَا الْمَلائِكَةَ إِنَاثاً وَهُمْ شَاهِدُونَ ۞ أَلا إِنَّهُم مِّنْ إِفْكِهِمْ لَيَقُولُونَ ۞ وَلَدَ اللَّهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ۞ أَصْطَفَى الْبَنَاتِ عَلَى الْبَنِينَ ۞ مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ۞ أَفَلا تَذَكَّرُونَ ۞ أَمْ لَكُمْ سُلْطَانٌ مُّبِينٌ ۞ فَأْتُوا بِكِتَابِكُمْ إِن كُنتُمْ صَادِقِين ﴾ [الصافات : ١٤٩ – ١٥٧] .

فقد قرأ [٣] الجمهور (أصطفى) بهمزة قطع مفتوحة على أنها همزة استفهام ، و قرأها حمزة ونافع في رواية إسماعيل وشيبة بوصل الألف على لفظ الخبر .

فأما قراءة الجمهور بلفظ الاستفهام [٤] ، فعلى أنَّ الهمزة همزة استفهام مفتوحة ، و أما همزة الوصل التي في الفعل فحذفت استغناءً ، و هذا الاستفهام كقوله تعالى : ﴿ أَمْ لَهُ الْبَنَاتُ وَلَكُمُ الْبَنُونَ ﴾ [الطور : ٣٩] ، و قوله تعالى : ﴿ أَلَكُمُ الذَّكَرُ وَلَهُ الأُنْثَى ﴾ [النجم : ٢١] ، وهو استفهام ((على طريقة الإنكار والاستبعاد)) [٥] إذ هو استفهام إنكاري تكذيبي يفيد النفي ،

(١) نلحظ التداخل في هذا الموضع بين الإنكار والتقرير وذلك لما بينهما من علاقة عبر وسيط الهمزة ، فكما أن للإنكار علاقة وطيدة بالهمزة فإنَّ للتقرير علاقة كبيرة بها ، بل إنَّ الأمر وصل إلى حد أنَّ بعض العلماء جعل الإنكار التكذيبي المتضمن معنى النفي هو التقرير حينما يدل على التحقيق وذلك أنَّ نفي النفي إثبات ، كما في قوله تعالى : ﴿ أليس الله بكافٍ عبده ﴾ [الزمر:٣٦] . ينظر شروح التلخيص ٢/٢٩٠ .

(٢) المحرر الوجيز ٤/٢٦٨ .

(٣) ينظر : السبعة ٥٤٩ ، التذكرة ٢/٥٢٠ ، النشر ٢/٢٧٠ .

(٤) ينظر: معاني الزجاج ٤/٣١٤ ، معاني الأزهري ٤١٣ ، تفسير القرطبي ١٥/١١٨ .

(٥) البحر ٧/٦٧٧ ، وينظر : فتح القدير ٤/٥١٦ ، روح المعاني ١٢/١٤٤ .

بمعنى : ما اصطفى البنات على البنين ، كما أنَّ فيه توبيخاً لهم على نسبتهم إلى الله اختيار الأدنى عندهم ، ((والكلام ارتقاء في التجهيل ، أيْ لو سلّمنا أنّ الله اتخذ ولداً فلماذا اصطفى البنات دون الذكور ؟ أيْ اختار لذاته البنات دون البنين ، و البنون أفضل عندكم ؟)) [١] . وعلى هذا أفاد الاستفهام كذب الدعوى وتوبيخ المدعين .

و أما قراءة الخبر (اصطفى) فبهمزة وصل ، تثبت ابتداءً بالكسر و تسقط درْجاً .

و قراءة الوصل هذه تحمل وجهين :

الأول : أنه استفهام محذوف الأداة [٢] ، و إنما حذفت للعلم بها ، ولدلالة القرائن في السياق ، و هي كقول عمر بن أبي ربيعة [٣] :

ثم قالوا: تُحِبُّها ؟ قلتُ بهراً عدد الرمل و الحصى والتراب

أيْ : أتحبها ؟ و الاستفهام في قوله (اصطفى) يخرج إلى معنى التوبيخ كما قال الفراء : ((وقد تطرح ألف الاستفهام من التوبيخ ، ومثله قوله : ﴿ أذهبتم طيباتكم ﴾ [الأحقاف : ٢٠] يستفهم بها ولا يستفهم ، ومعناهما جميعاً واحد)) [٤] .

و على هذا الوجه تتعاضد قراءة الخبر مع قراءة الاستفهام .

الثاني : أنَّ جملة (اصطفى البنات) بدل [٥] من الجملة المحكية بالقول وهي (ولد الله) ، و تكون جملة (و إنهم لكاذبون) معترضة ولا يوقف عليها ، وجملة (مالكم كيف تحكمون) منقطعة عمَّا قبلها .

---

(١) التحرير والتنوير ١٨٢/٢٢ ، وينظر : تفسير الطبري١٢٧/٢٢، إعراب النحاس ٢٩٩/٣،حجة أبي زرعة ٦١٢، الكشاف ٣٥٤/٣ ، المحرر الوجيز ٤٨٨/٤، الموضح ١٠٩٥/٣، تفسير النسفي ٤٢٥/٢ .

(٢) ينظر : الدر المصون ٣٣٣/٩ ، تفسير أبي السعود ٤٢٢/٤ ، فتح القدير ٥١٦/٤ ، روح المعاني ١٤٤/١٢ ، التحرير والتنوير ١٨٢/٢٢ ، أساليب الاستفهام في القرآن ٣٢٣ .

(٣) البيت من (السريع) ديوان عمر بن أبي ربيعة ٦٠ .

(٤) معاني الفراء ٣٩٤/٢ ، وينظر : معاني النحاس ٦٤/٦ ، زاد المسير ٩١/٧ ، تفسير القرطبي ١١٨/١٥ ، التوجيه البلاغي للقراءات القرآنية ٢١٨ .

(٥) ينظر : معاني الزجاج ٣١٥،٣١٤/٤ ، تفسير القرطبي ١١٩/١٥ ، الدر المصون ٣٣٤/٩ ، فتح القدير ٥١٦/٤ .

و هذا البدل يخرج إلى معنى التوبيخ و التشنيع ((وهو من كلام الكفار ، حكى الله تعالى شنيع قولهم وهو أنهم ما كفاهم أنْ قالوا ولد الله ، حتى جعلوا ذلك الولد بنات الله ، والله تعالى اختارهم على البنين ... وأما قوله (وإنهم لكاذبون) ،فهي جملة اعتراض بين مقالتي الكفر ، جاءت للتشديد والتأكيد في كون مقالتهم تلك هي من إفكهم)) (١) .

وأيَّ إفك جاؤوه ، لقد جاؤوا شيئاً إدّاً ﴿ تَكَادُ السَّمَوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنْشَقُّ الأَرْضُ وَتَخِرُّ الْجِبَالُ هَدّاً ۞ أَنْ دَعَوْا لِلرَّحْمَنِ وَلَداً ۞ وَمَا يَنْبَغِي لِلرَّحْمَنِ أَنْ يَتَّخِذَ وَلَداً ﴾ [مريم :٩٠ – ٩٢]، ثم يختارون الأدنى عندهم ﴿ وَيَجْعَلُونَ للهِ البَنَاتِ سُبْحَانَهُ وَلَهُمْ مَا يَشْتَهُون ﴾ [النحل : ٥٧] ، فبئس القول قولهم ،وبئس الإفك إفكهم ﴿ كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ إِن يَقُولُونَ إِلا كَذِباً ﴾ [الكهف : ٥] .

ومن هنا يتبين من خلال المزاوجة بين هاتين القراءتين أنهما تتعاضدان في إظهار معنى التشنيع و التكذيب لهذه الدعوى والإفك المبين ، وذلك من خلال استفهام السياق استفهاماً إنكارياً يكذب دعواهم ، أو من خلال حكاية السياق شنيع قولهم توبيخاً لهم و لمفتراهم .

الموضع الرابع :

في قوله تعالى : ﴿ وَلَوْ جَعَلْنَاهُ قُرْآناً أَعْجَمِيّاً لَقَالُوا لَوْلا فُصِّلَتْ آيَاتُهُ أَأَعْجَمِيٌّ وَعَرَبِيٌّ قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ آمَنُوا هُدىً وَشِفَاءٌ وَالَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ فِي آذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمىً أُولَئِكَ يُنَادَوْنَ مِنْ مَكَانٍ بَعِيدٍ ﴾ [فصلت : ٤٤] .

فقد قرأ (٢) أبو بكر وحمزة والكسائي (أأعجمي) بهمزتين محققتين على الاستفهام ، وقرأ هشام (أعجمي) بهمزة واحدة بدون مدّ على الخبر ، وقرأ الباقون بهمزة واحدة بعدها مدّ ، وهم على أصولهم في التخفيف .

(٦) البحر ٣٧٧/٧، وينظر: معاني الأزهري ٤١٣، المحرر الوجيز ٤٨٨/٤ .

(١) ينظر : السبعة ٥٧٦ . ٥٧٧ ، التذكرة ٢/ ٥٣٨ – ٥٣٩ ، التيسير ١٥٦ – ١٥٧ ، النشر ٢٨٥/١ .

فأما قراءة الاستفهام [1] (أأعجمي وعربي) بهمزتين مفتوحتين أو بهمزة ومدَّة ، فيجوز الابتداء به ؛ لأنَّه موقع استئناف ، ويرتفع كل واحد منهما على أنَّه خبر مبتدأ محذوف ، والتقدير : أقرآنٌ أعجميٌ ورسولٌ عربيٌ ، أو ومرسلٌ إليه عربيٌ ؟ والمعنى : ((أنَّه على الإنكار منهم لذلك ؛ لأنه قال : ﴿وَلَوْ جَعَلْنَاهُ قُرْآناً أَعْجَمِيّاً لَقَالُوا ﴾ منكرين : أقرآن أعجمي ونبي عربي ؟ كيف يكون هذا ؟ فأخبر عما لم يكن لو كان كيف يكون ، فيبين أنَّه لو أنزل القرآن بلسان العجم لقالت قريش : أقرآن أعجمي ونبي عربي ؟ إنكاراً منهم لذلك)) [2] ، فهم يثيرون التعجب بهذه المقارنة على سبيل الإنكار ، إذ التعجب قوي الصلة بالإنكار .

وأما قراءة الخبر [3] بهمزة واحدة مفتوحة وسكون العين ، فلا يُبتدأ بها ؛ على اعتبار أنها بدل من (آياته) ، على أنَّ الكلام كلَّه ((من قيلهم يعني الكفرة ، أيْ : هلّا فُصِّلت آياته منها عربي يعرفه العربي ، وعجمي يفهمه العجمي)) [4] ، فهم يقترحون . تعنتاً . أن يكون بعضه عربياً وبعضه أعجمياً ، فتكون آياته مفصلة بين هذا و هذا ، كما أورده ابن جرير حين قال : ((قالت قريش : لولا أنزل هذا القرآن أعجمياً وعربياً ، فأنزل الله ﴿ لَقَالُوا لَوْلا فُصِّلَتْ آيَاتُهُ أَأَعْجَمِيٌّ وَعَرَبِيٌّ قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ آمَنُوا هُدىً وَشِفَاءٌ ﴾)) [5] .

ومن هنا يتبين لنا أن المزاوجة بين قراءة الاستفهام وقراءة الخبر قد جمعت لنا أوجه تعنت الكافرين ، وصور إنكارهم وتنصُّلهم واعتراضهم ، وذلك ((أنَّ آيات الله على أيِّ طريقة جاءتهم وجدوا فيها متعنتاً ؛ لأنَّ القوم غيرُ طالبين للحق ، وإنما يتبعون أهواءهم)) [6] . فحينما نزل القرآن الكريم عربياً خالصاً أخذوا يصوِّبون سهام الشبه حوله بأن الرسول يأخذه عن بعض العجم ، ولكنْ ﴿ لسان

(٢) ينظر: معاني الفراء ١٩/٣، معاني الزجاج٣٨٩/٤، معاني النحاس ٢٧٨/٦– ٢٧٩، معاني الأزهري ٤٣١، الحجة لابن خالويه ٢٠٦، الحجة للفارسي ٣٥٨/٣، حجة أبي زرعة ٦٣٧، زاد المسير ٢٦٣/٧ .

(١) الكشف ٢٤٨/٢– ٢٤٩، وينظر: التوجيه البلاغي للقراءات القرآنية ٢٢٦.

(٢) ينظر : الكشاف٤٥٥/٣، المحرر الوجيز ٢٠/٥، تفسير القرطبي ٣٢١/١٥، البحر ٥٠٢/٧، الدر المصون ٥٣٠/٩– ٥٣١، فتح القدير ٦٤٩/٤.

(٣) معاني الفراء ١٩/٣.

(٤) تفسير الطبري ١٥٨/٢٤ .

(٥) الكشاف ٤٥٥/٣، وينظر: المحرر الوجيز ٢٠/٥، تفسير أبي السعود ٥١٥/٥.

الذي يلحدون إليه أعجمي وهذا لسان عربي مبين ﴾ [النحل : ١٠٣] ، فهم ينكرونه بهذه الطريقة ، ولو سلَّمنا جدلاً أنه نزل أعجمياً ، لأنكروه كذلك ، فليس لهم قرار و أنما قصدهم التعنت والإنكار ، ثم أخذوا يثيرون المقارنات والاقتراحات فتارة يقولون : أقرآن أعجمي ونبي عربي ؟ وتارة يقترحون : هلَّا فصِّلت آياته : منها عربي ومنها أعجمي !! ولو جعلناه كذلك لقالوا هذا مختلط !! فهم ينكرونه هكذا وهكذا . ينكرونه أنْ كان عربياً خالصاً ، وينكرونه أنْ كان أعجمياً والرسول عربياً ،كما ينكرونه أنْ كان أعجمياً كله وليس فيه جزء عربي يفهمونه إذ هم عرب . فهم ينكرونه جملةً وتفصيلاً . ولذلك جاء بعدها ﴿ قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ آمَنُوا هُدىً وَشِفَاءٌ ﴾ فهذا حال المؤمنين المبصرين للحقائق ، أما حالهم فهو عليهم عمى والله المستعان .

وهذه المزاوجة التي نقلت لنا صور تعنت الكافرين ومواقفهم من الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ والقرآن الكريم تتضافر مع هذا المعنى في مواضع كثيرة من القرآن ، فانظر إليهم :

في قوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ صَرَّفْنَا لِلنَّاسِ فِي هَذَا الْقُرْآنِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ فَأَبَى أَكْثَرُ النَّاسِ إِلا كُفُوراً ۞ وَقَالُوا لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الأَرْضِ يَنْبُوعاً ۞ أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِنْ نَخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجِّرَ الأَنْهَارَ خِلالَهَا تَفْجِيراً ۞ أَوْ تُسْقِطَ السَّمَاءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفاً أَوْ تَأْتِيَ بِاللهِ وَالْمَلائِكَةِ قَبِيلاً ۞ أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِنْ زُخْرُفٍ أَوْ تَرْقَى فِي السَّمَاءِ وَلَن نُّؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّى تُنَزِّلَ عَلَيْنَا كِتَاباً نَّقْرَؤُهُ قُلْ سُبْحَانَ رَبِّي هَلْ كُنْتُ إِلا بَشَراً رَّسُولاً ۞ وَمَا مَنَعَ النَّاسَ أَنْ يُؤْمِنُوا إِذْ جَاءَهُمُ الْهُدَى إِلا أَنْ قَالُوا أَبَعَثَ اللهُ بَشَراً رَسُولاً ﴾ [الإسراء : ٨٩ . ٩٤] .

وقوله تعالى : ﴿ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَذَا إِلا إِفْكٌ افْتَرَاهُ وَأَعَانَهُ عَلَيْهِ قَوْمٌ آخَرُونَ فَقَدْ جَآءُو ظُلْماً وَزُوراً ۞ وَقَالُوا أَسَاطِيرُ الأَوَّلِينَ اكْتَتَبَهَا فَهِيَ تُمْلَى عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلاً ۞ قُلْ أَنْزَلَهُ الَّذِي يَعْلَمُ السِّرَّ فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ إِنَّهُ كَانَ غَفُوراً رَّحِيماً ۞ وَقَالُوا مَالِ هَذَا الرَّسُولِ يَأْكُلُ الطَّعَامَ وَيَمْشِي فِي الأَسْوَاقِ لَوْلا أُنْزِلَ عَلَيْهِ مَلَكٌ فَيَكُونَ مَعَهُ نَذِيراً ۞ أَوْ يُلْقَى إِلَيْهِ كَنْزٌ أَوْ تَكُونُ لَهُ جَنَّةٌ يَأْكُلُ مِنْهَا وَقَالَ الظَّالِمُونَ إِنْ تَتَّبِعُونَ إِلا رَجُلاً مَسْحُوراً ۞ أُنْظُرْ كَيْفَ ضَرَبُوا لَكَ الأَمْثَالَ فَضَلُّوا فَلا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلاً ﴾ [الفرقان : ٤ . ٩] .

الموضع الخامس :

في قوله تعالى : ﴿ لَوْ نَشَاءُ لَجَعَلْنَاهُ حُطَاماً فَظَلْتُمْ تَفَكَّهُونَ ۞ إِنَّا لَمُغْرَمُونَ ۞ بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ ﴾ [الواقعة ٦٥ . ٧٦] .

فقد قرأ [١] أبو بكر (أإنا لمغرمون) بهمزتين محققتين على الاستفهام ، وقرأ الباقون (إنا لمغرمون) بهمزة واحدة مكسورة على لفظ الخبر .

فأما قراءة (أإنا لمغرمون) بهمزتين على الاستفهام [١] ، فعلى أن الهمزة الأولى همزة الاستفهام ، والهمزة الثانية همزة إنّ المكسورة ، وقبل هذه الجملة قول مقدرٌ على كلتا القراءتين ، وذلك في محل نصب على الحال تقديره : فظلتم تفكهون قائلين أو تقولون : إنا لمغرمون ، أي : ((لملزمون غرامة ما أنفقنا ، أو مهلكون لهلاك رزقنا من الغرام أي الهلاك)) [٢] ، ومغرمون أي : مهلكون ، وهو من قوله تعالى ﴿ إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَاماً ﴾ [الفرقان : ٦٥] .

والاستفهام على هذه القراءة ((معناه الإنكار والجحود للعذاب والهلاك الذي ينزل بهم لكفرهم)) [٣] ، فهو استفهام إنكاري تكذيبي لما وقع كمحاولة نفسية للهروب من الواقع ، فهم من هول الفاجعة يحاولون أنْ يكذبوا الواقع ، أو يكذبوا أنفسهم فيما رأوا ، وقد ارتفعت نبرة أصواتهم لحظة المشاهدة وهم يقولون : أَإِنَّا لمغرمون في محاولة لتشكيك أنفسهم أو أعينهم في صحة حصول ذلك الهلاك الذي نزل بهم ، وهو تجسيد لحالة التسخط والجزع كما قال الله تعالى : ﴿ إِنَّ الإِنْسَانَ خُلِقَ هَلُوعاً ۞ إِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعاً ﴾ [المعارج :١٩ . ٢٠] .

---

(١) ينظر : السبعة ٦٢٣.٦٢٤ ، التذكرة ٥٨٠/٢ ، التيسير ١٦٨، النشر ٢٨٩/١ .

(١) ينظر : معاني الأزهري ٤٧٧، المحرر الوجيز ٥/ ٢٤٩ ، البحر ٨/ ٢١٢ ، الدر المصون ١٠/ ٢١٧ .

(٢) الكشاف ٥٧/٤ .

(٣) الكشف ٣٠٥/٢ .

و أما قراءة (إنا لمغرمون) على لفظ الخبر [١] ، فمعناها : إنا أُصبنا بالغرم ، أي الهلاك والعذاب ، وقد استخدموا الخبر الإنكاري مؤكداً بـ (إنَّ واللام والاسمية) ليقطعوا عن أنفسهم كل شك ، ويغلقوا عليها كل منفذ للإنكار ، كل ذلك إمعاناً في الجزم بحلول الهلاك ، بل أكدوا ذلك بالإضراب إلى قولهم (بل نحن محرومون) .

ومن هنا نرى أنَّ قراءة الخبر تتكامل مع قراءة الاستفهام في بناء الموقف ، وذلك أنَّ قراءة الاستفهام تصوير للحالة النفسية لحظة وقوع الهلاك ، وقراءة الخبر تحكي حالة التسليم والرضا بالواقع ، فحينما كذبوا أول الأمر رأوا بعد ذلك أنه لا مناص إلا التسليم ، فقطعوا بذلك وقالوا : (إنَّا لمغرمون) ، هذا وقد تكون قراءة الخبر تتكامل مع قراءة الاستفهام في بناء المعنى على أنْ تكون قراءة الاستفهام تصويراً للحالة النفسية لبعض الناس من حيث التسخط والجزع ، وتكون قراءة الخبر تصويراً للحالة النفسية لبعضهم الآخر من حيث التسليم والرضا في نفس الموقف .

الموضع السادس :

في قوله تعالى : ﴿وَإِنْ تَعْجَبْ فَعَجَبٌ قَوْلُهُمْ أَإِذَا كُنَّا تُرَاباً أَإِنَّا لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ ﴾ [الرعد : ٥] .

وقوله تعالى : ﴿ وَقَالُواْ أَئِذَا كُنَّا عِظَاماً وَرُفَاتاً أَإِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقاً جَدِيداً ﴾[الإسراء : ٤٩] .

وقوله تعالى : ﴿ ذَلِكَ جَزَآؤُهُم بِأَنَّهُمْ كَفَرُواْ بِآيَاتِنَا وَقَالُواْ أَئِذَا كُنَّا عِظَاماً وَرُفَاتاً أَإِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقاً جَدِيداً ﴾ [الإسراء : ٩٨] .

وقوله تعالى : ﴿ قَالُوا أَإِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَاباً وَعِظَاماً أَإِنَّا لَمَبْعُوثُونَ ﴾ [المؤمنون : ٨٢] .

وقوله تعالى : ﴿ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَإِذَا كُنَّا تُرَاباً وَآبَاؤُنَا أَإِنَّا لَمُخْرَجُونَ ﴾ [النمل : ٦٧] . وقوله تعالى : ﴿ وَلُوطاً إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ مَا سَبَقَكُمْ بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِنَ الْعَالَمِينَ ۞ أَإِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ وَتَقْطَعُونَ السَّبِيلَ وَتَأْتُونَ فِي نَادِيكُمُ الْمُنْكَرَ فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلا أَنْ قَالُوا ائْتِنَا بِعَذَابِ اللَّهِ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴾ [العنكبوت : ٢٨ . ٢٩] .

(٤) ينظر : تفسير الطبري ٢٦٠/٢٧ ، حجة أبي زرعة ٦٩٧ ، زاد المسير ١٤٨/٨ .

وقوله تعالى : ﴿وَقَالُوا أَإِذَا ضَلَلْنَا فِي الأَرْضِ أَإِنَّا لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ بَلْ هُمْ بِلِقَاءِ رَبِّهِمْ كَافِرُونَ ﴾ [السجدة : ١٠] .

وقوله تعالى : ﴿ أَإِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَاباً وَعِظَاماً أَإِنَّا لَمَبْعُوثُونَ ﴾ [الصافات : ١٦] .

وقوله تعالى : ﴿ أَإِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَاباً وَعِظَاماً أَإِنَّا لَمَدِينُونَ ﴾ [الصافات : ٥٣] .

وقوله تعالى : ﴿ وَكَانُوا يَقُولُونَ أَإِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَاباً وَعِظَاماً أَإِنَّا لَمَبْعُوثُونَ ﴾ [الواقعة : ٤٧] .

وقوله تعالى : ﴿ يَقُولُونَ أَإِنَّا لَمَرْدُودُونَ فِي الْحَافِرَةِ ۞أَ إِذَا كُنَّا عِظَاماً نَخِرَةً ﴾ [النازعات : ١٠ . ١١] .

فقد اخْتَلَفَ القراء [1] في قراءة هذه المواضع بين مستفهم في الموضعين ، أو مستفهم ومخبر ، أو مخبر ومستفهم . ويمكن تقسيم قراءاتهم لهذه المواضع إلى قسمين : قسم منها سبعة مواضع لها حكم واحد ، وقسم منها أربعة مواضع ، لكل منها حكم على حدته .

أما القسم الأول : ففي سورة الرعد ، والثاني والثالث في الإسراء ، والرابع في المؤمنين ، والخامس في ألم السجدة ، والسادس والسابع في الصافات .

أما حكمها : فإنَّ نافعاً والكسائي يستفهمان في الأول ويخبران في الثاني ، وإنَّ ابن عامر يخبر في الأول ، ويستفهم في الثاني ، وإنَّ الباقين يستفهمون في الأول والثاني .

وأما القسم الثاني : فأوله ما في سورة النمل ، وحكمه : أنَّ نافعاً يخبر في الأول ويستفهم في الثاني ، وأنَّ ابن عامر والكسائي يعكسه ، أي : يستفهمان في الأول ويخبران في الثاني ، وأنَّ الباقين يستفهمون فيهما .

الثاني : ما في سورة العنكبوت ، وحكمه : أنَّ نافعاً وابن كثير وابن عامر وحفصاً يخبرون في الأول ويستفهمون في الثاني ، وأنَّ الباقين يستفهمون فيهما .

(١) ينظر : السبعة ٢٨٥ . ٢٨٦ ، التذكرة ٢/٣٨٦ . ٣٨٩ ، التيسير ١٠٧ .١٠٨، النشر ١/٢٩٠ .

الثالث : ما في سورة الواقعة ، وحكمه : أنَّ نافعاً والكسائي يستفهمان في الأول ، ويخبران في الثاني ، وأنَّ الباقين يستفهمون فيهما .

الرابع : ما في سورة النازعات ، وحكمه : أنَّ نافعاً وابن عامر والكسائي يستفهمون في الأول ويخبرون في الثاني ، وأنَّ الباقين يستفهمون فيهما .

فأما من قرأ (أإذا) ، (أإنا) بالاستفهام في الأول والثاني [١]، فذلك للتأكيد والمبالغة في الإنكار ، إذ حصل الإنكار بالاستفهام الأول ثم كرَّرَه في الثاني تأكيداً له ، وهو إنكار مفيد لكمال الاستبعاد وذلك أنَّ ((تكرير حرف الاستفهام بإدخاله على إذا وإنّ جميعاً إنكارٌ على إنكار وجحودٌ عقيب جحود ، ودليلٌ على كفر مؤكد مبالغ فيه))[١] .

وأما من استفهم في أحدهما وأخبر في الآخر [٢] فعلى ((أنه استغنى بلفظ الاستفهام في أحدهما عن الآخر ، إذ دلالة الأول على الثاني كدلالة الثاني على الأول ، وأيضاً فإن ما بعد الاستفهام الثاني في أكثر هذه المواضع تفسير للعامل الأول ، في " إذا " التي دخل عليها حرف الاستفهام ، فاستغنى عن الاستفهام في الثاني بالأول)) [٣] ، فمتى ما وقع الاستفهام في أحدهما ((حصل المقصود به ؛ لأن كل جملة مرتبطة بالأخرى ، فإذا أنكر في إحداهما حصل الإنكار في الأخرى)) [٤] .

ومن هنا نرى أنَّ المزاوجة بين الاستفهام والخبر في هذه الآيات أدّت إلى إحداث تقارب دلالي بين معاني هذه الأساليب وجعلها تتزاوج في إظهار معنى الإنكار بصور مختلفة ، ولعل إظهار

---

(١) ينظر : الكشف ٢١/٢ ، المحرر الوجيز ٢٩٥/٣ ، ٢٦٩/٤ ، الموضح ٦٩٩/٢ _ ٧٠٠ ، البحر ٣٦٥/٥ _ ٣٦٦ ، ٩٤/٧ ، الدر المصون ١٩.١٦/٧ ، ٦٣٨/٨ ، تفسير أبي السعود ١٤٨/٣ ، فتح القدير ٨٢/٣ ، ١٨٥/٤ ، روح المعاني ١٠٠/٧ ، ٢٢٦/١٠ .

(١) الكشاف ١٥٨.١٥٧/٣ .

(٢) ينظر : معاني الأخفش ٣٧٠/٢ ، تفسير الطبري ١٣٧.١٣٦/١٣ ، معاني الزجاج ١٣٩.١٣٨/٣ ، إعراب النحاس ٢٢٠.٢١٩/٢ ، ١٥١.١٥٠/٣ ، الحجة لابن خالويه ١٧١.١١٥ ، الحجة للفارسي ٢٥٢.٢٤٨/٢ ، ٧.٦/٣ ، ٢٤٤/٣ ، زاد المسير ٣٠٤/٤ ، تفسير القرطبي ٢٠٤/١٣ ، الإرشادات الجلية ٢٤٢ ، أساليب الاستفهام في القرآن ٣٠٩.٣٠٨ .

(٣) الكشف ٢١/٢ .

(٤) الدر المصون ١٩/٧ .

الإنكار بهذه الصور من خلال تعاضد القراءتين وتكاتفهما على إبرازه عند من قرأ في إحداهما استفهاماً وفي الأخرى خبراً ، أو من خلال تلك المبالغة في الإنكار عند من قرأ بالاستفهام فيهما على أنه إنكار مفيد لكمال الاستبعاد ، وأنه كرَّر وأظهر في موضع الإضمار للتأكيد والمبالغة في الإنكار ، فإن كل تلك المبالغة تتناسب مع تصوير تلك الدرجة التي وصل إليها المشركون إمعاناً في إنكار البعث ، وفي المقابل فإن هذا الإمعان في الإنكار يحتاج إلى جهد كبير لتصويبه ومعالجته ، وهو الأمر الذي أخذ حيزاً كبيراً من القرآن المكي معالجةً وتصويباً وتصحيحاً ، وقضية إنكار البعث من القضايا الجوهرية التي عالجها القرآن الكريم بصور مختلفة ، وأولاها عناية كبيرة ، ولا أَدَلَّ على ذلك من ورودها في هذا الكم الكبير من مواضع الآيات .

الموضع السابع :

في قوله تعالى : ﴿ وَقَالُوا إِنْ هَذَا إِلَا سِحْرٌ مُبِينٌ ۞ أَإِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَاباً وَعِظَاماً أَإِنَّا لَمَبْعُوثُونَ ۞ أَوَ آبَاؤُنَا الأَوَّلُونَ ﴾ [الصافات : ١٥ . ١٧] .

وقوله تعالى : ﴿ وَكَانُوا يَقُولُونَ أَإِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَاباً وَعِظَاماً أَإِنَّا لَمَبْعُوثُونَ ۞ أَوَ آبَاؤُنَا الأَوَّلُونَ ﴾ [الواقعة : ٤٧ . ٤٨] .

فقد قرأ [١] أبو جعفر وابن عامر وقالون بإسكان الواو (أَوْ آباؤنا) فيهما ، وورش يلقي حركة الهمزة بعدها عليها ، وقرأ الباقون بفتح الواو (أَوَ آباؤنا) فيهما .

فأما القراءة بإسكان [٢] الواو (أَوْ آباؤنا) فعلى العطف بـ (أَوْ) ، وما بعدها داخل في إنكار البعث واستبعاده ، ((ومعنى الآية استبعاد أن يبعثوا هم وآباؤهم على حدٍ واحدٍ من الاستبعاد)) [٣] ، فاستفاد ما بعد (أَوْ) الاستبعاد والإنكار مما قبلها ، وهو الاستفهام الإنكاري التكذيبي في قوله : (أإنا لمبعوثون) أي : أنكروا بعثهم وبعث آبائهم بعد الموت .

(١) ينظر : التذكرة ٥١٨/٢ ، التيسير ١٥١ ، النشر ٢٦٧/٢ .

(٢) ينظر : الكشف ٢٢٤.٢٢٣/٢ ، زاد المسير ٥٢/٧ ، أساليب الاستفهام في القرآن ٣٢٢ .

(٣) المحرر الوجيز ٢٤٦/٥ .

وأما القراءة بالفتح [٤] (أَوَ آباؤنا) فعلى العطف بـ (الواو) ، وتقدَّمت عليها همزة الاستفهام ، وهي مقدمة لفظاً ، وإنْ كانت بعدها تقديراً ؛ لأنَّ الهمزة مما له الصدارة فلا تتقدم عليها حروف العطف ، كقوله تعالى : ﴿ أَوَ عَجِبْتُمْ أَنْ جَاءَكُمْ ذِكْرٌ مِنْ رَبِكُمْ ﴾ [الأعراف : ٦٩] ، وقد عَطَفَت (الواو) ما بعدها نسقاً على ما قبلها ، ((والمعنى : أَيُبْعَثُ أيضاً آباؤنا ؟ على زيادة الاستبعاد، يعنون : أنهم أقدم ، فبعثهم أبعدُ وأبطل)) [١] ، فَدَلَّ العطف بالواو على شدة الاستبعاد وزيادة الإنكار .

إذن دَلَّت المزاوجة بين القراءتين على أنَّ الاستفهام أَكَّد الإنكار المتضمن في قراءة الخبر وزاده ، وذلك أنَّ الخبر استفاد معنى إنكار البعث مما قبله ، فَدَلَّ على أنَّ استبعاد بعث الآباء كاستبعاد بعثهم هم ، أما الاستفهام فَدَلَّ على شدة إنكار البعث وزيادة استبعاده ، وذلك حينما دَلَّ على شدة استبعاد بعث آبائهم ، وأنَّ البعث إنْ كان في حقهم بعيداً ، فهو في حق آبائهم أبعد وأبطل ؛ لأنهم أقدم وأسحق، فزاد المنْكَرَ إنكاراً والمستبعَدَ استبعاداً ، كل ذلك للمبالغة في إنكار البعث ، وتهرباً من عواقب أفعالهم .

(٤) ينظر : حجة أبي زرعة ٦٠٨ ، الكشاف ٥٥/٤ ، الموضح ١٠٨٨/٣ ، البحر ٣٥٥ ، الدر المصون ٢٩٨،٢٩٦/٩ .

(١) الكشاف ٣٣٧/٣ .

المبحث الثالث

المزاوجة بين الخبر والاستفهام

لإثراء السياق بدلالات التقرير والتأكيد

يلتقي الخبر بدلالاته مع الاستفهام التقريري بدلالة التحقيق أو الاعتراف ، فيقويه ويعضده لإظهار معاني القطع والتأكيد والتعظيم واليقين وغيرها ، وذلك من خلال تزاوجهما كما في المواضع الآتية :

الموضع الأول :

في قوله تعالى : ﴿ وَجَاء السَّحَرَةُ فِرْعَوْنَ قَالُواْ إِنَّ لَنَا لأَجْراً إِن كُنَّا نَحْنُ الْغَالِبِينَ۞ قَالَ نَعَمْ وَإِنَّكُمْ لَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ﴾ [الأعراف : ١١٣ – ١١٤] .

فقد قرأ [1] ابن كثير ونافع وأبو جعفر وحفص : (إنَّ لنا لأجراً) بهمزة واحدة على الخبر ، و قرأ الباقون : (أَإِنَّ لنا لأجراً) بهمزتين على الاستفهام ، وهم على أصولهم في التحقيق والتسهيل وإدخال ألف بينهما وعدمه .

فأما قراءة الخبر (إنَّ لنا لأجراً) ، فبهمزة واحدة و هي همزة إنَّ ، وهذه القراءة تحتمل وجهين [2] :

الأول : أنها على وجه الخبر [1] ، على معنى إثبات الأجر العظيم واشتراطه ، وذلك أنهم « لَمَّا جاؤوا قالوا لفرعون إنَّ لنا لأجراً و جزاءً عظيما يكافئ ما يُطلب منا من العمل العظيم إنْ كنا نحن الغالبين لموسى » [2] فـ « كأنهم قالوا لابد لنا من أجر عظيم حينئذٍ » [3] على وجه الإلزام و الإيجاب و القطع ، ولذلك أكدوه بـ (إن واللام) .

الثاني : أنها استفهام محذوف الأداة [4] ، كقوله تعالى : ﴿ وَتِلْكَ نِعْمَةٌ تَمُنُّهَا عَلَيَّ ﴾ أيْ : أَوَ تلك ؟ يؤيده قراءة الباقين بإثبات الهمزة .

وأما قراءة الاستفهام (أَإِنَّ لنا لأجراً) فالهمزة الأولى للاستفهام والثانية همزة إنَّ ، وهو استفهام تقريري فقد « استفهموا فرعون عن الجعل الذي سيجعله لهم على الغلبة » [5] ، وذلك أنهم قطعوا بالأجر وأقرّوه ، فهم لا يستفهمون عن حصول الأجر بل يستفهمون عن منتهى هذا الأجر وأعظم ما يجزيهم به مقابل العمل العظيم الذي سيقدمونه له ، وهم « لا يريدون مطلق الأجر ، بل المعنى لأجراً عظيماً » [6] ، ولهذا قال الزمخشري : « والتنكير للتعظيم ، كقول العرب : إن له لإبلاً ، وإن له

(١) ينظر : السبعة ٢٨٩ ، التذكرة ٣٤٣/٢ ، التيسير ٩٢ ، النشر ٢٨٩/١ .

(٢) ينظر : الدر المصون ٤١٤/٥ ، روح المعاني ٢٥/٥ .

(١) ينظر : معاني الأزهري ١٨٦ ، الحجة لابن خالويه ٨٨ ، حجة أبي زرعة ٢٩٢ ، الكشف ٤٧٢/١ ، الموضح ٥٤٧/٢ ، تفسير القرطبي ٢٢٩/٧ .

(٢) تفسير المنار ٦٣/٩ .

(٣) تفسير أبي السعود ٢٨٤/٢ .

(٤) ينظر : الحجة للفارسي ٢٥٨/٢ ، البحر ٣٦١/٤ ، التحرير والتنوير ٤٦/٩ ، أساليب الاستفهام في القرآن ٣٢٥ .

(٥) فتح القدير ٣٢٧/٢ ، وينظر: تفسير أبي السعود ٢٨٤/٢ .

(٦) البحر ٣٦١/٤ .

لغنماً ، يقصدون الكثرة »(١) ، فهم يستفهمون عن الأجر العظيم الكثير الذي سيقدمه لهم مقابل العمل العظيم الكبير الذي سيقدمونه له .

والاستفهام هنا ليس على سبيل الاستخبار وإنما على سبيل الإيجاب للأجر ؛ وذلك أنَّ السحرة يعلمون عجز فرعون وحاجته إليهم في ذلك الموقف ، فلهم أنْ يترفَّعوا عليه ويستفهموا عن أعظم ما يجزيهم به – على سبيل المشارطة – «وفي خطاب السحرة بذلك لفرعون دليل على استطالتهم عليه باحتياجه إليهم ، وبما يحصل للعالم بالشيء من الترفُّع على من يحتاج إليه ، وعلى من لا يعلم مثل علمه »(٢) ، ذلك ما جعلهم يستفهمون عن أقصى ما يقدمه لهم ، ويناسب ذلك جوابه حينما قال لهم : «نعم إنَّ لكم لأجراً وإنكم لمن المقربين ، أراد أني لا أقتصر بكم على الثواب وحده ، وإنَّ لكم مع الثواب ما يقل معه الثواب ، وهو التقريب والتعظيم ؛ لأنَّ المثاب إنما يهنأ بما يصل إليه ، ويغتبط به إذا نال معه الكرامة والرفعة »(٣) ، فلم يكن له بدٌّ إلا أنْ يبادرهم بالوعود ، «وفي مبادرة فرعون لهم بالوعد والتقريب منه دليل على شدة اضطراره لهم ، وأنهم كانوا عالمين بأنه عاجز ، ولذلك احتاج السحرة في دفع موسى عليه السلام »(٤) .

وعلى هذا فالقراءتان تؤكدان معنى إيجاب الحصول على الأجر العظيم الوفير بأساليب مختلفة ، وذلك أن السحرة فرضوا ذلك الأجر فرضاً على فرعون ، وأوجبوه حال غلبتهم ، بل أكدوا ذلك بأنْ اشترطوا أن يكون ذلك الأجر عظيماً كثيراً ، ثم ألزموه ليقر ويعترف لهم بذلك ، بمعنى إما أن يكون ذلك الأجر وفيراً وإلا رجعنا _ يظهرون بذلك منتهم وفضلهم عليه معولين على احتياجه إليهم لدفع موسى عليه السلام _ ويسجل عليه ، لئلا يخيس بعهده بعد ذلك . فقطعوا بذلك الأجر وأوجبوه من خلال أسلوب الخبر ، وانتزعوا اعتراف فرعون وإقراره بذلك من خلال أسلوب الاستفهام التقريري .

---

(٧) الكشاف ١٠٢/٢ .

(٨) البحر ٣٦١/٤ .

(١) الكشاف ١٠٢/٢.

(٢) البحر ٣٦١/٤ .

الموضع الثاني :

في قوله تعالى : ﴿ قَالَ هَلْ عَلِمْتُمْ مَا فَعَلْتُمْ بِيُوسُفَ وَأَخِيهِ إِذْ أَنْتُمْ جَاهِلُونَ۞ قَالُوا أَإِنَّكَ لأَنْتَ يُوسُفُ قَالَ أَنَا يُوسُفُ وَهَذَا أَخِي قَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا إِنَّهُ مَنْ يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ اللَّهَ لا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ ﴾ [يوسف : ٨٩ ـ ٩٠] .

فقد قرأ [٣] ابن كثير وأبو جعفر (إِنَّكَ لأنتَ يوسف) بهمزة واحدة على لفظ الخبر ، و قرأ الباقون بهمزتين على الاستفهام (أَإِنَّك لأنتَ يوسف) ، وهم على أصولهم في التحقيق و التسهيل و المد بين الهمزتين .

فأما قراءة الخبر (إِنَّكَ لأنتَ يوسف) ، فالهمزة همزة إنّ ، و الضمير المتصل اسمها ، و جملة (لأنتَ يوسف) خبرها ، دخلت عليها لام الابتداء . و هذه القراءة تحتمل وجهين :

الأول : أنها جاءت على سبيل الخبر[١] ، و ذلك ((أنهم لَمَّا عرفوا يوسف ، وتيقنوا أنه هو ، أتوا بـ (إنَّ) التي لتأكيد ما بعدها ، و استغنوا عن الاستخبار ؛ لأنه شيء قد ثبت عندهم ، فلا معنى للاستخبار عنه)) [٢] ، و يدل على ذلك ((أنَّ جوابه بـ (أنا يوسف) مجرد من التأكيد ؛ لأنهم كانوا متحققين ذلك ، فلم يبق إلا تأييده لذلك)) [٣] .

الثاني : أنها جاءت على سبيل الاستفهام [٤] ، و ذلك بحذف الأداة ،كقوله تعالى : ﴿ وَتِلْكَ نِعْمَةٌ تَمُنُّهَا عَلَيَّ ﴾ [الشعراء : ٢٢] ، أيْ : أَوَتِلْكَ نعمة ، على الاستفهام .

و أما قراءة الاستفهام (أَإِنَّكَ لأنتَ يوسف) ، فعلى أنَّ الهمزة الأولى همزة استفهام ، و الثانية همزة إنَّ . وقراءة الاستفهام هذه تحتمل ثلاثة أوجه :

---

(٣) ينظر: السبعة ٣٥١ ، التذكرة ٣٨٢/٢ ، التيسير ١٠٦ ، النشر ٢٨٩/١ .

(١) ينظر: معاني الزجاج ١٢٨/٣، إعراب النحاس ٢١٤/٢، معاني الأزهري ٢٢٧، الحجة لابن خالويه ١١٣، الموضح ٦٨٧، فتح القدير ٦٣/٣، أساليب الاستفهام في القرآن ٣٢١ .

(٢) الكشف ١٤/٢ .

(٣) التحرير والتنوير ١٣/ ٤٩ .

(٤) ينظر: الحجة للفارسي ٤٥٩/٢ ، المحرر الوجيز ٢٧٧/٣ .

الأول : أنها استفهام على الحقيقة [٥] ، و يدل على ذلك أنه أجابهم عَمَّا سألوا عنه بقوله : (أنا يوسف) .

الثاني : أنها استفهام « على سبيل الاستغراب و الاستعظام ، وإنْ كانوا قد عرفوه حق المعرفة » [٦] ، و يدل عليه « قراءة أبيّ [٧] : (أإنك أو أنت يوسف) على معنى أإنك يوسف أو أنت يوسف ، فحذف الأول لدلالة الثاني عليه ، وهذا كلام متعجب مستغرب لما يسمع فهو يكرِّر الاستثبات » [٨] .

الثالث : « أنها استفهام تقرير ، و لذلك أُكِّدَ بإنَّ و اللام ؛ لأنَّ التأكيد يقتضي التحقيق المنافي للاستفهام الحقيقي » [١] ، و هذا الاستفهام « معناه الإلزام و الإثبات ، لم يستخبروا عن أمر جهلوه ، إنما أتوا بلفظ يحققون به ما صحَّ عندهم من أنه هو يوسف » [٢] .

هذا و أمام كل هذه الأوجه ، فيمكن الجمع بين قراءة الاستفهام حينما تدل على الاستفهام الحقيقي أو الاستغراب ، مع قراءة الخبر حينما تدل على الاستفهام بحذف الأداة ، فيكونان بمعنى ، كما يمكن الجمع بين قراءة الاستفهام حينما تدل على التقرير والإلزام و الإثبات ، مع قراءة الخبر على سبيل الخبر و أنهما بمعنى .

و لكن يبقى الفارق بين المعنيين شاخصاً ، فهذا يقرر وذلك يستغرب وثالث يستفهم ... أما المزاوجة فإنها _ بأفقها الواسع _ تستوعب كل هذه المعاني ، بل و توظِّفها و تصوِّرها مجموعة في موقف واحد ، ذلك ما سيحصل إذا تأملنا موقف إخوة يوسف _ عليه السلام _ حينما « دخلوا عليه فقالوا (مَسَّنَا وأهلنا الضُّرُّ) فخضعوا له وتواضعوا ، فرَقَّ لهم ، و عرَّفهم بنفسه ، فقال : (هَل عَلِمتم ما فعلتم بيوسف وأخيه) » [٣] ، وذلك على سبيل التعريض ، فتنبّهوا لذلك و شبّهوه بيوسف

---

(٥) ينظر : تفسير الطبري ٧٣/١٣ ، حجة أبي زرعة ٣٦٣ .

(٦) إبراز المعاني ٢٧١/٣ .

(٧) ينظر : المحتسب ٢١/٢ .

(٨) الكشاف ٣٤١/٢ ، وينظر : البحر ٣٤٢/٥ ، التوجيه البلاغي للقراءات القرآنية ٢١٦ .

(١) روح المعاني ٤٦/٧ ، وينظر : المحرر الوجيز ٢٧٦/٣ .

(٢) الكشف ١٤/٢ .

(٣) تفسير القرطبي ٢١٧/٩ .

، و هنا _ و في نفس اللحظة _ تنطلق كل هذه الاحتمالات بأوجهها المختلفة من هؤلاء الإخوة ، فـ ((بعض الإخوة قالوه خبراً ، و بعضهم استفهاماً)) (٤) ، و هم ما بين مصدِّق ومكذِّب ، في مشهد حيٍّ تصوِّره لنا المزاوجة حينما ترصد مواقف الإخوة و مداخلاتهم ، بل وتفاوت نبرات أصواتهم ، و ما طرأ على بعضهم من علامات التعجب والذهول أمام هذا الحدث... فهؤلاء عَرَفُوه و تيقنوا من تعريضه بنفسه فقالوا على سبيل التأكيد (إنك لأنت يوسف)... و هؤلاء لم يعرفوه فاستفهموا ((استفهاماً على الحقيقة ، ولم يكن بعد قد تحقق عندهم)) (٥) ، ((و ذلك أنهم ظنوا ذلك ظناً فاستفهموه ، أهو هو ؟)) (٦) ... وهذا عَرَفَه ولكنه أُصيب بالحيرة و الذهول ، فقال استفهاماً على سبيل الاستغراب والاستعظام ، و أخذ _ تحت شدَّة وطأة المفاجأة _ يكرِّر الاستثبات وكأنه يتلعثم في ترديدها : إنك يوسف أو أنت يوسف (كما مرَّ في توصيف الزمخشري لمعنى حرف أُبيّ ، وكذلك كما جاء في توصيف ابن جني لحرف أُبيّ : ((حتى كأنه قال : أئنك لغير يوسف ، أو أنت يوسف ؟ فكأنه قال : بل أنت يوسف)) (١)) ... وأولئك عَرَفُوه للتَّوِّ ، ولكنهم احتاجوا شيئاً من التأكيد فأدخلوا ((الاستفهام التقريري على الجملة المؤكدة ، لأنهم تطلَّبوا تأييده لعلمهم به)) (٢) ، و مِنْ ثَمَّ يجيء تأييده للجميع ، فيقول : أنا يوسف ، و عندها يذعن الجميع ... و ((تدرك قلوبهم و جوارحهم و آذانهم ظلال يوسف الصغير في ذلك الرجل الكبير)) (٣) .

وبهذا تكون المزاوجة قد جَمَعت بين أوجه القراءتين في موقف واحد ، وَرَصَدت كلُّ تلك المداخلات وصوَّرت كل تلك الأحداث في مشهد حيٍّ متكامل . و الأَجَلُّ مِنْ هذا أنَّ كلَّ ذلك جُمع في عبارة واحدة (أإنَّكَ لأَنتَ يوسف) بكل أوجه قراءاتها فقد جَسَّدَت كلَّ دلالات الموقف من تأكيد و إخبار و استفهام و استغراب و تقرير .كلّ ذلك لم يكن لولا أسلوب المزاوجة فذلك ضرب من الإعجاز القرآني الفريد .

---

(٤) إبراز المعاني ٣/٢٧١ .

(٥) إبراز المعاني ٣/٢٧٠،٢٧١ .

(٦) معاني الأزهري ٢٢٧ .

(١) المحتسب ٢/٢١ .

(٢) التحرير والتنوير ١٣/٤٩ .

(٣) في ظلال القرآن ٤/٢٠٢٧ .

الفصل الثاني

المزاوجة

بين الخبر والأمر

و أثرها في إثراء دلالات السياق

الفصل الثاني

المزاوجة بين الخبر والأمر

و أثرها في إثراء دلالات السياق

تعمل المزاوجة بين قراءة الأمر وقراءة الخبر في الآية الواحدة على تكامل بناء السياق ، وتعاضد لبناته ، وإثراء المعنى وترابط دلالاته ، وإذا كان معنى الأمر يتغاير مع معنى الخبر، فإن المزاوجة توظف كل قراءة لتأدية دورها الذي يتكاتف مع دور القراءة الأخرى في إتمام هذا البناء .

هذا وإنَّ أساليب هذا البناء تتنوع بناءً على تنوع أسلوب المزاوجة بين الأمر والخبر ، فَتُبرز كل صيغة من صيغ الأمر عند تزاوجها مع لفظ من ألفاظ الخبر معلماً من معالم التكامل ، فتارة تتعاضد القراءتان ، وتارة تتعاقبان ، وثالثة تتجاوبان ، ورابعة تتناوبان ، وخامسة تترتب إحداهما على الأخرى ... فهكذا تتكاملان ، فكل قراءة تُعتبر لبنة من لبنات هذا البناء ، تصطف جنباً إلى جنب مع القراءة الأخرى لإظهار تكامل الصورة من جميع جوانبها ، وتماسك وتناسق مبانيها ، وإبراز وإيضاح معالمها .

هذه المعالم التي تربط بين دلالات الأمر ودلالات الخبر في وشيجةٍ متكاملة ، ولحُمة مترابطة متجانسة ، فليس الأمر بصيغه يسير في اتجاه ، والخبر بألفاظه في اتجاه آخر ، بل قد يسيران في خطين متوازيين ، تربط بينهما علاقة المزاوجة ، في صورة فنية رائعة ، ذلك ما سيظهر من خلال المباحث التالية :

المبحث الأول : المزاوجة بين الخبر وصيغة فعل الأمر لإظهار صور التجاوب والمعاقبة بين دلالات الطلب وحكاية والتنفيذ .

المبحث الثاني : المزاوجة بين الخبر وصيغة المضارع المقترن بلام الأمر لإظهار صور السياق المتقابلة بين وجهي الطلب والتعليل .

المبحث الثالث : المزاوجة بين الخبر وصيغة المصدر النائب عن فعل الأمر لإظهار صورة التطور الموقفي من دلالات التجدد والتغير إلى دلالات الثبوت والدوام .

المبحث الأول

المزاوجة بين الخبر وصيغة فعل الأمر

لإظهار صور التجاوب والمعاقبة

بين دلالات الطلب وحكاية التنفيذ

عند المزاوجة بين قراءة الأمر بصيغة فعل الأمر مع قراءة الخبر، فإن قراءة الخبر التي تدور مع فعل الأمر لن تخرج عن صيغة الفعل الماضي أو صيغة الفعل المضارع ، والغالب على هذه الصورة من المزاوجة بين صيغة فعل الأمر مع الخبر ، أنْ تعمل القراءتان على إظهار المعنى ، بأنْ تترتب قراءة الخبر على قراءة الأمر وتنبني عليها لتصور المواقف التي تَمَّ بها الحدث ، فبمجرد قراءتك للطلب في قراءة الأمر ، إذا بك تراه واقعاً قائماً تحكيه قراءة الخبر ، فتكون قراءة الخبر جواباً عن قراءة الأمر ، أو إخباراً عن تحقيق قراءة الأمر ، فتحكي لنا المزاوجة جانب الطلب بقراءة الأمر ، ومِنْ ثَمَّ جانب التنفيذ بقراءة الخبر ، ويكون التنفيذ على وجه التحقيق أو الإخبار بلفظ الماضي ، أو على وجه الاستمرار بلفظ المضارع ، ذلك ما يظهر من خلال المواضع الآتية :

الموضع الأول :

في قوله تعالى : ﴿ وَإِذِ ابْتَلَى إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَاماً قَالَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِي قَالَ لا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ ۞ وَإِذْ جَعَلْنَا الْبَيْتَ مَثَابَةً لِلنَّاسِ وَأَمْناً وَاتَّخِذُوا مِنْ مَقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلّىً وَعَهِدْنَا إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ أَنْ طَهِّرَا بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْعَاكِفِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ ﴾ [البقرة : ١٢٤ – ١٢٥] .

حيث قرأ [١] نافع و ابن عامر : (واتخَذوا) بفتح الخاء فعلاً ماضياً على لفظ الخبر ، وقرأ جمهور القراء : (واتخِذوا) بكسر الخاء على لفظ الأمر .

فأما القراءة بفتح الخاء على لفظ الخبر ، ففيها عدة أوجه [٢] :

الأول : أنَّ (اتخَذوا) بالفتح معطوف على (جعلنا) المخفوض بـ (إذْ) تقديراً ، فيكون الكلام جملة واحدة أيْ : وإذ جعلنا البيت مثابة للناس وأمناً واتخَذوه مصلى .

الثاني : أنه معطوف على مجموع قوله : (وإذ جعلنا) فيحتاج إلى تقدير (إذْ) ، ويكون الكلام جملتين ، أيْ : وإذْ جعلنا البيت مثابة للناس وأمناً ، وإذ اتخَذوا من مقام إبراهيم مصلى ، ومما يؤكد هذا أنَّ الذي بعده خبر ، وهو قوله تعالى : ﴿ وَعَهِدْنَا إِلَى إِبرَاهِيمَ وَإِسمَاعِيلَ ﴾ [البقرة : ١٢٥] .

الثالث : أنْ يكون معطوفاً على محذوف ، تقديره : فثابوا واتخَذوا .

والمعنى في أسلوب الخبر يعمل في كل هذه التقديرات على إظهار صورة الامتثال ، فإنْ كان المقصود من الخبر إبراهيم وذريته ، فهذا إخبار عن صدق الامتثال إذْ ثابوا واتخَذوا ، فالخبر هنا يؤكد امتثالهم واتخاذهم مقام إبراهيم مصلى ، وهو يحكي استجابتهم فقد امتثلوا واقتدوا واتخَذوا من مقام

(١) ينظر: السبعة ١٧٠ ، التذكرة ٢٥٩/٢ ، التيسير ٦٥ ، النشر١٦٧/٢ .

(٢) ينظر: الحجة للفارسي٣٧٩/١ ، الكشف٢٦٣/١، الموضح ٢٩٨/١-٢٩٩، تفسير القرطبي ٨٦/١ ، البحر٣٨١/١، الدر المصون١٠٥/٢ .

إبراهيم مصلى ، فالمعنى : ((ألهمنا الناس أنْ يتخذوا من مقام إبراهيم مصلى... فامتثلوا واتخذوه))[1] ، وإنْ كان المقصود من الخبر النبي محمداً ـ صلى الله عليه وسلم ـ وأمته ، فهو كذلك يحكي امتثالهم واقتداءهم بمن قبلهم[2] في اتخاذهم مقام إبراهيم مصلى فهم ((أصحاب النفوس العالية والقلوب الزكية التي تمتثل لأمر الله بمجرد علمها أنَّ هذا الأمر كان على أمم قبلها ، وكأنها لفرط شفافية قلوبها لا تحتاج إلى أمر صريح لتلتزم به))[3] .

إذن فالرابط بين المعنيين في قراءة الخبر هو تحقيق الامتثال ، فتتجلى صورة الامتثال في إبراهيم ـعليه السلام ـ وذريته كما تتجلى في محمد ـعليه السلام ـ وأمته ، فقد امتثلوا واتخَذوا من مقام إبراهيم مصلى ، فقراءة الخبر على لفظ الماضي تحكي هذا الامتثال وأنهم قد حققوه وفعلوه .

وأما قراءة الأمر (واتخِذوا) بكسر الخاء ، ففيها عدة أوجه[4] :

أحدها : أنه عطف على الأمر الذي تضمنه قوله (مثابة) ، كأنه قال : ثوبوا واتخِذوا .

الثاني : أنه عطف على معنى (إذ جعلنا) ؛ لأن المعنى : اذكروا إذ جعلنا واتخِذوا .

الثالث : أنه معمول لقول محذوف ، أيْ : وقلنا اتخِذوا ، إنْ قيل بأنَّ الخطاب موجه لإبراهيم ـعليه السلام ـ وذريته أو محمد ـعليه السلام ـوأمته .

الرابع : أنْ يكون مستأنفاً .

والمعنى من خلال هذه الأوجه : (ثوبوا واتخِذوا) و (وقلنا اتخِذوا) ، يتضمن طلب الامتثال باتخاذ مقام إبراهيم مصلى ، فإنْ كان الخطاب[5] مواجهاً به إبراهيم ـعليه السلام ـ وذريته على تقدير : وقال الله لإبراهيم وذريته اتخِذوا ، فلما أُمِرُوا امتثلوا واتخَذوا ، أي حينما ((أمرناهم بذلك على لسان إبراهيم امتثلوا واتخَذوه))[6] ، وإنْ كان الخطاب[1] موجهاً للنبي محمد ـ صلى الله عليه وسلم

(٣) التحرير والتنوير ٧١٠/١ .

(١) ينظر : إبراز المعاني ٣٢٨/٢– ٣٢٩.

(٢) دور المعنى في الترجيح النحوي ٦٨ .

(٣) ينظر: المحرر الوجيز ٢٠٧/١–٢٠٨، تفسير القرطبي ٨٦/١ ، البحر٣٨٠/١–٣٨١، الدر المصون١٠٥/٢–١٠٦، تفسير أبي السعود١٨٧/١.

(٤) ينظر : البحر ٣٨٠/١.

(٥) التحرير والتنوير٧١٠/١.

_ وأمته ، أي : وقلنا اتخِذوا ، فقد استجابوا لهذا الخطاب وامتثلوا ، ويؤيد ذلك ما رواه عمر بن الخطاب _ رضي الله عنه _ أنه قال : ((وافقت ربي في ثلاث ، قلت : يا رسول الله ، لو اتخذنا من مقام إبراهيم مصلى فنزلت :﴿ وَاتّخِذُوا مِنْ مَقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلّىً ﴾)) [٢] ، فقد امتثل الرسول _ صلى الله عليه وسلم _ وقد تجلى هذا الامتثال فيما رواه جابر _ رضي الله عنه _ أنه _ عليه السلام _ ((لَمَّا فرغ من طوافه ، عمد إلى مقام إبراهيم ، فصلى خلفه ركعتين ، وقرأ : ﴿ وَاتّخِذُوا مِنْ مَقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلّىً ﴾)) [٣] ، فلما فعل ذلك الرسول _ صلى الله عليه وسلم _ فعلته أمته اقتداءً وامتثالاً .

فالمعنى على الوجهين يبيِّن صورة الاستجابة والامتثال لهذا الأمر ، فإبراهيم وذريته أُمروا فامتثلوا واتخَذوا ، ومحمد وأمته أُمروا فامتثلوا واتخَذوا .

هذا وقد استصوب [٤] الطبري القراءة بلفظ الأمر على قراءة الخبر للأحاديث الواردة عن النبي _ صلى الله عليه وسلم _ في ذلك ، وهو ما جعل مكيَّ ابن أبي طالب يختارها [٥] كذلك .

أما الفرّاء فيقف موقفاً وسطاً ويصوّب القراءتين حيث يقول : ((وقد قرأتِ القراء بمعنى الجزم (والتفسير مع أصحاب الجزم) ، ومن قرأ (واتخَذوا) ففتح الخاء كان خبراً ، يقول : جعلناه مثابة لهم واتخذوه مصلى ، وكلٌ صواب إنْ شاء الله)) [٦] .

ويوافق الفرّاءَ في قبول القراءتين الزجاج عندما قال : ((والقراءة (واتخِذوا)بالكسر على هذا الخبر أبْين ، ولكن ليس يمتنع (واتخَذوا) ؛ فعطف بجملة على جملة)) [٧] .

وهذا الموقف الوسط من الفرّاء والزجاج بيّن أنْ لا تعارض بين القراءتين ، ولا ممانعة بينهما ، بل يمكن الجمع بينهما ، وهو ما سطره ابن خالويه حينما قال : ((فإنْ قيل : فإنَّ الأمر ضد الماضي ،

---

(٦) ينظر : البحر ٣٨١/١.

(١) صحيح البخاري ١٣٥٤/٣ برقم ٤٤٨٣ ، الصحيح المسند من أسباب النزول ٢٠ .

(٢) مسلم : حديث جابر في صحيح مسلم باب حجة النبي – صلى الله عليه وسلم – ١٧٦.١٧٥/٢ .

(٣) ينظر : تفسير الطبري ٧٤٥/١.

(٤) ينظر : الكشف ٢٦٤/١ .

(٥) معاني الفرّاء ٧٧/١.

(٦) معاني الزجاج ٢٠٦/١– ٢٠٧.

وكيف جاء القرآن بالشيء وضده ؟ فقل : إنَّ الله تعالى أمرهم بذلك مبتدئاً ، ففعلوا ما أُمروا به ، فأثنى بذلك عليهم وأخبر به ، وأنزله في العرضة الثانية »(١) ، وعلى هذا « تكون القراءة بالإخبار عن وقوع الفعل قد تنزَّلت بعد قراءة الأمر به وترتبت عليها ، فجمع نسق الآية هذين المعنيين بقراءتيه »(٢) .

ومن هنا فلا مجال لاستصواب قراءة على قراءة، إذ كل قراءة جاءت لتأدية معنى يتكاتف مع المعنى الذي تؤديه القراءة الأخرى ، « والقراءتان تقتضيان أنَّ اتخاذ مقام إبراهيم مصلى كان من عهد إبراهيم ــ عليه السلام ــ ولم يكن الحجر الذي اعتلى عليه إبراهيم في البناء مخصوصاً بصلاة عنده ، ولكنه مشمول للصلاة في المسجد الحرام ، ولَمَّا جاء الإسلام بقي الأمر على ذلك إلى أنْ (نزلت الآية " واتَّخِذوا " في حديث عمر السابق) فيكون تأويل قول عمر " فنزلت " أنه نزل على النبي ــ صلى الله عليه وسلم ــ شرع الصلاة عند حجر المقام بعد أنْ لم يكن مشروعاً لهم ليستقيم الجمع بين معنى القراءتين (واتخَذوا) بصيغة الماضي وبصيغة الأمر »(٣) .

إذن فاستصواب قراءة الأمر على حساب قراءة الخبر يحرم النص من كل الدلالات التي تتكامل بين الأسلوبين ، في الإحاطة بكل جوانب الموقف ، والإعجاز في التعبير عنه ، والإلمام بكافة نواحيه ، فالأسلوبان يحكيان لنا قصة الامتثال على وجه الاستطراد والتفصيل ، فهذا إبراهيم ــ عليه السلام ــ وذريته أُمروا ــ ابتداءً ــ فامتثلوا واتخَذوا من مقام إبراهيم مصلى ، فهم يشملون الصلاة في المسجد الحرام ، « والمعنى واتخذ الناس من مكان إبراهيم الذي وسم به لاهتمامه به وإسكان ذريته عنده قبلة يصلون إليها »(٤) ، ولا زالوا كذلك حتى جاء الإسلام ، والصحابة يقتدون بمن قبلهم ، وهم أصحاب النفوس العالية ، والقلوب الزكية ، فلمَّا كان ما كان من موقف عمر ــ رضي الله عنه ــ واقتراحه على

(٧) الحجة لابن خالويه ٣٧.
(١) التوجيه البلاغي للقراءات القرآنية ٢٣٤.
(٢) التحرير والتنوير ٧١١/١.
(٣) الكشاف ٣١٠/١، وينظر: البحر ٣٨١/١، تفسير النسفي ٨١/١.

النبي _صلى الله عليه وسلم _ اتخاذ مقام إبراهيم مصلى _ وما كان ذلك من عمر إلا لشدة حرصه على تعظيم مقام أبينا إبراهيم وتخصيصه في قوله " لو اتخذنا من مقام إبراهيم مصلى " _ فوافقه القرآن فنزلتْ (واتخِذوا) على صيغة الأمر ، على تشريع صلاة ركعتي سنة الطواف [1] خلف مقام إبراهيم ، فاتخذه الرسول وأصحابه سنة وامتثلوه _كما جاء في روايات الأمر _ ، ومن ثم جاء الثناء العاطر عليهم حينما فعلوا ما أمروا به وامتثلوه في العرضة الثانية _كما جاء في جمع ابن خالويه _ وعندها تلتئم أطراف هذه الحكاية ، في مزاوجة بديعة بين صورتي الأمر والخبر ، أو قل بين صورتي الطلب وسرعة الاستجابة والتنفيذ والامتثال في نظم قرآني فريد .

كما أفادت المزاوجة أنَّ تشريع صلاة ركعتي سُنَّة الطواف خاص بهذه الأمة لزيادة حرصها و حبها في التأسي .

الموضع الثاني :

في قوله تعالى : ﴿ أَوْ كَالَّذِي مَرَّ عَلَى قَرْيَةٍ وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا قَالَ أَنَّى يُحْيِي هَذِهِ اللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا فَأَمَاتَهُ اللَّهُ مِائَةَ عَامٍ ثُمَّ بَعَثَهُ قَالَ كَمْ لَبِثْتَ قَالَ لَبِثْتُ يَوْماً أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ قَالَ بَلْ لَبِثْتَ مِائَةَ عَامٍ فَانْظُرْ إِلَى طَعَامِكَ وَشَرَابِكَ لَمْ يَتَسَنَّهْ وَانْظُرْ إِلَى حِمَارِكَ وَلِنَجْعَلَكَ آيَةً لِلنَّاسِ وَانْظُرْ إِلَى الْعِظَامِ كَيْفَ نُنْشِزُهَا ثُمَّ نَكْسُوهَا لَحْماً فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ قَالَ أَعْلَمُ أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ [البقرة : ٢٥٩] .

حيث قرأ [2] حمزة والكسائي : (اعلمْ) بوصل الألف والجزم على الأمر ، وقرأ الباقون : (أعلم ُ) بقطع الألف والرفع على لفظ الخبر .

فأما قراءة (اعلمْ) [1] فقد جاءت على وجه الأمر من عَلِمَ ، والفاعل ضمير مستتر للمخاطب ، والمقصود به الذي مرَّ على القرية . والآمر له احتمل وجهين :

(١) ينظر : تفسير أبي السعود ١٨٧/١.

(٢) ينظر: السبعة ١٨٩ ، التذكرة ٢٧٤/٢ ، التيسير ٧٠ ،النشر٢/ ١٧٤.

أحدهما : أنَّ الآمر هو الله _ سبحانه وتعالى _ أيْ : قال الله : اعلمْ ، أو المَلَك القائل له عن الله .

الثاني : أنَّ الآمر هو المارّ نفسه ، نزّل نفسه منزلة الأجنبي فخاطبها ، ويسمى هذا بـ ((التجريد)) [٢] ، يعني أنه كأنه جرّد من نفسه مخاطباً يخاطبه .

ومما يؤيد [٣] الوجه الأول وهو أنَّ الآمر هو الله _ سبحانه_ قراءة ابن مسعود : (قيل اعلمْ) ، كما تؤيده [٤] قراءة ابن عباس : (قال اعلمْ) يقرؤها ويقول : أهو خير أم إبراهيم إذ قيل له : ﴿ وَاعْلَمْ أَنّ اللّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾ [البقرة :٢٦٠] . على صيغة الأمر من الله سبحانه وتعالى ، وكذلك فإنَّ هذا الوجه يناسب الأوامر السابقة له في قوله : (انظر إلى طعامك) ، (وانظر إلى حمارك) ، (وانظر إلى العظام) ، فقال له : (اعلمْ) ، وهذه الأسباب هي التي جعلت الإمام الطبري يستصوب قراءة الأمر على قراءة الخبر فيقول : ((وإنما اخترنا قراءة ذلك كذلك وحكمنا له بالصواب دون غيره ؛ لأنَّ ما قبله من الكلام أمر من الله _ تعالى ذكره _ قولاً للذي أحياه الله بعد مماته ، وخطاباً له به ، وذلك قوله : ﴿ فَانْظُرْ إِلَى طَعَامِكَ وَشَرَابِكَ لَمْ يَتَسَنَّهْ وَانْظُرْ إِلَى حِمَارِكَ وَلِنَجْعَلَكَ آيَةً لِلنَّاسِ وَانْظُرْ إِلَى العِظَامِ كَيْفَ نُنْشِزُهَا ﴾ فلما تبين له ذلك جواباً عن مسألة ربه ﴿ أَنَّى يُحْيِي هَذِهِ اللّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا ﴾ ، قال الله له : اعلمْ أنَّ الله الذي فعل هذه الأشياء على ما رأيت ، على غير ذلك من الأشياء قدير كقدرته على ما رأيت وأمثاله ، كما قال _ تعالى ذكره _ لخليله إبراهيم _ صلى الله عليه وسلم _ بعد أنْ أجابه عن مسألته إياه في قوله : ﴿ رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَى ﴾ : ﴿ وَاعْلَمْ أَنّ اللّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾)) [٥] .

---

(٣) ينظر: معاني الأخفش ١٨٣/١، تفسير الطبري ٦٥/٣، معاني الزجاج ٣٤٤/١، معاني النحاس ٢٨٣/١، الحجة لابن خالويه ٤٥، حجة أبي زرعة ١٤٥، الكشف ٣١٢/١، تفسير القرطبي ٢٨٢/٣، البحر ٢٩٦/٢، الدر المصون ٥٧١/٢، روح المعاني ٢٤/٣، التحرير والتنوير ٣٨/٣، القراءات وأثرها في التفسير والأحكام ٤٩٧/٢ .

(١) وهذا مما تفعله العرب، ينزّل أحدهم نفسه منزلة الأجنبي فيخاطبها كما تخاطبه كقول الأعشى : ودّع هريرة إنَّ الركب مرتحل... وقوله: ألم تغتمض عيناك ليلة أرمدا... الحجة للفارسي ٤٧٣/١ .

(٢) ينظر: معاني الأزهري ٨٦، حجة أبي زرعة ١٤٤ .

(٣) ينظر: معاني الفراء ١٧٣/١– ١٧٤، معاني النحاس ٢٨٢/١– ٢٨٣ .

(٤) تفسير الطبري ٦٦/٣ .

وذهب إلى هذه القراءة كذلك الأزهري فقال : ((ونحن نذهب إلى الجزم ؛ لأنَّ من قرأ به أكثر ، على أنه قيل لإبراهيم : (واعلمْ أنَّ الله عزيز حكيم))) [1] .

واستصواب قراءة الجزم على حساب قراءة الخبر إجحاف بالمعنى ؛ لأنَّ كل قراءة جاءت لتأدية هدف يتكامل مع الهدف الذي تؤديه القراءة الأخرى ، وهذا ما سيظهر عندما نتحدث عن قراءة الخبر. بل وإنَّ وجهي قراءة الأمر : إنْ كان الآمر الله ، أو كان الآمر المارّ نفسه ، لا يمكن الترجيح بينهما ؛ لأن كلاً منهما يؤدي معنى يتكاتف مع الآخر ، فالمعنى على الوجه الأول وهو أنَّ الآمر الله _ سبحانه_ فيما يتناسب مع قراءة ابن مسعود : ((الزمْ هذا العلم لِما عاينت وتيقنت)) [2] . فهو ((أمر من الله له بالعلم اليقين ، لِما عاين من الإحياء)) [3] ، والمعنى على الوجه الثاني وهو أن الآمر المار نفسه : ((أنه لَمَّا تبين له ما تبين من الوجه الذي ليس لشبهة عليه منه طريق ، نزّل نفسه منزلة غيره ، فخاطبها كما يخاطب سواها)) [4] ، وكذلك ((أنه لما عاين الإحياء وتيقن أنزل نفسه منزلة غيره ، فخاطبها كما يخاطب غيره ، فقال : اعلم يا نفس هذا العلم اليقين ، الذي لم تكوني تعلمينه معاينة)) [5] . إذن فالمعنيان على الوجهين يتكاتفان في إظهار معنى الإقرار بالعلم اليقين ؛ لذلك لا يحق لنا الترجيح بينهما .

وأما قراءة (أعلمُ) [6] التي جاءت على وجه الخبر بصيغة المضارع إذا عنى نفسه ، والتي يظهر تكاتفها مع قراءة الأمر للوهلة الأولى في إظهار معنى الإقرار ، فقد ((أخبر عما تبينه وتيقنه مما لم يكن تبينه هذا التبيين الذي لا يجوز أنْ يعترض عليه فيه إشكال ، ولا يخطر على باله شبهة أو ارتياب ، فقال : ﴿ أعلمُ أنَّ الله على كل شيء قدير ﴾ أيْ : أعلمُ هذا الضرب من العلم الذي لم أكنْ علمته

(١) معاني القراءات ٨٦ .
(٢) الكشف ٣١٢/١.
(٣) الكشف ٣١٢/١.
(٤) الحجة للفارسي ٤٧٣/١.
(٥) الكشف ٣١٢/١.
(٦) ينظر: معاني الأخفش ١٨٣/١، تفسير الطبري ٦٥/٣، الحجة لابن خالويه ٤٥، حجة أبي زرعة ١٤٥، الكشف٣١٢/١ ، الموضح ٣٤٣/١ ، البحر ٢٩٦/٢، الدر المصون ٥٧١/٢.

من قبلُ » [1] ، وقد « تيقَّن ذلك بالمشاهدة ، فأقرَّ أنه يعلم أنَّ الله على كل شيء قدير ، أي : أعلمُ أنَّ هذا الضرب من العلم الذي لم أكنْ أعلمه معاينة » [2] .

وهذا الإقرار واليقين « ليس لأنه لم يكن يعلم قبل ما شاهد ، ولكنّ تأويله : أني قد علمت (ما كنت أعلمه غيباً) مشاهدةً » [3] ، فالغيب صار شهادة مما جعله يذعن ويقر ، « كقول الرجل عند القدرة تتبين له من أمر الله : أشهد أنْ لا إله إلا الله » [4] ، وذلك « فيه إشعار بأنه إنما قال ما قال بناءً على الاستبعاد العادي واستعظاماً للأمر » [5] ، مما زاده يقيناً وإذعاناً .

إذن كل هذه الدلالات التي تتيحها قراءة الخبر تتكامل مع دلالات قراءة الأمر مما شاهده في نفسه وفي غيره من تعاجيب الآثار إيحاءً بكمال الإقرار والاعتبار ، إضافة إلى أنَّ لفظ الخبر « جاء بالمضارع ليدل على ما في كلام هذا النبي من الدلالة على تجدد علمه بذلك لأنه عَلِمَه من قبل وتجدّد علمه إياه » [6] ، « وإيثار صيغة المضارع للدلالة على أنَّ علمه بذلك مستمر نظراً إلى أنَّ أصله لم يتغير ولم يتبدل ، بل إنما تبدل بالعيان وصفه » [7] ، فهو إقرار بعد إقرار .

وكل ما سبق يَرُدُّ على الذين استصوبوا قراءة الأمر على حساب قراءة الخبر ، ويزيده في الردِّ أنَّ القراءتين تتكاتفان وتتجاوبان فتكون قراءة الخبر (أعلمُ) « جواب الذي مر على قرية عند قول الله له ﴿ فانظر إلى طعامك ... اعلم ﴾ » [8] فلما قيل له : اعلمْ أنَّ الله على كل شيء قدير ... قال : أعلمُ أنَّ الله على كل شيء قدير .

ومما يدل على تكاتف القراءتين أنَّ قراءة الأمر (اعلمْ) تؤول إلى معنى الخبر خاصة في أسلوب التجريد ، هذا ما أوضحه أبو علي الفارسي حينما قال : « ومن قال (اعلمْ) على لفظ الأمر ،

(١) الحجة للفارسي ٤٧٢/١– ٤٧٣، وينظر : تفسير القرطبي ٢٨٢/٣، البحر ٢٩٦/٢ .
(٢) الكشف ٣١٢/١، وينظر : تفسير القرطبي ٢٨٢/٣ .
(٣) معاني الزجاج ٣٤٤/١، وينظر : حجة أبي زرعة ١٤٥ .
(٤) ينظر: معاني الفراء ١٧٤/١، المحرر الوجيز ٣٥١/١، البحر ٢٩٦/٢ .
(٥) تفسير أبي السعود ٢٩٦/١ .
(٦) التحرير والتنوير ٣٨/٣ .
(٧) تفسير أبي السعود ٢٩٦/١، وينظر : روح المعاني ٢٤/٣ .
(٨) التحرير والتنوير ٣٨/٣ .

فالمعنى : يؤول إلى الخبر" [1] . ووافقه مكي بن أبي طالب حينما قال : " من قرأ بوصل الألف أنه جعلها أمراً معناه الخبر " [2] .

إذن فاستصواب قراءة الأمر على حساب قراءة الخبر إجحاف بالنص يحرمه تكامل الصورة وإحاطتها بكافة جوانب الموقف ، فحينما قال (اعلمْ) دار بينه وبين نفسه نقاش قلبي (بمفهوم التجريد) فوصل إلى حكم يقيني باقتناع ، فأقر وقال (أعلمُ) ، وذلك بعد أنْ طابق إقرار اليقين إقرار المشاهدة ، وذلك لا يأتي إلا من خلال المزاوجة بين أسلوبي الأمر والخبر، وهي إحدى خصائص النظم القرآني الكريم .

الموضع الثالث :

قوله تعالى : ﴿ وَقَالُوا لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الأَرْضِ يَنْبُوعاً۞أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِنْ نَخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجِّرَ الأَنْهَارَ خِلالَهَا تَفْجِيراً۞أَوْ تُسْقِطَ السَّمَاءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفاً أَوْ تَأْتِيَ بِاللَّهِ وَالْمَلائِكَةِ قَبِيلاً۞أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِنْ زُخْرُفٍ أَوْ تَرْقَى فِي السَّمَاءِ وَلَنْ نُؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّى تُنَزِّلَ عَلَيْنَا كِتَاباً نَقْرَأُهُ قُلْ سُبْحَانَ رَبِّي هَلْ كُنْتُ إِلا بَشَراً رَسُولاً ﴾ [الإسراء :٩٠ – ٩٣] .

حيث قرأ [3] الجمهور : (قلْ) بصيغة فعل الأمر ، وقرأ ابن كثير وابن عامر : (قال) بألف بعد القاف بصيغة الماضي على لفظ الخبر .

فقد جاءت قراءة الأمر [4] (قلْ) بصيغة فعل الأمر ، على الأمر من الله تعالى لنبيه _ صلى الله عليه وسلم _ بأنْ يقول : ﴿ سُبْحَانَ رَبِي هَلْ كُنْتُ إِلا بَشَراً رَسُولاً ﴾ ، وذلك لِمَا تقدَّم من مقترحات الكفار التعجيزية له _ صلى الله عليه وسلم _ في الآيات : ﴿ وَقَالُوا لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الأَرْضِ يَنْبُوعَاً ۞ أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِنْ نَخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجِّرَ الأَنْهَارَ خِلالَهَا تَفْجِيراً ۞ أَوْ تُسْقِطَ

(١) الحجة للفارسي ٤٧٣/١.

(٢) الكشف ٣١٢/١.

(٣) ينظر: السبعة ٣٨٥ ، التذكرة ٤٠٨/٢ ، التيسير ١١٥، النشر ٢٣٢/٢.

(٤) ينظر: معاني الأزهري ٢٦٢، حجة أبي زرعة ٤١٠– ٤١١، الكشف ٥٢/٢، تفسير القرطبي ٢٨٩/١٠، الدر المصون ٤١٢/٧.

السَّمَاءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفاً أَوْ تَأْتِيَ بِاللّهِ وَالْمَلائِكَةِ قَبِيلاً ۞ أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِنْ زُخْرُفٍ أَوْ تَرْقَى فِي السَّمَاءِ وَلَنْ نُؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّى تُنَزِّلَ عَلَيْنَا كِتَاباً نَقْرَأُهُ ﴾ إلى أنْ قال الله له ﴿ قُلْ سُبْحَانَ رَبِّي هَلْ كُنْتُ إلا بَشَرًا رَسُولاً ﴾ ((تعجباً من شدة شكيمتهم ، وتنزيهاً لساحة السبحات عمَّا لا يليق بها من مثل هذه الاقتراحات الشنيعة ، التي تكاد السموات يتفطرن منها)) (١) ثم ((بالاستفهام الإنكاري ، وصيغة الحصر المقتضية قصر نفسه على البشرية والرسالة قصراً إضافياً ، أي لست رباً متصرفاً أخلق ما يطلب مني ، فكيف آتي بالله والملائكة وكيف أخلق في الأرض ما لم يخلق فيها)) (٢) . هذا ((ولَمَّا تضمن اقتراحهم ما هو مستحيل في حق الله تعالى ، وهو أنْ يأتي بالله والملائكة قبيلاً ، أمره تعالى بالتسبيح والتنزيه عما لا يليق به ، ومن أنْ يقترح عليه ما ذكرتم ، فقال سبحان ربي هل كنت إلا بشراً رسولاً ... على الخبر ، تعَجَّبَ عليه الصلاة والسلام من اقتراحاتهم عليه ونزَّه ربه عما جوَّزوا عليه من الإتيان والانتقال وذلك في حق الله مستحيل)) (٣) فجاءت قراءة الخبر(٤) (قال) ((بصيغة الماضي على أنه حكاية لجواب الرسول _ صلى الله عليه وسلم _)) (٥) تنفيذاً لأمر ربه واستجابة له .

إذن تُبين لنا المزاوجة بين هاتين القراءتين أنَّ قراءة الأمر (قل سبحان ربي) أمر للرسول أنْ يسبح الله وينزهه ، وفيه معنى الإرشاد للرسول _ صلى الله عليه وسلم _ فيما يقول في ذلك الموقف ، وتأييد معنوي له أمام شكيمة أولئك الكفار ، فاستجاب، وجاءت قراءة الخبر حكاية لجواب الرسول إذ قال (سبحان ربي) .

(١) تفسير أبي السعود ٣٥٢/٣ .
(٢) التحرير والتنوير ٢١١/١٥ .
(٣) البحر ٨٠/٦ .
(٤) ينظر: الحجة لابن خالويه ١٢٩، الحجة للفارسي ٧١/٣، الكشف ٥٢/٢، الكشاف ٤٦٦/٢، الموضح ٧٦٨/٢– ٧٦٩، تفسير القرطبي ٢٨٩/١٠، الدر المصون ٤١٢/٧ .
(٥) التحرير والتنوير ٢١١/١٥ .

الموضع الرابع :

في قوله تعالى : ﴿ لاهِيَةً قُلُوبُهُمْ وَأَسَرُّوا النَّجْوَى الَّذِينَ ظَلَمُوا هَلْ هَذَا إِلا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ أَفَتَأْتُونَ السِّحْرَ وَأَنْتُمْ تُبْصِرُونَ ۞ قَالَ رَبِّي يَعْلَمُ الْقَوْلَ فِي السَّمَاءِ وَالأَرْضِ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴾ [الأنبياء : ٤ . ٣] .

حيث قرأ [١] حفص عن عاصم وحمزة والكسائي : (قال ربي) على لفظ الخبر ، وقرأ الباقون : (قلْ ربي) على لفظ الأمر .

فأما قراءة (قلْ ربي) [٢] على لفظ الأمر ، فـ ((الوجه أنه على الأمر للرسول ـ عليه السلام ـ بأنْ يقول لهم : إنَّ ربي يعلم القول ، يعني السرَّ والنجوى ، فقد قال تعالى :﴿ وَأَسَرُّوا النَّجْوَى الَّذِيْنَ ظَلَمُوا هَلْ هَذَا إِلا بَشَرٌ مِثلُكُمْ ﴾ [الأنبياء : ٣] فقيل للرسول : قلْ لهم إنَّ ربي يعلم القول في السماء والأرض ، فهو عالم بسركم وجهركم)) [٣] . وأنه اطلع على خفايا ما قلتموه في نجواكم .

وأما قراءة (قال ربي) [٤] فعلى أنه فعل ماضٍ ((على الخبر عن النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ أنه قال للكفار مجيباً عن قيلهم قبلها : ﴿ هل هذا إلا بشر مثلكم ...﴾ ونزول هذه الآية بعد أنْ تقدم القول من النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ لهم)) [٥] . فهو حكاية من جهته ـ تعالى ـ لما قاله ـ عليه السلام ـ بعد ما أوحى إليه أحوالهم وأقوالهم .

هذا وقد رجَّح بعضهم قراءة الأمر على قراءة الخبر في مناسبة السياق ((فقيل : إنَّ القراءة الأولى ـ يعنى قراءة الأمر ـ أظهر وأولى ؛ لأنهم أسروا هذا القول ، فأظهر الله عليه نبيه وأمره أنْ يقول لهم هذا ، قال أبو جعفر : والقراءتان صحيحتان ، وهما بمنزلة الآيتين ، وفيهما من الفائدة أنه ـ صلى الله عليه وسلم ـ أُمِرَ ، وأنه قال كما أُمِرَ)) [٦] ، وعليه فلا يمكن ترجيح قراءة على قراءة ،

(١) ينظر: السبعة ٤٢٨ ، التذكرة ٤٣٩/٢ ، التيسير ١٢٥، النشر٢٤٣/٢ .

(٢) ينظر : معاني الأزهري ٣٠٥، حجة أبي زرعة ٤٦٥– ٤٦٦، تفسير النسفي ٨١/٢، البحر ٢٩٧/٦، روح المعاني ١٠/٩.

(٣) الموضح ٨٦٠/٢.

(٤) ينظر: تفسير الطبري ٥/١٧، الحجة لابن خالويه ١٥٠، الكشاف ٥٦٣/٢، المحرر الوجيز ٧٤/٤، زاد المسير ٣٤٠/٥، تفسير القرطبي ٢٣٩/١١، الدر المصون ١٣٤/٨، تفسير أبي السعود ٥٠٣/٣، فتح القدير ٤٩٣/٣، التحرير والتنوير ١٥/١٦.

(٥) حجة أبي زرعة ٤٦٥.

(٦) إعراب النحاس ٤٦/٣.

لكي لا نحرم السياق من الوجه الذي تضيفه القراءة الأخرى إلى المعنى ((والقول في ذلك أنهما قراءتان مشهورتان ... وذلك أنَّ الله إذا أمر محمداً بقيل ذلك قاله ، وإذا قاله فعن أمر الله قاله ، فبأيتهما قرأ القارئ فمصيب الصواب في قراءته)) [١] ، فكل قراءة جاءت لتأدية معنى يتكامل مع المعنى الذي تؤديه القراءة الأخرى ((فنقل لنا النسق القرآني بقراءتيه الصورة كاملة : إعلاماً من الله السميع العليم بنجوى هؤلاء الكفار ، وتبليغاً من الرسول إليهم لتبكيتهم وإقامة الحجة عليهم)) [٢] .

الموضع الخامس :

في قوله تعالى : ﴿ قَالَ رَبِّ احْكُمْ بِالْحَقِّ وَرَبُّنَا الرَّحْمَنُ الْمُسْتَعَانُ عَلَى مَا تَصِفُونَ ﴾ [الأنبياء : ١١٢] .

حيث قرأ [٣] حفص عن عاصم : (قال ربِّ احكمْ) بإثبات الألف على الخبر ، وقرأ الباقون بطرحها على الأمر : (قلْ ربِّ احكمْ) .

فقراءة الجمهور [٤] (قلْ) على صيغة الأمر ((تعليم من الله لنبيه أنْ يسأله الحكم بالحق . وجاء في التفسير : أنه كان من مضى من الرسل يقولون : ربنا افتح بيننا وبين قومنا بالحق . و معناه : احكمْ ، فأمر الله نبيه أنْ يقول ﴿ ربِّ احكمْ بالحق ﴾)) [٥] ، على سبيل الاقتداء بمن قبله ، ((وفي أمر الله نبيه _ عليه الصلاة والسلام _ بالالتجاء إليه والاستعانة به بعدما قال الله له : ﴿ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُلْ آذَنْتُكُمْ عَلَى سَوَاءٍ ﴾ [الأنبياء : ١٠٩] رمز إلى أنهم متولون لا محالة ، وأنَّ الله سيحكم فيهم بجزاء جرمهم لأنَّ الحكم بالحق لا يغادرهم ، و أنَّ الله في إعانته ... والمعنى : قل

(١) تفسير الطبري ٥/١٧، وينظر : معاني الفراء ١٩٩/٢ .

(٢) التوجيه البلاغي للقراءات القرآنية ٢٣٤ .

(٣) ينظر: السبعة ٤٣٢.٤٣١ ، التذكرة ٤٤١/٢ ، التيسير ١٢٦، النشر ٢٤٤/٢ .

(٤) ينظر: تفسير الطبري ١٤٣/١٧، معاني الزجاج ٤٠٨/٣، الكشف ١١٥/٢، زاد المسير ٣٩٩/٥- ٤٠٠ ، تفسير القرطبي ٣٠٧/١١، تفسير أبي السعود ٣/ ٥٤٠ ، روح المعاني ١٠٢/٩ .

(٥) معاني الأزهري ٣١٢ .

ذلك بمسمع منهم إظهاراً لتحديه إياهم بأنه فوَّض أمره إلى ربه ليحكم فيهم بالحق الذي هو خضْد شوكتهم وإبطال دينهم . لأنَّ الله يقذف بالحق على الباطل فيدمغه فإذا هو زاهق »(١) .

وجاءت قراءة الخبر(٢) (قال ربِّ احكم) « على حكاية قول الرسول _ صلى الله عليه وسلم _ »(٣) ، وذلك « على الإخبار عن الرسول _ صلى الله عليه وسلم _ بأنه دعا الله تعالى أنْ يحكم بينه وبين قومه بالحق ،كما دعت الرسل التي قبله بمثل ذلك حين قالوا : ﴿ رَبَّنَا افْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِالْحَقِّ ﴾ [الأعراف : ٨٩] »(٤) ، فقد امتثل أمر ربه واقتدى بالرسل قبله ، وقد صَدَق الله وعده ، واستجاب لعبده ، فحكم في هؤلاء المعاندين بالحق يوم بدر .

فعاقبت المزاوجة بين الموقفين ، موقف التوجيه والمساندة والدعم ، ثم موقف الاقتداء والحكاية والتنفيذ ، وكأنما هما وعد ووفاء .

الموضع السادس :

في قوله تعالى : ﴿ قَالَ كَمْ لَبِثْتُمْ فِي الأَرْضِ عَدَدَ سِنِينَ ۝ قَالُوا لَبِثْنَا يَوْماً أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ فاسْأَلِ الْعَادِّينَ ۝ قَالَ إِنْ لَبِثْتُمْ إِلا قَلِيلاً لَوْ أَنَّكُمْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ [المؤمنون :١١٢ – ١١٤] .

حيث قرأ (٥) الجمهور : (قال كمْ لبثتم) و (قال إنْ لبثتم) بصيغة الماضي على لفظ الخبر ، وقرأ حمزة والكسائي : (قلْ كمْ لبثتم) و (قلْ إنْ لبثتم) بغير ألف فيهما بصيغة الأمر ، وروى البزي عن ابن كثير (قلْ كمْ لبثتم) على الأمر و (قال إنْ لبثتم) على الخبر .

فأما قراءة الخبر (٦) (قال كمْ لبثتم) و (قال إنْ لبثتم) على صيغة الماضي ، فالقائل هو الله تعالى أو الملَك المأمور بسؤالهم . والمعنى : « إخبار عن الله بوقفهم بالسؤال عن المدة ثم يعلمهم

---

(١) التحرير والتنوير ١٧٥/١٧ .
(٢) ينظر: الحجة للفارسي ١٦٣/٣، حجة أبي زرعة ٤٧١ ، الكشف ١١٥/٢، تفسير أبي السعود ٥٤٠/٣، روح المعاني ١٠٢/٩، التحرير والتنوير ١٧٦/١٧ .
(٣) الكشاف ٥٨٧/٢ .
(٤) الموضح ٨٧٠/٢ .
(٥) ينظر: السبعة ٤٤٩ ، التذكرة ٤٥٥/٢، ٤٥٦ ، التيسير ١٣٠ ، النشر ٢٤٧/٢ .
(٦) ينظر: الكشاف ٤٤/٣، تفسير القرطبي ١٤٠/١٢، البحر ٤٢٤/٦، تفسير أبي السعود ٦٦/٤، فتح القدير ٦٢١/٣، روح المعاني ٢٦٨/٩ .

آخراً بلبثهم قليلاً » [1] ، واللبث « أي ما لبثتم في الأرض[2] إلا قليلاً ، وذلك أنَّ مكثهم في القبور ـ وإنْ طال ـ كان متناهياً . وقيل : هو قليل بالنسبة إلى مكثهم في النار ؛ لأنه لا نهاية له » [3] ، وجاءت صيغة الإخبار عما سيحصل يوم القيامة بلفظ الماضي « لأن أخبار القيامة وإن كانت لم تأتِ بعد ، فهي بمنزلة ما قد مضى ، إذ ليس فيما مضى شك في كونه ووجوبه ، فجعلت أخبار القيامة في التحقيق كما قد مضى » [4] .

وأما قراءة الأمر [5] (قلْ كمْ لبثتم) فتحتمل ثلاثة [6] معانٍ :

أحدها : قولوا كم لبثتم ، فأخرج الكلام مخرج الأمر للواحد والمراد الجماعة ؛ إذ كان المعنى مفهوماً .

الثاني : أنْ يكون أمراً للملَك ليسألهم يوم البعث عن قدر مكثهم في الدنيا .

الثالث : قل أيها الكافر كم لبثتم ، وهو خطاب لكل واحد منهم .

ويرجع الفرق في المخاطَب في هذه الاحتمالات الثلاثة إلى وقت السؤال ، وفي وقته قولان [7] :

أحدهما : أنه يسألهم يوم البعث ، فيكون المخاطَب الملَك .

والثاني : بعد حصولهم في النار ، فيكون المخاطَب أهلَ النار .

ويرجح الطاهر ابن عاشور القول الأول على القول الثاني فيقول : « فيتعيَّن أنَّ هذا القول عند النفخ في الصور وحياة الأموات من الأرض . فالأظهر أنْ يكون هو جواب (إذا) في قوله فيما سبق ﴿فإذا نفخ في الصور ... ﴾ و ليس من المناسب أنْ يكون هذا القول حاصلاً بعد دخول الكافرين

---

(١) المحرر الوجيز ١٥٨/٤.

(٢) والمراد بالأرض قولان: أحدهما: أنها القبور، والثاني: الدنيا (ينظر : زاد المسير ٤٩٥/٥) . هذا وقد صوب ابن عطية القول الأول إذ قال: ((وقال جمهور المتأولين معناه في جوف التراب أمواتاً . وهذا هو الأصوب من حيث أنكروا البعث، وكان قولهم إنهم لا يقومون من التراب قيل لهم لما قاموا (كم لبثتم) وقوله آخراً (وأنكم إلينا لا ترجعون) يقتضي ما قلناه)) (المحرر الوجيز ١٥٨/٤– ١٥٩).

(٣) تفسير القرطبي ١٤٠/١٢.

(٤) حجة أبي زرعة ٤٩٣ .

(٥) ينظر : معاني الأزهري ٣٢٩،٣٢٨ ، حجة أبي زرعة ٤٩٣ ، زاد المسير ٤٩٥،٤٩٤/٥ ، البحر ٤٢٤/٦ ، فتح القدير ٦٢١/٣ .

(٦) ينظر : تفسير القرطبي ١٤٠/١٢ .

(٧) ينظر : زاد المسير ٤٩٤/٥ .

النار ، والمفسرون الذين حملوه على ذلك تكلفوا ما لا يناسب انتظام المعاني ... (وإلى أنْ قال :) (قل) بصيغة الأمر . والخطاب للمَلَك الموكل بإحياء الأموات » (١) ، و هو ما قرره الأزهري في قوله : « (قل) أمر لمن يأمره الله بسؤالهم إذا بعثوا » (٢) ، وعلى هذا يكون الخطاب في (قل) أمراً للمَلك ليسألهم يوم البعث عن قدر مكثهم في الدنيا .

ومن هنا فقراءة الخبر (قال) فالقائل هو الله أو الملَك القائل عن الله ، وقراءة الأمر (قل) للملك الموكل بالسؤال ، وفحوى القول في القراءتين هو السؤال الموجه للكافرين عن مدة لبثهم في الدنيا .

إذن فالقراءتان تتزاوجان في إظهار صيغة السؤال و الجواب بصورتيهما ، إما بصورة مباشرة عن الله _ سبحانه وتعالى _على أنَّ (قال) الأولى سؤال مباشر من الله تعالى ، و (قال) الثانية جواب منه سبحانه ، وإما بصورة غير مباشرة وذلك عن طريق الملَك المأمور بذلك من الله _ سبحانه_ بقوله له (قل) الأولى تلقيناً للسؤال ، و (قل) الثانية تلقيناً للجواب في قراءة الأمر ، فـ (قال) ذلك عن الله _ تعالى _ في قراءة الخبر ، على أنْ تكون (قال) الأولى سؤالاً من الملك عن الله ، و (قال) الثانية جواباً من الملك عن الله .

هذا وقد جمعت رواية البزي عن ابن كثير بين الصورتين ، فجاءت صيغة الأمر (قل) في الآية الأولى للملك الموكل من الله ليسألهم ، ثم جاءت صيغة الخبر (قال) في الآية الثانية للإخبار عن الله ، إذ كان الجواب منه سبحانه وتعالى « ومعنى رواية البزي التوقيف (٣) ، ثم الإخبار » (٤) .

الموضع السابع :

في قوله تعالى : ﴿ فَقَالُوا رَبَّنَا بَاعِدْ بَيْنَ أَسْفَارِنَا وَظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ فَجَعَلْنَاهُمْ أَحَادِيثَ وَ مَزَّقْنَاهُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴾ [سبأ : ١٩] .

(١) التحرير والتنوير ١٣١.١٣٠/١٨ ، وينظر : روح المعاني ٢٦٨/٩ .
(٢) معاني القراءات ٣٢٩.٣٢٨ .
(٣) للسؤال من قوله تعالى (وقفوهم إنهم مسؤولون) .
(٤) المحرر الوجيز ١٥٨/٤ .

حيث قرأ [١] نافع وعاصم وحمزة والكسائي : (ربَّنا باعِدْ) بكسر العين ، وقرأ ابن كثير وأبو عمرو : (ربَّنا بعِّدْ) مشددة العين ، وقرأ يعقوب : (ربُّنا باعَدَ) بالرفع وفتح العين والدال .

فأما قراءتا (ربَّنا باعِد) و (ربَّنا بعِّد) [٢] فقد جاءتا على لفظ الأمر الذي غرضه الدعاء ، وفيهما (ربَّنا) « نصب على أنه نداء مضاف ، وهو منصوب على أنه مفعول به ؛ لأن معناه : ناديت ودعوت ، و (باعِد) و (بعِّد) واحد في المعنى ، كما تقول : قارِبْ وقرِّبْ » [٣] ، ذلك ما حكاه سيبويه [٤] : أنَّ (فاعِل وفعِّل) يجيئان لمعنى ، كقولهم : ضاعِف وضعِّف « والمعنى في الوجهين على أنهم كرهوا ما كانوا فيه من السعة والخِصب وكفاية الكدح في المعيشة ، وهؤلاء ممن دخل في جملة قوله سبحانه :﴿ وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَرْيَةٍ بَطِرَتْ مَعِيشَتَهَا ﴾ [القصص : ٥٨] ، و البطر فيما قال بعض الناس : كراهة الشيء من غير أنْ يستحق أنْ يُكره ، وسؤالهم ما سألوا قريب من سؤال قوم موسى : ﴿ فَادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُخْرِجْ لَنَا مِمَّا تُنْبِتُ الأَرْضُ ﴾ [البقرة :٦١]» [٥] ، فقد « بطروا النعمة ، وسئموا أطيب العيش ، وملُّوا العافية ، فطلبوا الكد والتعب ، كما طلب بنو إسرائيل الثوم والبصل مكان المن والسلوى ، وقالوا لو كان جنى جناننا أبعد لكان أجدر أنْ نشتهيه ، وسألوا أنْ يجعل الله _ تعالى _ بينهم وبين الشام مفاوز وقفاراً ليركبوا فيها الرواحل ، ويتزودوا الأزواد ، ويتطاولوا فيها على الفقراء » [٦] ، ومن هنا فإنَّ قراءتي الأمر تدلان على معنى الأشَر والبطر وكفران النعمة .

وأما قراءة (ربُّنا باعَدَ) فقد جاءت على لفظ الخبر [٧] ، وفيها (ربُّنا) رفع بالابتداء ، و (باعَدَ) فعل ماضٍ ، والجملة في محل رفع خبر الابتداء . وهذه القراءة (ربُّنا باعَدَ) تدل على الشكوى ،

---

(١) ينظر: السبعة ٥٢٩ ، التذكرة ٥٠٧،٥٠٦/٢ ، التيسير ١٤٧، النشر ٢٦٢/٢– ٢٦٣ .

(٢) ينظر: الحجة لابن خالويه ١٨٨، حجة أبي زرعة ٥٨٨، معاني الأزهري ٣٩٣، الكشاف ٢٨٦/٣، المحرر الوجيز ٤١٦/٤، زاد المسير ٤٤٨/٦، البحر ٢٧٢/٧ .

(٣) إعراب النحاس ٢٣٤/٣ .

(٤) ينظر: الكتاب ٦٨/٤– ٧٠ .

(٥) الحجة للفارسي ٢٩٦/٣ .

(٦) تفسير أبي السعود ٣٤٧/٤ .

(٧) ينظر: إعراب النحاس٢٣٤/٣، التحرير والتنوير ١٧٧/٢٢ .

وقد فسَّرها ابن عباس [١] فقال : شَكَوْا أنَّ ربهم باعَدَ بين أسفارهم . ودلالة هذا الأسلوب الخبري على الشكوى من وجهين :

الوجه الأول : أنَّ مبعث هذه الشكوى هو الأشَر والبطر ، وذلك أنَّ ((معناها الأشر بأنهم استبعدوا القريب ، ورأوا أنَّ ذلك غير مقنع لهم ، حتى كأنهم أرادوها متصلة بالدور ، وفي هذا تعسُّف وتسحُّب على أقدار الله _ تعالى _ وإرادته ، وقلة شكر على نعمته ، بل هي مقابلة الشكر بالتشكي والاستضرار)) [٢] ، ودلالة شكواهم على الأشَر أنهم ((طلبوا أقرب من ذلك القرب الذي كان بينهم وبين الشام بالقرى المتواصلة بطراً وأشَراً وكفراً بالنعمة)) [٣] ، إذن كان ((استبعاد مسايرهم _ على قصرها ودنوها_ لفرط تنعُّمهم وترفُّههم ، كأنهم كانوا يتشاجون على ربهم ويتحازنون عليه)) [٤] والشكوى _على هذا الوجه_ تجعل الأسلوب الخبري يتفق مع قراءتي الأمر في إظهار معنى الأشر والبطر ، ومن هنا فالقراءتان تتعاضدان وتتكاتفان في إظهار هذا المعنى .

الوجه الثاني : أنَّ مبعث هذه الشكوى من جريرة بطرهم وما حل بهم من بعدٍ بين أسفارهم حينما طلبوا ذلك البعد في قراءتي الأمر ، وذلك ((أنَّ أهل سبأ سألوا الله أنْ يفرقهم في البلاد فقالوا : (ربنا باعِدْ) ، فلما فرَّقهم الله في البلاد أيدي سبأ ، وباعَد بين أسفارهم ، قالوا : ﴿ ربُّنا باعَد بين أسفارنا ﴾ ، وأجابنا إلى ما سألنا ، فحكى الله عنهم بالمعنيين في غرضين)) [٥] . ومن هنا فالشكوى _على هذا الوجه_ في قراءة الخبر ترتبت على عاقبة البطر في قراءة الأمر ، فجاءت قراءة الخبر عقب قراءة الأمر وانبنت عليها لتصوير المواقف التي تم بها الحدث .

وعلى هذا فوجها الشكوى جائزان كما قال أهل التفسير أنهم ((بطروا النعمة ، وأخبر الله _ جل وعز _ أنه عاقبهم على ذلك ، إلا أنه يجوز أنْ يكونوا قالوا هذا بعدما باعَد الله _ جلَّ وعز _ بين أسفارهم ، أو يكونوا لبطرهم استبعدوا القريب)) [٦] ، فحينما تدل الشكوى على البطر فإنها تتكاتف

(١) ينظر : إعراب النحاس٣/٢٣٤، تفسير القرطبي ١٤/٢٥٧.
(٢) المحرر الوجيز ٤/٤١٦.
(٣) فتح القدير ٤/٤٠٢.
(٤) الكشاف ٣/٢٨٦.
(٥) تأويل مشكل القرآن ٤١.
(٦) معاني النحاس ٥/٤١٢.

مع قراءة الأمر في إظهار هذا المعنى ، وحينما تكون الشكوى مما حل بهم ، فهي مترتبة على بطرهم وطلبهم في قراءة الأمر ، فالمزاوجة بين أسلوب الأمر وأسلوب الخبر جمعت بين الموقفين في آية واحدة ((إذ قامت كل قراءة بتغاير بسيط في حركة البناء أو الإعراب مقام آية كاملة في الإعراب عن مضمونها)) (١) .

وبهذا تكون المزاوجة قد وظَّفت كل قراءة _ بكل وجوهها_ لتتكامل مع القراءة الأخرى في بناء جميع جوانب السياق فـ ((هذه القراءات إذا اختلفت معانيها لم يجز أنْ يقال : إحداها أجود من الأخرى ، لا يقال ذلك في الأخبار إذا اختلفت معانيها ، ولكن خبَّر عنهم أنهم دعَوا أنْ يُبَعِّد بين أسفارهم بطراً وأشراً ، وخبّر أنهم لما فعل بهم ذلك خبّروا به وشكوا)) (٢) .

ولكأن المزاوجة كشفت لنا الستار عنهم وهم يتبطرون من خلال قراءة الأمر (باعِدْ) ، ثم كشفته عنهم مرة أخرى وقد تبدلت أحوالهم من خلال قراءة الخبر (باعَدَ) وهم يتشاجون .

وفي ذلك ما فيه من عبرة لمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد .

الموضع الثامن :

في قوله تعالى : ﴿ بَلْ قَالُوا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَى أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَى آثَارِهِمْ مُهْتَدُونَ ۞ وَكَذَلِكَ مَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ فِي قَرْيَةٍ مِنْ نَذِيرٍ إِلا قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَى أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَى آثَارِهِمْ مُقْتَدُونَ ۞قَالَ أَوَلَوْ جِئْتُكُمْ بِأَهْدَى مِمَّا وَجَدْتُمْ عَلَيْهِ آبَاءَكُمْ قَالُوا إِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ ۞ فَانْتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ ﴾ [الزخرف : ٢٢ – ٢٥] .

حيث قرأ (٣) ابن عامر وحفص عن عاصم : (قال أَوَلَو جئتكم) بألف على الخبر ، وقرأ الباقون وأبو بكر عن عاصم : (قل أَوَلَو جئتكم) بغير ألف على الأمر .

(١) التوجيه البلاغي للقراءات القرآنية ٢٣٦.

(٢) إعراب النحاس ٣/٢٣٤.

(٣) ينظر: السبعة ٥٨٥ ، التذكرة ٢/٥٤٥ ، التيسير ١٥٩ ، النشر ٢/٢٧٦.

فأما قراءة الخبر [١] (قال) ، فهو فعل ماضٍ على وجه الإخبار ، وفاعله : النذير المذكور في الآية السابقة ، والمعنى : وكذلك ما أرسلنا من قبلك في قرية من نذير إلا قال مترفوها إنا وجدنا آباءنا على أمة ، فقال لهم النذير : أولو جئتكم بأهدى مما وجدتم عليه آباءكم ، ثم أخبر الله بجوابهم للنذير ، فقال عنهم : قالوا إنا بما أرسلتم به كافرون .

وأما قراءة الأمر [٢] (قل) فعلى صيغة فعل الأمر ، والآمر هو الله ، واختُلِفَ في المأمور على وجهين :

أحدهما : أنَّ المأمور هو النذير ، وهو حكاية ما أوحي إلى النذير ، كأنه : أوحينا إليه فقلنا له : قل لهم : أولو جئتكم بأهدى من ذلك ، وقال بهذا الوجه كل من : أبي علي الفارسي [٣] ، ومكي ابن أبي طالب [٤] ، وابن عطية [٥] ، وابن أبي مريم [٦] ، وأبي السعود العمادي [٧] . وعلى هذا الوجه يكون قول النذير : ﴿ أَوَلَو جِئْتُكُم بِأَهْدَى مِمَّا وَجَدْتُمْ عَلَيْهِ آبَاءَكُمْ ﴾ جواباً عن قول قومه المترفين ﴿ إنَّا وجدنا آباءنا على أمةٍ وإنَّا على آثارهم مقتدون ﴾ ، ومما يؤيد هذا الوجه أنَّ تتمة الآيات تدل على أنَّ (قل) إنما هي حكاية لما أمر به النذير ، وتكون هذه الآيات من قوله تعالى ﴿ وكذلك ... فانظر كيف كان عاقبة المكذبين ﴾ على سبيل التسلية للرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ حينما قال له قومه المشركون : ﴿ إنَّا وجدنا آباءنا على أمةٍ وإنَّا على آثارهم مهتدون ﴾ ، فهي ((تتضمن تسلية للرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ على ما لقيه من قومه بأنَّ الرسل من قبله لقوا مثل ما لقي)) [٨] .

(١) ينظر: حجة أبي زرعة ٦٤٨، زاد المسير ٣٠٨/٧، تفسير أبي السعود ٥٤٠/٥، فتح القدير ٦٨٩/٤ .
(٢) ينظر : الحجة لابن خالويه ٢٠٩، معاني الأزهري ٤٣٨، معاني النحاس ٣٤٧/٦– ٣٤٨ .
(٣) ينظر : الحجة للفارسي ٣٧٥/٣ .
(٤) ينظر : الكشف ٢٥٨/٢ .
(٥) ينظر : المحرر الوجيز ٥/ ٥١ .
(٦) ينظر : الموضح ١١٤٩/٣ .
(٧) ينظر : تفسير أبي السعود ٥/ ٥٤٠ .
(٨) التحرير والتنوير ١٨٨/٢٥ .

الثاني : أنَّ المأمور هو الرسول محمد _ صلى الله عليه وسلم _ إذْ أمره الله _ سبحانه وتعالى _ أنْ يردَّ على قومه المشركين فقال له :﴿ قل أولو جئتكم بأهدى مما وجدتم عليه آباءكم ﴾ ، أي : أتتبعون آباءكم ولو جئتكم بدين أهدى من دين آبائكم . وقال بهذا الوجه كل من : الطبري [١] ، والزجاج [٢] ، والنحاس [٣] ، وأبي زرعة [٤] ، وابن الجوزي [٥] ، وأبي حيان [٦] ، وابن كثير [٧] ، والشوكاني [٨] ، والطاهر بن عاشور [٩] . وعلى هذا الوجه يكون قول الرسول : ﴿ أولو جئتكم بأهدى... ﴾ جواباً عن قول قومه المشركين ﴿ إنَّا وجدنا آباءنا على أمةٍ وإنَّا على آثارهم مهتدون ﴾ ثم رجع إلى الأمم الخالية فقال : ﴿ فانتقمنا منهم ... ﴾ .

وهنا يأتي دور المزاوجة حين تَسَعَ هذه الاحتمالات بل وتوظِّفها ؛ وذلك عندما تشمل هذه الأوجه وتعطي كل وجه دوره الذي يقوم به في بناء نظم السياق .

فحينما ننظر _ بادئ ذي بدء _ إلى قوله تعالى ﴿ أَوَلَوْ جئتكم بأهدى مما وجَدْتُمْ عليه آباءكم ﴾ نجد أنه قد ((حصل من القراءتين أنَّ جميع الرسل أجابوا أقوامهم بهذا الجواب ، وعلى كل القراءتين جاء فعل (قل) أو (قال) مفصولاً غير معطوف لأنه واقع في مجال المحاورة)) [١٠] .

الفصل الثاني / المبحث الأول

وعليه فترسم لنا المزاوجة بين قراءة الخبر وقراءة الأمر _ بوجهيها _ صورة المحاورة بين النذير وقومه ، فحينما قال له قومه المترفون ﴿ إنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَى أُمَّةٍ ... ﴾ أمر الله النذير أنْ يقول لهم :

(١) ينظر : تفسير الطبري ٧٩/٢٥ .
(٢) ينظر : معاني الزجاج ٤٠٨/٤ .
(٣) ينظر : إعراب النحاس ٧٠/٤ .
(٤) ينظر : حجة أبي زرعة : ٦٤٩ .
(٥) ينظر : زاد المسير ٣٠٩/٧ .
(٦) ينظر : البحر ٨ / ١١ .
(٧) ينظر : تفسير ابن كثير ١٦١/٤ .
(٨) ينظر : فتح القدير ٦٨٩/٤ .
(٩) ينظر : التحرير والتنوير ١٨٩/٢٥ .
(١٠) التحرير والتنوير ١٨٩/٢٥ .

﴿أَوَلَوْ جِئْتُكُمْ بِأَهْدَى مِمَّا وَجَدتُمْ عَلَيْهِ آبَاءَكُمْ ... ﴾ فقاله ، ثم أجابه قومه بعد ذلك بقولهم ﴿ إِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُم بِهِ كَافِرُون ﴾ ثُمَّ حلَّ بهم العقاب . ﴿ فَانتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَانظُرْ كَيْفَ كَانَتْ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِين ﴾.

وحينما جاءت هذه المحاورة بين النذير وقومه وقد حَكَت لنا طلب الجواب من النذير في قراءة (قل) ـ على وجه الأمر الأول ـ ثم حكت قراءة (قال) ذلك الجواب ، وجاء كل ذلك على سبيل التسلية للرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ إذْ ((بيَّن ـجل وعلا ـ أنَّ مقالة هؤلاء قد سبقهم إليها أشباههم ونظراؤهم من الأمم السالفة المكذبة ، تشابهت قلوبهم)) (١)، وفي أثناء هذه المحاورة تأتي قراءة الأمر (قل) ـ على الوجه الثاني ـ توجيهاً للرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ لأنْ يقول لقومه المشركين قولاً مشابهاً لقول النذير لقومه المترفين ، وذلك مناسبٌ لمشابهة قول المشركين لقول سابقيهم المترفين ، وفي هذا تضمين لتهديدهم أنْ يصيبهم مثل ما أصاب سابقيهم في آخر المحاورة حينما أجابوا نذيرهم بقولهم : ﴿ إنا بما أرسلتم به كافرون ﴾ فـ ((انتقمنا منهم عقب تصريحهم بتكذيب الرسل . وهذا تهديد بالانتقام من الذين شابهوهم في مقالهم ، وهم كفار قريش)) (٢) .

وبهذا تكون قراءة الخبر (قال) قد حكت قول النذير حينما أمر بقراءة الأمر (قل) على الوجه الأول من وجهي الأمر ، وفي أثناء المحاورة جاءت قراءة الأمر (قل) على الوجه الثاني توجيهاً للرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ أنْ يقول لقومه المشركين ما يشعرهم بخطورة قولهم في أن يصيبهم مثل ما أصاب من قبلهم .

(١) تفسير ابن كثير ٤/١٦٠ .

(٢) التحرير والتنوير ٢٥/١٩٠،١٩١ .

الموضع التاسع :

في قوله تعالى : ﴿ وَأَنَّهُ لَمَّا قَامَ عَبْدُ اللهِ يَدْعُوهُ كَادُوا يَكُونُونَ عَلَيْهِ لِبَداً ۞ قُلْ إِنَّمَا أَدْعُو رَبِّي وَلا أُشْرِكُ بِهِ أَحَداً ﴾ [الجن :١٩ . ٢٠] .

حيث قرأ [١] عاصم وحمزة : (قل إنما أدعو) بدون ألف على صيغة الأمر ، وقرأ الباقون : (قال إنما أدعو) بألف على صيغة الخبر .

فأما قراءة الأمر [٢] (قل إنما أدعو) فهو أمر من الله لرسوله _صلى الله عليه وسلم _ ، أي : قل يا محمد لهؤلاء المزدحمين عليك ، إنما أدعو ربي ولا أشرك به أحداً . قال مقاتل [٣] : إنَّ كفار مكة قالوا للنبي _ صلى الله عليه وسلم _ : إنك جئت بأمر عظيم لم يُسْمَع مثله فارجع عنه ، فنزلت هذه الآية . والأمر في (قل) يتناسب مع الأوامر بعده في قوله تعالى : ﴿ قُلْ إِنِّي لا أَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلا رَشَداً ۞ قُلْ إِنِّي لَنْ يُجِيرَنِي مِنَ اللّهِ أَحَدٌ وَلَنْ أَجِدَ مِنْ دُونِهِ مُلْتَحَداً ﴾ [الجن : ٢١ - ٢٢] .

وأما قراءة الخبر [٤] (قال إنما أدعو) بلفظ الفعل الماضي ، فحملاً على ما قبله من الغَيبة في قوله _تعالى _ : ﴿ وَأَنَّهُ لَمَّا قَامَ عَبْدُ اللّهِ ﴾ ، وهو على الإخبار من الله عن الرسول أنه قال إنما أدعو ربي ، ((فيكون معنى الكلام : وأنه لما قام عبد الله يدعوه تلبَّدوا عليه ، قال لهم : إنما أدعو ربي ، ولا أشرك به أحداً)) [٥] .

والمزاوجة بين هاتين القراءتين تبين لنا أنَّ قراءة الأمر (قل) كانت أولاً عندما نزلت الآية ، فـ ((الأمر أولاً ، فلما فعل أخبر بذلك عنه)) [٦] . والمعنى ((أيْ : قل لهم ، فقال : إنما أدعو ربي)) [٧] .

---

(١) ينظر: السبعة ٦٥٧ ، التذكرة ٦٠١/٢ ، التيسير ١٧٥ ، النشر ٢٩٣/٢.

(٢) ينظر: تفسير الطبري ١٤٨/٢٩، معاني الأزهري ٥١٠، تفسير القرطبي ٢٥/١٩، البحر ٣٥٣/٨، الدر المصون ٥٠٠/١٠.

(٣) ينظر : زاد المسير ٣٨٤/٨.

(٤) ينظر: الحجة للفارسي ٧٠/٤، حجة أبي زرعة ٧٢٩- ٧٣٠، الكشف ٣٤٢/٢، الموضح ١٣٠٦/٣، التحرير والتنوير ٢٤٢- ٢٤٣.

(٥) تفسير الطبري ١٤٨/٢٩.

(٦) الحجة لابن خالويه ٢٣٢.

(٧) إعراب النحاس ٣٦/٥.

وبهذا فقراءة الخبر تحكي قول الرسول لِمَا أُمر به في قراءة الأمر ، فهي ((إخبار من الله عن الرسول أنه قال ذلك)) (١) .

الموضع العاشر :

في قوله تعالى : ﴿ انْطَلِقُوا إِلَى مَا كُنْتُمْ بِهِ تُكَذِّبُونَ ۞ انْطَلِقُوا إِلَى ظِلٍّ ذِي ثَلاثِ شُعَبٍ ﴾ [المرسلات : ٢٩ – ٣٠] .

حيث قرأ (٢) سائر القراء : (انطلِقوا) الثانية بكسر اللام على الأمر كالأولى ، وقرأها يعقوب وحده : (انطلَقوا) بفتح اللام على أنه فعل ماضٍ ، ولم يختلفوا في الأول أنه على الأمر ، إنما الاختلاف في الثاني .

فأما قراءة (انطلِقوا) على لفظ الأمر (٣) ، فقد جاءت تكراراً للأمر الأول على التأكيد ، أو بياناً للمنطلَق إليه .

وأما قراءة (انطلَقوا) (٤) فقد جاءت ((على لفظ الماضي إخباراً بعد الأمر عن عملهم بموجبه ؛ لأنهم مضطرون إليه لا يستطيعون امتناعاً منه)) (٥) ، أيْ : ((كأنهم لَمَّا أُمِرُوا امتثلوا فانطلقوا ، إذ لا يمكنهم التأخير إذ صاروا مضطرين إلى الانطلاق)) (٦)، فكأنه قيل لهم انطلِقوا إلى النار فانطلقوا ، وقيل هو ((استئناف بياني كأنه قيل فما كان بعد الأمر ؟ فقيل :انطَلَقوا إلى ظل ذي ثلاث شعب)) (٧)، وفي كلا المعنيين إخبار عن انطلاقهم بعد الأمر به ، ومن هنا كانت قراءة الخبر تحقيقاً لقراءة الأمر ، بل شيئاً مترتباً عليه ، ذلك ما حققته المزاوجة بين هاتين القراءتين .

(١) معاني الأزهري ٥١٠.
(٢) ينظر: التذكرة ٦١٠/٢ ، النشر: ٢٩٧.
(٣) ينظر: المحرر الوجيز ٤١٩/٥، البحر ٤٠٦/٨، الدر المصون٦٣٨/١٠، التوجيه البلاغي للقراءات القرآنية :٢٣٢.
(٤) ينظر: إعراب النحاس ٧٥/٥، الموضح ١٣٢٩/٣، تفسير أبي السعود ٨٠٧/٥– ٨٠٨.
(٥) الكشاف ٢٠٤/٤.
(٦) البحر ٤٠٦/٨.
(٧) روح المعاني ١٩٤/١٥.

المبحث الثاني

المزاوجة بين الخبر وصيغة المضارع المقترن بلام الأمر

لإظهار صور السياق المتقابلة

بين وجهي الطلب والتعليل

عند المزاوجة بين قراءة الأمر في حال المضارع المقترن بلام الأمر وقراءة الخبر ، فإن لفظ الخبر الذي يدور مع المضارع المقترن بلام الأمر هو المضارع المقترن بلام كي ويغلب أنْ نرى _ في هذه الحالة _ أنَّ قراءة الأمر وقراءة الخبر وجهان لقضية واحدة ، فقراءة الأمر تظهر وجهاً للقضية ، وقراءة الخبر تظهر الوجه الآخر لها ، ذلك ما يتولد عن تغاير حركة اللام المقترنة بالمضارع ، فيمكن لهذه اللام أنْ تكون لام الطلب ، كما يمكن لها أنْ تكون لام التعليل .

وهذا ما سيظهر من خلال المواضع الآتية :

الموضع الأول :

في قوله تعالى : ﴿ وَقَفَّيْنَا عَلَى آثَارِهِمْ بِعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ مُصَدِّقاً لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ التَّوْرَاةِ وَآتَيْنَاهُ الإِنْجِيلَ فِيهِ هُدىً وَنُورٌ وَمُصَدِّقاً لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ التَّوْرَاةِ وَهُدىً وَمَوْعِظَةً لِلْمُتَّقِينَ ۞ وَلْيَحْكُمْ أَهْلُ الإِنْجِيلِ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فِيهِ وَمَنْ لَمْ يَحْكُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ﴾ [المائدة : ٤٦ ـ ٤٧] .

حيث قرأ [1] حمزة : (ولِيحكمَ) بكسر اللام وفتح الميم على لفظ الخبر، وقرأ الباقون : (ولْيحكمْ) بجزم اللام والميم على لفظ الأمر .

فأما حمزة فقد جعل اللام لام (كي) [2] ، ونصب الفعل بها ، وجعلها متعلقة بقوله تعالى : ﴿ وآتيناهُ الإنجيلَ ﴾ [المائدة : ٤٦] ، وعلى هذا فلا يوقف على ما قبل (وليحكمَ) إنما يوصل بها [3] ، فصار بمنزلة قوله تعالى : ﴿ إِنَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ بِمَا أَرَاكَ اللّهُ ﴾ [النساء : ١٠٥] ، فكأنَّ المعنى : آتيناه الإنجيل ليحكم أهله بما أنزل الله فيه .

وأما الباقون فقد أسكنوا اللام وجزموا الفعل بعدها [4] ، على أنها لام الأمر ، وإنْ كان أصلها الكسر ، ولكنها خُفِّفت بالسكون [5] ، فهو أمر مستأنف يُبتَدأ به بأنْ يحكموا ويعملوا بما فيه ، وهو كقوله تعالى : ﴿ وَأَنِ احْكُمْ بَيْنَهُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللّهُ ﴾ [المائدة : ٤٩] ، فكما أُمر _ عليه الصلاة والسلام _ بالحكم بما أنزل الله كذلك أُمروا هم بالحكم بما أنزل الله في الإنجيل ، وقد ((يكون هذا الأمر على سبيل الحكاية : وقلنا لهم احكموا أي حين إيتائه عيسى أمرناهم بالحكم بما فيه ، إذ لا يمكن ذلك أنْ يكون بعد بعثة محمد _ صلى الله عليه وسلم _ إذ شريعته ناسخة لجميع الشرائع)) [6] ، فهو حكاية للأمر الوارد عليهم بتقدير فعل معطوف على (آتيناه) ، أي : وقلنا احكموا ، فيتمّ التمهيد لقوله بعده : ﴿ وَمَنْ لَمْ يَحْكُمْ بِمَا أَنْزَلَ الله ﴾ ، والمعنى على الاستئناف أو على الحكاية ، أمر لأهل الإنجيل بأنْ يحكموا بما أنزل الله فيه .

---

(١) ينظر : السبعة ٢٤٤ ، التذكرة ٣١٦/٢ ، التيسير ٨٢ ، النشر ١٩١/٢.

(٢) ينظر : معاني القراء ٣١٢/١، الحجة لابن خالويه ٦٨، الحجة للفارسي ١١٩/٢، حجة أبي زرعة ٢٢٧– ٢٢٨، الكشف ٤١٠/١، الكشاف ٦١٧/١، الموضح ٤٤٢/١، تفسير القرطبي ١٩٧/٥، البحر ٥٠٠/٣، الدر المصون ٢٨٥/٤، فتح القدير ٥٩/٢ ، القراءات وأثرها في التفسير والأحكام ٩١٣/٢ .

(٣) ينظر : المكتفى في الوقف والابتدا ١٦٦ .

(٤) ينظر : معاني الزجاج ١٨٠/٢، الحجة لابن خالويه ٦٨، الحجة للفارسي ١١٩/٢، حجة أبي زرعة ٢٢٨، الكشف ٤١٠/١، المحرر الوجيز ١٩٩/٢، الموضح ٤٤٢/١، تفسير القرطبي ١٩٧/٥.

(٥) قال الأزهري: اللام إذا اتصلت بالفاء والواو استثقل كسرها، وكثرت الحركات فسكنها. وهما لغتان جيدتان. معاني الأزهري ١٤٢.

(٦) البحر ٥٠٠/٣، وينظر : تفسير أبي السعود ٤٩/٢، التحرير والتنوير ٢١٩/٦.

هذا وقد اختار مكي بن أبي طالب [1] قراءة الجزم بلفظ الأمر ؛ لأن الجماعة عليه ، ولأنَّ ما أتى بعده من الوعيد والتهديد يدل على أنه أمر لازم ، إلزام من الله لأهل الإنجيل . وهذا الاختيار يحرم النص من المعنى الذي تؤديه القراءة الأخرى على لفظ الخبر ، فالقراءتان تتكاملان في المعنى ((والذي يتراءى في ذلك أنهما قراءتان مشهورتان متقاربتا المعنى ، فبأي ذلك قرأ قارئ فمصيب فيه الصواب ؛ وذلك أنَّ الله تعالى لم ينزل كتاباً على نبي من أنبيائه إلا لِيَعْمَلَ بما فيه أهله الذين أُمروا بالعمل بما فيه ، ولم ينزله عليهم إلا وقد أمرهم بالعمل بما فيه . فلِلعَمل بما فيه أنزله ، وأَمَرَ بالعمل بما فيه أهله . كذلك الإنجيل ، إذ كان من كتب الله التي أنزلها على أنبيائه ، فللعمل بما فيه أنزله على عيسى ، وأمر بالعمل به أهله ، فسواء قرئ على وجه الأمر بتسكين اللام ، أو قرئ على وجه الخبر بكسرها لاتفاق معنييهما)) [2] ، ويؤيد هذا ما ذهب إليه النحاس في قوله : ((والصواب عندي أنهما قراءتان حسنتان ؛ لأنَّ الله عز وجل لم ينزِّل كتاباً إلا لِيُعْمَلَ بما فيه ، وأَمَرَ بالعمل بما فيه ؛ فصحتا جميعاً)) [3] .

وعلى هذا فقراءة الخبر (ولِيحكمَ) علَّلَت إنزال الكتاب وذلك لِيُعْمَل بما فيه ، وقراءة الأمر (ولْيحكمْ) طلبت العمل بما في هذا الكتاب ، ومن ثم تكامل هذا المعنى من خلال هذه المزاوجة التي رسمت هذه الصورة من جميع جانبيها ، إذ أنزلنا هذا الكتاب ليُحكمَ بما فيه ، وَلْيَحكمْ أهل الكتاب بما أنزل الله فيه .

الموضع الثاني :

قوله تعالى : ﴿ فَإِذَا رَكِبُوا فِي الْفُلْكِ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ ۞لِيَكْفُرُوا بِمَا آتَيْنَاهُمْ وَلِيَتَمَتَّعُوا فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴾ [العنكبوت : ٦٥ – ٦٦] .

(١) ينظر : الكشف ٤١١/١ .

(٢) تفسير الطبري ٣٥٩/٦ .

(٣) إعراب النحاس ٢٢٥/١ ، وينظر:تفسير القرطبي ١٩٧/٥، فتح القدير ٥٩/٢ .

حيث قرأ [١] أبو عمرو وعاصم وابن عامر : (ولِيتمتعوا) بكسر اللام ، وقرأ ابن كثير وحمزة والكسائي : (ولْيتمتعوا) بإسكان اللام على صيغة الأمر .

واختلف عن نافع ، فروى المسيبي وقالون وإسماعيل بن أبي أويس (ولْيتمتعوا) بجزم اللام ، وقال ابن جماز وإسماعيل بن جعفر وورش عن نافع (ولِيتمتعوا) على معنى (كي) .

فأما قراءة الكسر [٢] (ولِيتمتعوا) ففيها وجهان :

الأول : أنَّ اللام لام (كي) الناصبة ، والواو عطفت جملة (ولِيتمتعوا) على جملة (ليكفروا) « والمعنى : لكي يكفروا ولكي يتمتعوا ، وسئل أبو عمرو عن هذه اللام فقال : اقرأ ما قبلها (لِيكفروا بما آتيناهم) (ولِيتمتعوا) مثلها » [٣] ، فـ « من كسر اللام وجعلها الجارة ، كانت متعلقة بالإشراك ، كأنَّ المعنى : يشركون ليكفروا ، أي لا عائدة لهم في الإشراك إلا الكفر ، فليس يرد عليهم الشرك نفعاً إلا التمتع بما يستمتعون به في العاجلة من غير نصيب في الآخرة » [٤].

الثاني : أنَّ اللام « يجوز أنْ تكون لام الأمر ؛ لأنَّ أصل لام الأمر الكسر ، إلا أنه أمر فيه معنى التهديد » [٥] ، أي اكفروا بما أعطيناكم من النعمة والنجاة من البحر وتمتعوا ، وهذا الوجه « يؤيده قراءة من سكن لام (ولْيتمتعوا) » [٦] ، وهي القراءة الأخرى على وجه الأمر ، فـ « العرب لها في الأمر لغتان : الكسر مع أصل الابتداء ، والإسكان للتخفيف » [٧] ، كقوله تعالى : ﴿ ثُمَّ لْيَقْضُوا تَفَثَهُمْ ﴾ [الحج : ٢٩] .

(١) ينظر: السبعة ٥٠٢ ، التذكرة ٤٩٢/٢.٤٩٣ ، التيسير ١٤١ ، النشر ٢٥٨/٢.

(٢) ينظر: الحجة لابن خالويه ١٧٨، معاني النحاس ٢٣٧/٥، الكشاف ٢١٢/٣، زاد المسير ٢٨٤/٦، تفسير القرطبي ٣٢٣/١٣، البحر ١٥٩/٧، التوجيه البلاغي للقراءات القرآنية ٢٣٠– ٢٣١.

(٣) حجة أبي زرعة : ٥٥٥.

(٤) الحجة للفارسي ٢٦٥/٣.

(٥) إعراب النحاس ١٧٧/٣.

(٦) البحر ١٥٩/٧.

(٧) حجة أبي زرعة : ٥٥٥.

وأما القراءة بإسكان اللام [1] تخفيفاً ، فعلى أنها لام الأمر الجازمة ، ويدل على جواز الأمر ها هنا قوله في الأخر :﴿لِيَكْفُرُوا بِمَا آتَيْنَاهُمْ فَتَمَتَّعُوا فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴾ [النحل :٥٥ ، والروم :٣٤] ، وكذلك قراءة أُبيّ : (وتمتعوا) وهذا الأمر جاء على سبيل [2] التهديد والوعيد ، كقوله تعالى : ﴿ اعْمَلُوا مَا شِئْتُمْ ﴾ [فصلت :٤٠] .

ومن هنا فالقراءة بإسكان اللام تؤيد الوجه الثاني من وجهي قراءة الكسر ، وذلك في إظهار معنى الأمر الذي يخرج إلى معنى التهديد والوعيد ، وهو ما اتفق مع رواية قالون عن نافع ، أما الوجه الأول لقراءة الكسر فيظهر معنى التعليل وهو ما اتفق مع رواية ورش عن نافع .

والمزاوجة بين هاتين القراءتين تكامل المعنى وتحيط به من جميع جوانبه ، فقراءة الكسر بلام (كي) على وجه الخبر بيَّنت علة إشراكهم ، وهي أنهم أشركوا ليكفروا ويتمتعوا ، وبياناً لخسة هذا الفعل تجيء قراءة الأمر بإسكان اللام موبخة فعلهم ، إذ بيَّنت مغبة إشراكهم وخطورة مسلكهم على سبيل التهديد.

(١) ينظر: معاني الفراء ٣١٩/٢، تفسير الطبري ١٧/٢١، الحجة للفارسي ٢٦٥/٣، حجة أبي زرعة ٥٥٥، الكشف ١٨١/٢، الموضح ١٠٠٠/٢، فتح القدير ٢٦٤/٤، التحرير والتنوير ٣٣/٢١ ، القراءات وأثرها في التفسير و الأحكام ٩١٩/٢ .

(٢) وخروج الأمر إلى معنى التهديد كثير..." ومثاله أنْ ترى الرجل قد عزم على أمر وعندك أنَّ ذلك الأمر خطأ وأنه يؤدي إلى ضرر عظيم فتبالغ في نصحه واستنزاله عن رأيه، فإذا لم ترَ منه إلا الإباء والتصميم حرّدت عليه وقلت: أنت وشأنك وافعل ما شئت . فلا تريد بهذا حقيقة الأمر، وكيف والآمر بالشيء مريد له ، وأنت شديد الكراهة متحسر، ولكنك كأنك تقول له: فإذ قد أبيت قبول النصيحة فأنت أهل ليقال لك : افعل ما شئت ، وتبعث عليه ليتبين لك إذا فعلت صحة رأي الناصح وفساد رأيك ". (الكشاف ٢١٢/٣) .

المبحث الثالث

المزاوجة بين الخبر وصيغة المصدر النائب عن فعل الأمر لإظهار صورة التطور الموقفي من دلالات التجدُّد والتغيير إلى دلالات الثبوت والدوام

عند المزاوجة بين قراءة الأمر بصيغة المصدر النائب عن فعل الأمر وقراءة الخبر ، فإن المزاوجة بينهما تدور بين الجملة الفعلية والجملة الاسمية في حالتي النصب والرفع ، ويغلب على القراءتين في هذه الحالة أن تتناوبا بين دلالتي الجملة الاسمية والجملة الفعلية .

ذلك ما سيظهر في الموضع الآتي :

في قوله تعالى : ﴿ وَالَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنْكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجاً وَصِيَّةً لأَزْوَاجِهِمْ مَتَاعاً إِلَى الْحَوْلِ غَيْرَ إِخْرَاجٍ فَإِنْ خَرَجْنَ فَلا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِي مَا فَعَلْنَ فِي أَنْفُسِهِنَّ مِنْ مَعْرُوفٍ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾ [البقرة : ٢٤٠] .

حيث قرأ [١] أبو عمرو وابن عامر وحمزة وحفص : (وصيةً) بالنصب ، وقرأها الباقون بالرفع .

فأما قراءة النصب [٢] (وصيةً) فقد جاءت على أسلوب الأمر ، وذلك على أصل المفعول المطلق النائب عن فعله لإفادة الأمر ، « والأمر يحتاج إلى الفعل ، فأضمر الفعل فنصب وصيةً ، والتقدير ، فليوصوا وصية ، فالنصب يدل على معنى الأمر »[٣] ، والوصية هنا تكون من المتوفين[٤] ، مثل قوله تعالى : ﴿ كُتِبَ عَلَيْكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ إِنْ تَرَكَ خَيْراً الْوَصِيَّة ﴾ [البقرة : ١٨٠]

---

(١) ينظر: السبعة ١٨٤ ، التذكرة ٢/٢٧٠ ،التيسير ٦٩ ، النشر ٢/١٧٢.

(٢) ينظر: معاني الفراء ١/١٥٦، معاني الأخفش ١/١٧٨، معاني الزجاج ١/٣٢١، الحجة لابن خالويه ٤٤، الحجة للفارسي ١/٤٥٠، حجة أبي زرعة ١٣٨، الكشاف ١/٣٧٧، الموضح ١/٣٣١، زاد المسير ١/٢٨٥– ٢٨٦، البحر ٢/٢٤٥.

(٣) الكشف ١/٢٩٩.

(٤) ينظر: المحرر الوجيز ١/٣٢٦، التحرير والتنوير ٢/٤٧٢.

وعليه فيكون معنى (يُتوفون) في الآية : ((والذين يقاربون الوفاة فينبغي أنْ يفعلوا هذا ، ألا ترى أنَّ المتوفى لا يؤمر ولا ينهى ؟!)) [١] .

والمعنى [٢] على ذلك : ((أنَّ حق الذين يتوفون عن أزواجهم أنْ يوصوا قبل أنْ يحتضروا بأنْ تمتع أزواجهم بعدهم حولاً كاملاً ، أيْ ينفق عليهن من تركته ، ولا يخرجن من مساكنهن ، وكان ذلك في أول الإسلام ، ثم نُسخت [٣] المدة بقوله (أربعة أشهر وعشراً) ، وقيل نُسخ ما زاد على هذا المقدار ، ونُسخت النفقة بالإرث الذي هو الربع أو الثمن)) [٤] .

وأما قراءة الرفع [٥] (وصيةٌ) فقد جاءت على أسلوب الخبر ، وذلك أنَّ من رفع (وصيةً) فقد ((حمله على الابتداء ، وجعل (لأزواجهم) الخبر ، وحسن الابتداء بنكرة ؛ لأنه موضع تخصيص ، كما حسن " سلام عليك " رفع بالابتداء ، ومثله : خيرٌ بين يديك ، ويجوز أنْ ترفع (الوصية) بالابتداء والخبر محذوف ، ويكون (لأزواجهم) صفة للوصية ، فيحسن الابتداء بنكرة ؛ إذ هي موصوفة ، والنكرات إذا وصفت حسن الابتداء بها ، لما فيها من الفائدة ، تقديره : فعليهم وصية لأزواجهم)) [٦] ، والوصية هنا من الله سبحانه للمتوفى عنها زوجها ، مثل قوله تعالى : ﴿ يُوصِيكُمُ اللّهُ فِي أَوْلادِكُمْ ﴾ [النساء : ١١] ، وقوله تعالى : ﴿ وَصِيَّةً مِنَ اللّهِ ﴾ [النساء :١٢] ، ((قالت فرقة منهم ابن عباس ، والضحاك ، وعطاء ، والربيع : إنَّ قوله ﴿ وصيةٌ لأزواجهم ﴾ هي وصية من الله تعالى)) [٧] ؛ وذلك لأنه ((لما قال الله – تعالى ذكره – : ﴿ وَالَّذِينَ يُتَوَفَّونَ مِنْكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجَاً وَصِيَّةً لأَزْوَاجِهِمْ ﴾ [البقرة :٢٤٠] وكان الموصي لا شك إنما يوصي في حياته بما يؤمر بإنفاذه بعد وفاته ، وكان محالاً أنْ يوصي بعد وفاته كان _ تعالى ذكره _ إنما جعل لامرأة

(١) الحجة للفارسي ٤٥١/١، وينظر : المحرر الوجيز ٣٢٦/١.

(٢) ينظر : تفسير النسفي ١٣٥/١، تفسير أبي السعود ٢٧٦/١.

(٣) ينظر : الإيضاح لناسخ القرآن ومنسوخه ١٨٢– ١٨٤، نواسخ القرآن ٢٩٤– ٢٩٦.

(٤) الكشاف ٣٧٧/١.

(٥) ينظر: الحجة للفارسي ٤٥١/١، حجة أبي زرعة ١٣٨، الكشاف ٣٧٧/١، المحرر الوجيز ٣٢٥/١، الموضح ٣٣١/١، زاد المسير ٢٨٥/١– ٢٨٦، إبراز المعاني من حرز الأماني ٣٦١/٣، البحر ٢٤٥/٢، الدر المصون ٥٠١/٢– ٥٠٢، حاشية الشهاب ٥٦١/٢، فتح القدير ٣٢٥/١، روح المعاني ٥٥١/١.

(٦) الكشف ٢٩٩/١.

(٧) التحرير والتنوير ٤٧٣/٢، وينظر : المحرر الوجيز ٣٢٦/١.

الميت سكنى الحول بعد وفاته ؛ علِمنا بأنه حق لها وجب في ماله بغير وصية منه لها ، إذ كان الميت مستحيلاً أنْ يكون منه وصية بعد وفاته » [1] ، وهذا المعنى هو الذي جعل الطبري يستصوب قراءة الرفع على قراءة النصب على أنَّ الوصية من الله وليست من المتوفين .

واستصواب قراءة الرفع على قراءة النصب لا نسلم به ؛ لأنَّ القراءتين متواترتان ، كما أنَّ كل قراءة جاءت لتأدية هدف يتكامل مع الهدف الذي تؤيده القراءة الأخرى ، والردّ على ذلك يجعلنا نرجع البصر كرة أخرى إلى القراءتين ، فإذا تمعَّنَا في تعبيريهما وجدنا أنَّ قراءة الرفع على أسلوب الخبر بتقدير (وصيةٌ لأزواجهم) أو (فعليهم وصيةٌ لأزواجهم) جاءت بتعبير الجملة الاسمية ، ووجدنا أنَّ قراءة النصب على أسلوب الأمر (ليوصوا وصيةً) جاءت بتعبير الجملة الفعلية ، هذا ومما قرره الإمام عبد القاهر بأنَّ « موضوع الاسم على أنْ يُثبَت به المعنى للشيء من غير أنَّ يقتضى تجدده شيئاً بعد شيء ، وأما الفعل فموضوعه على أنه يقتضى تجدد المعنى المثبت به شيئاً بعد شيء » [2] .

وعليه فإن الجملة الاسمية في أسلوب الخبر (وصيةٌ لأزواجهم) تفيد معنى الثبات والاستقرار ، والجملة الفعلية في أسلوب الأمر (ليوصوا وصيةً) تفيد معنى التجدد والتغير ، ومعنى الثبات يتغاير مع معنى التجدد وعليه فكيف نجمع بين المتغايرين ؟ إنَّ ذلك يتأتى لنا عندما نقف على مناسبة مقتضى الحال للسياق الذي وردت فيه هاتان القراءتان .

لقد كان للعرب في الجاهلية عادات تحكم المرأة المعتدَّة ، تقضي ببقائها بعد وفاة زوجها ، لابسة شرَّ ثيابها ، لا تمسّ ماءً ولا تقلم ظفراً ولا تزيل شعراً . تقول زينب بنت أم سلمة : « كانت المرأة إذا توفي زوجها دخلت حِفشاً [3] ، ولبست شرَّ ثيابها ، ولم تمسّ طيباً ، حتى تمر سنة ، ثم تُعْطَى بعرة فترمي بها [4] ، فأنزل الله ـعز وجل ـ: ﴿ وَالَّذِينَ يُتَوَفَّونَ مِنْكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجَاً وَصِيَّةً لأَزْوَاجِهِمْ مَتَاعَاً إِلَى الْحَولِ﴾ [البقرة : ٢٤٠] يعني لنسائهم ، وكان للمرأة أنْ تسكن في بيت زوجها سنة ،

(١) تفسير الطبري ٢/٧٨٣- ٧٨٤.

(٢) دلائل الإعجاز ١٧٤.

(٣) الحِفش : البيت الصغير المظلم (الصحاح للجوهري ٣/١٠٠٢ مادة : ح ف ش).

(٤) صحيح البخاري ٤/١٧١٧ برقم ٥٣٣٦.

وإنْ شاءت خرجت فاعتدَّت في بيت أهلها ، أوْ سكنت في وصيتها إلى الحول ، ثم نسخ بأربعة أشهر وعشر)) (١) .

فعندما نزلت (وصيةً لأزواجهم متاعاً إلى الحول) فقد أَبطلت عادةً جاهليةً وغيَّرتها ، ((فلمَّا ثقل ذلك على الناس في مبدأ أمر تغيير العادة ، أمر الأزواج بالوصية لأزواجهم بسكنى الحول بمنزل الزوج ، والإنفاق عليها من ماله إنْ شاءت السكنى بمنزل الزوج ، فإنْ خرجت وأبت السكنى هنالك لم ينفق عليها ، فصار الخيار للمرأة في ذلك بعد أنْ كان حقاً عليها لا تستطيع تركه ، ثم نسخ الإنفاق والوصية بالميراث)) (٢) .

إنَّ هذا التدرج في تغيير العوائد شيئاً فشيئاً ، يَصْدُقُ عليه أنه تجدد وحدوث في الوصية يتناسب مع أسلوب الأمر (وليوصوا وصية) في التعبير بالجملة الفعلية ، ومن هنا يمكن أنْ نقول إنَّ هذا التدرج يشي بأنَّ قراءة الأمر تتناسب مع آية : ﴿ وَالَّذِينَ يُتَوَفَّونَ مِنْكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجَاً وَصِيَّةً ﴾ الواردة في حديث زينب بنت أم سلمة _ السابق _ والذي يصوِّر تلك النقلة ويجسِّد ذلك التدرج إلى أنْ وصل إلى مرحلة النسخ .

فعندما وقع النسخ مع ثبات رسم الآية المنسوخة كما جاء فيما رواه ابن الزبير قال : ((قلت لعثمان : هذه الآية التي في البقرة : ﴿وَالَّذِينَ يُتَوَفَّونَ مِنْكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجَاً وَصِيَّةً لأَزْوَاجِهِمْ ﴾ قد نسختها الآية الأخرى ، فلم تكتبها ؟ قال : تدعها يا ابن أخي ! لا أغير شيئاً منه من مكانه)) (٣) ؛ عندما وقع النسخ انتهى التدرج ، ووصلت الوصية إلى مرحلة الثبات والاستقرار ، هذا الثبات الذي توضحه القراءة الأخرى على أسلوب الخبر بتعبير الجملة الاسمية (فعليهم وصية لأزواجهم) .

إذن فالمزاوجة بين الأمر والخبر في آية واحدة جعلت الأسلوب يعبر عن التطور الموقفي لهذه الوصية ، فـ ((قوله (وصيةٌ لأزواجهم) برفع وصية على الابتداء محولاً عن المفعول المطلق ، وأصله

---

(١) معاني النحاس ٢٤٢/١ – ٢٤٣.

(٢) التحرير والتنوير ٤٧٢/٢.

(٣) صحيح البخاري ١٣٧٣/٣ برقم ٤٥٣٦. والآية التي نسختها : ﴿ وَالَّذِينَ يُتَوَفَّونَ مِنْكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجَاً يَتَرَبَّصْنَ بِأَنْفُسِهِنَّ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَشْرَاً﴾[البقرة: ٢٣٤] وهي متقدمة عليها في التلاوة، يقول ابن حجر في الفتح: ((وهذا الموضع مما وقع فيه الناسخ مقدماً في ترتيب التلاوة على المنسوخ)) . الفتح ٥٢/٩. وينظر : الإيضاح لناسخ القرآن ومنسوخه لمكي ١٨٣.

وصيةً بالنصب بدلاً من فعله ، فَحُوِّل إلى الرفع لقصد الدوام ،كقولهم : حمدٌ وشكر ، وصبرٌ جميل)) [1] ، نعمْ ، لقد تحوَّلت (ليوصوا وصيةً) بالتدرج إلى (وصيةٌ لأزواجهم) على الدوام والاستقرار ، ولكنْ كيف تشي قراءة (وصيةٌ لأزواجهم) بمعنى الدوام والاستقرار وهي منسوخة ؟ إنَّ بيان ذلك _ والله أعلم _ أنَّ قراءة (وصيةٌ لأزواجهم) تشي بمعنى الدوام والاستقرار عندما تشير إلى الآية التي نسختها (أربعة أشهر وعشراً) ، فـ (وصيةٌ لأزواجهم) وهي وصية الله ، تفسرها وصية الله : (أربعة أشهر وعشراً) الناسخة لها في الآية الأخرى ، والموضحة للوصية في صورتها الثابتة الأخيرة ، وعليه فالمراد بالوصية في قراءة الرفع هو قوله : ﴿ يَتَرَبَّصْنَ بِأَنْفُسِهِنَّ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَشْرَاً ﴾ الواردة في الآية الناسخة لها ، فكأنَّ الآية الناسخة أصبحتْ شيئاً متصلاً في المعنى بقراءة الرفع في الآية المنسوخة في وحدة واحدة متعاضدة ، كما أننا نستشف معنى الدوام لقراءة الخبر من جهة أخرى من بقاء رسمها ، ذلك ما اتضح من خلال الحوار الذي دار بين ابن الزبير وأمير المؤمنين عثمان ، فيمكن توجيه إثبات رسمها بعد نسخها على أنه يؤذن بمعنى الدوام والثبات .

وبناءً على ما سبق تتجلى أمامنا صورة الوصية واضحة من جميع جوانبها ، وقد جمعت بين المواقف المتطورة والمعاني المتعارضة . فمن الحدوث والتجدد إلى الثبات والاستقرار ، ومن كونها وصية من المتوفين إلى كونها وصية من الله سبحانه ، وذلك عندما جاءتنا – أول الأمر– قراءة النصب (ليوصوا وصيةً) بتعبير الجملة الفعلية الذي يفيد معنى التجدد والحدوث ، والذي يتلاءم مع سنة التدرج في تغيير العوائد ، ((فالله لَمَّا أراد نسخ عدة الجاهلية ، وراعى لطفه بالناس في قطعهم عن معتادهم ، أقرَّ الاعتداد بالحول ، وأقرَّ ما معه من المكث في البيت مدة العدة ، لكنه أوقفه على وصية الزوج عند وفاته لزوجه بالسكنى ، وعلى قبول الزوجة ذلك ، فإن لم يوص لها أو لم تقبل ، فليس عليها السكنى ، ولها الخروج ، وتعتد حيث شاءت ، ونسخ وصية السكنى حولاً بالمواريث ، وبقي لها السكنى في محل زوجها مدة العدة مشروعاً بحديث الفُرَيعة)) [2] ، هذا ما يدل على أنَّ الوصية في

(١) التحرير والتنوير ٢/٤٧٢.

(٢) التحرير والتنوير ٢/ ٤٧٢، وحديث الفريعة بنت مالك بن سنان، وهي أخت أبي سعيد الخدري " أنها جاءت إلى رسول الله – صلى الله عليه وسلم– تسأله أنْ ترجع إلى أهلها، في بني خدرة ، فإنَّ زوجها خرج في طلب أعبد– أي عبيد– له أبقوا، حتى إذا كانوا بطرف القدوم – مكان قريب من المدينة – لحقهم فقتلوه ، قالت: فسألت رسول الله _ صلى الله عليه وسلم _ أنْ أرجع إلى أهلي في بني خدرة ، فإنَّ زوجي لم يتركني في مسكن يملكه ولا نفقة ، فقال = =رسول

قراءة الأمر بتعبير الجملة الفعلية التي تفيد معنى التجدد (وليوصوا الوصيةً) هي وصية المتوفين ؛ لأنها كانت أولاً ثم تغيرت ونُسخت بوصية الله (وصيةٌ لأزواجهم) الثابتة الدائمة التي تتناسب مع التعبير بالجملة الاسمية .

كما تتيح لنا المزاوجة بين الرفع والنصب في التعبير بالجملة الاسمية والفعلية أنْ نجمع بين « اختلاف القولين في الوصية أهي على الإيجاب من الله أو على الندب للأزواج » (١) .

فقراءة النصب (ليوصوا وصيةً) بتعبير الجملة الفعلية والتي هي وصية المتوفين تتناسب مع معنى الندب ، لما فيها من إيقاف الوصية على الزوج وترك الأمر للمرأة لاختيار السكنى « وقالت فرقة : بل هذه الوصية هي من الزوج ، كانوا ندبوا إلى أنْ يوصوا للزوجات بذلك » (٢) ، وهذا كله يتناسب مع مرحلة التدرُّج التي كانت سابقة لمرحلة النسخ –كما تقرر سابقاً– .

أما قراءة الرفع (وصيةٌ لأزواجهم) بتعبير الجملة الاسمية ، والتي هي وصية الله تتناسب مع معنى الوجوب لما فيها من الحكم الناسخ الثابت الفاصل الذي « لا يتوقف على ايصاء المتوفين ولا على قبول الزوجات ، بل هو حكم من الله يجب تنفيذه » (٣) ، وبهذا يمكن الجمع بين القولين والرد على من قال بعدم الجمع بينهما .

وبعد.. فهل كان يمكن لهذه المعاني أنْ تُتَاح ولهذه الأقوال أنْ تُسْتوعب ، لولا استخدام أسلوب المزاوجة ؟ وهي إحدى خصائص النظم القرآني الكريم .

الله– صلى الله عليه وسلم – : نعم ، فقالت: فانصرفت، حتى إذا كنت في الحجرة ، ناداني رسول الله ، فقال: كيف قلت؟ فرددت عليه القصة التي ذكرت له من شأن زوجي ، فقال: امكثي في بيتك حتى يبلغ الكتاب أجله ، قالت: فاعتددت فيه أربعة أشهر وعشراً ، فلما كان عثمان بن عفان أرسل إليّ ، فسألني عن ذلك فأخبرته ، فاتَّبعه وقضى به " صحيح سنن الترمذي للألباني ١/٣٥٥ برقم ٩٦٢ .

(١) البحر ٢/٢٤٥ .

(٢) المحرر الوجيز ١/٣٢٦ .

(٣) التحرير والتنوير ٢/٤٧٣ .

الفصل الثالث

المزاوجة

بين الخبر والنهي

وأثـرها في

إثـراء دلالات السـياق

الفصل الثالث

المزاوجة بين الخبر والنهي

وأثرها في إثراء دلالات السياق

تعمل المزاوجة بين الخبر والنهي على إكساب النص دلالات واسعة وخصبة ، وبما أنّ النهي ليس له في العربية إلا صيغة واحدة وهي المضارع المسبوق بلا الناهية ، التي تعمل عمل ليس ، وبهذا فالعملية تدور بين المضارع المجزوم والمضارع المرفوع في صورتين الإنشائية والخبرية ومن هنا فإنّ مما نلحظه في عملية المزاوجة هذه بين الخبر والنهي أنّ كل قراءة تحمل معنى يتكاتف مع معنى القراءة الأخرى تارة ، أو أن الخبر يُحمل على معنى النهي أو العكس على سبيل التأكيد تارة أخرى .

وبالتالي فإننا نلمس ثمرة المزاوجة إذ أنها تضيف إلى كل قراءة معنى يعاضدها أو يؤيدها من خلال معنى القراءة الأخرى مما يوسع دلالة النص ويزيده خصوبة وثراءً . ذلك ما ستراه في المبحثين الآتيين :

المبحث الأول :المزاوجة بين الخبر والنهي لإظهار دلالات التكاتف والتقوية .

المبحث الثاني :المزاوجة بين الخبر والنهي لإظهار دلالات التأكيد وذلك بحمل إحدى القراءتين على معنى الأخرى .

المبحث الأول

المزاوجة بين الخبر والنهي

لإظهار دلالات التكاتف والتقوية بتضمين إحدى القراءتين معنى القراءة الأخرى

حيث تحمل قراءة الخبر معنى ثم تجيء قراءة النهي متضمنة لذلك المعنى ، فالقراءتان تتعاضدان لإظهار ذلك المعنى بصورتين مختلفتين وذلك ما يزيد المعنى قوة ، كما في المواضع الآتية :

الموضع الأول :

في قوله تعالى : ﴿ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ بِالْحَقِّ بَشِيراً وَنَذِيراً وَلا تُسْأَلُ عَنْ أَصْحَابِ الْجَحِيمِ ﴾ [البقرة :١١٩]

فقد قرأ [١] نافع ويعقوب (ولا تَسأَلْ) بفتح التاء والجزم على النهي ، وقرأ الباقون : (ولا تُسألُ) بضم التاء ورفع اللام على الخبر .

فأما قراءة الرفع على الخبر (ولا تُسألُ) فمعناها يحتمل وجهين [٢] :

أحدهما : أن يكون حالاً ، فيكون مثل ما عُطف عليه من قوله : ﴿ بَشِيراً وَنَذِيراً ﴾ وغيرَ مسؤول ، ويكون ذكر (تُسألُ) وهو فعل بعد المفرد الذي هو قوله : ﴿ بشيراً ﴾ كذكر الفعل

(١) ينظر: السبعة ١٦٩، التذكرة ٢٥٨/٢، التيسير ٦٥، النشر ١٦٦/٢.

(٢) ينظر: معاني الأخفش ١٤٦/١، معاني الزجاج ٢٠٠/١، الحجة للفارسي ٣٧٧/١، الكشف ٢٦٢/١، إبراز المعاني ٣٢١/٢– ٣٢٢، تفسير النسفي ٧٨/١– ٧٩، البحر ٣٦٧/١– ٣٦٨، الدر المصون ٩٣/٢.

في قوله : ﴿ وَيُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ ﴾ [آل عمران : ٤٦] بعدما تقدم من المفرد ﴿ وَجِيهاً فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ وَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ ﴾ [آل عمران : ٤٥] . والمعنى على الحال : إنا أرسلناك بالحق بشيراً ونذيراً وغيرَ مسؤول عن الكفار ما لهم لا يؤمنون ، فيكون قيداً في الإرسال ، وعلى هذا لا يُبتدأ بـ (ولا تُسألُ) لأنه متعلق بما قبله .

الآخر : أنْ يكون منقطعاً عن الأول مستأنفاً به ، وعلى هذا يجوز الابتداء به ، والمعنى على الاستئناف أنك لا تسأل عن الكفار ما لهم لم يؤمنوا ؛ لأنّ ذلك ليس إليك ، كما في قوله : ﴿ إنْ عليكَ إلا البلاغ ﴾[الشورى : ٤٨] ، وقوله : ﴿ إنكَ لا تهدي مَن أحبْبتَ ﴾[القصص : ٥٦] ، وقوله : ﴿ إنما أنتَ مُنْذر ﴾[الرعد : ٧] ، وفي ذلك تسلية له – صلى الله عليه وسلم – ، وتخفيف ما كان يجده من عنادهم ، فكأنه قيل له : لست مسؤولاً عنهم ، فلا يحزنك كفرهم .

ومن هنا يظهر لنا أنّ الوجهين يؤكدان أنّ الرسول – صلى الله عليه وسلم – ليس مسؤولاً عن أصحاب الجحيم ، ((والسؤال كناية عن المؤاخذة واللوم ، مثل قوله – صلى الله عليه وسلم – : " وكلكم مسؤول عن رعيته " أي : لست مؤاخذاً ببقاء الكافرين على كفرهم بعد أنْ بلَّغت لهم الدعوة)) [١] .

وأما قراءة الجزم على النهي[٢] (ولا تَسألْ) فتحتمل معنيين :

أحدهما : أنه نهي للنبي – صلى الله عليه وسلم – على وجه الحقيقة ، وذلك ((أنه – صلى الله عليه وسلم – سأل : أيُّ أبويه كان أحدث موتاً ؟ وأراد الاستغفار لهما ، فأنزل الله تعالى هذه الآية ونهى عن المسألة عنهما)) [٣] ، وقد رُدَّ هذا المعنى لضعف هذا الحديث [١] ، وأنهما من أهل الفترة .

(١) التحرير والتنوير ٦٩٢/١.

(٢) ينظر: معاني الفراء٧٥/١، معاني الأزهري ٦٠– ٦١، الحجة لابن خالويه ٣٦ ، المحرر الوجيز ٢٠٣/١، زاد المسير ١٣٧/١– ١٣٨، تفسير أبي السعود ١٨٢/١، فتح القدير ١٧٠/١، روح المعاني ٣٦٩/١، التحرير والتنوير ٦٩٢/١.

(٣) الموضح ٢٩٨/١.

كما استبعِدَ ((لأنّ سياق الكلام يدل على أنّ ذلك عائد على اليهود والنصارى ومشركي العرب الذين جحدوا نبوته وكفروا عناداً وأصروا على كفرهم ، وكذلك جاء بعده : ﴿ ولنْ ترضَى عنكَ اليهودُ ولا النصارى ﴾ [البقرة :١٢٠] إلا إنْ كان ذلك على سبيل الانقطاع من الكلام الأول ، ويكون من تلوين الخطاب وهو بعيد)) (٢) .

الآخر : وهو الأظهر أنه لا يكون نهياً حقيقة ، بل جاء نهياً على سبيل ((تعظيم ما وقع فيه الكفار من العذاب ، كما تقول كيف فلان سائلاً عن الواقع في بليّة ؟ فيقال لك لا تسأل عنه ، ووجه التعظيم أنّ المستخبر يجزع أنْ يجري على لسانه ما هو فيه لفظاعته ، فلا تسأله ولا تكلفه ما يضجره ، وأنت يا مستخبر لا تقدر على استماع خبره لإيحاشه السامع وإضجاره فلا تسأل)) (٣)، ومن هنا نتبين أنّ صيغة النهي جاءت إيذاناً بكمال شدة عقوبة الكفار وتعظيماً لشأن المسؤول عنه .

هذا وإن أسلوب النهي هنا وقع بين خبرين ، وذلك من قبيل عطف الإنشاء على الخبر ، إلا أنّ ابن جرير ردّ قراءة النهي هذه لعدم مسايرتها للسياق ، وذلك بقوله : ((والواجب أنْ يكون تأويل ذلك الخبر على ما مضى ذكره قبل هذه الآية وعمن ذكر بعدها من اليهود والنصارى وغيرهم من أهل الكفر ، دون النهي عن المسألة عنهم)) (٤) ، ثم شرع يذكر أسباباً أخرى ، وهي التي وافقه عليها مكي مما جعله يبني اختياره لقراءة الرفع عليها بقوله : ((والرفع هو الاختيار ، لأنّ عليه جماعة القراء ، ولأنّ ابن مسعود قرأه (وما تسأل) فهذا يبين معنى الرفع ويقويه ، وأيضاً فإنّ في قراءة أبي : (ولن تسأل) ، فهذا أيضاً يبيّن معنى الرفع والاستئناف ، ويقوي الرفع أنّ قبله خبراً ، وبعده خبر ، فيجب أنْ يكون هذا خبراً ليطابق ما قبله وما بعده ، ويدل على قوة الرفع قوله : ﴿ ليسَ عليكَ هُداهم ﴾ [البقرة

---

(٤) قال الإمام السيوطي:(أخرج وكيع وسفيان بن عيينة وعبد الرزاق وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر عن محمد بن كعب القرظي قال: قال رسول الله– صلى الله عليه وسلم–: ليت شعري ما فعل أبواي، فنزلت ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ بِالْحَقِّ بَشِيراً وَنَذِيراً وَلا تُسْأَلُ عَنْ أَصْحَابِ الْجَحِيمِ﴾ فما ذكرهما حتى توفاه الله، قلت: هذا مرسل ضعيف الإسناد.

وأخرج ابن جرير عن داوود بن أبي عاصم (أن النبي – صلى الله عليه وسلم – قال ذات يوم: أين أبواي؟ فنزلت).

قال السيوطي: والآخر معضل الإسناد، ضعيف، لا يقوم به ولا بالذي قبله حجة. الدر المنثور ٢٧١/١.

(١) البحر ٣٦٨/١.

(٢) الكشاف ٣٠٨/١.

(٣) تفسير الطبري ٧٢٠/١.

:٢٧٢] وقوله : ﴿ ما عَلى الرّسُول إلا البلاغ ﴾ [المائدة : ٩٩]، ويقوّي الرفع أيضاً أنه لو كان نهياً لكان بالفاء ، كما تقول : أعطيتك مالاً فلا تسألني غيره »[١] .

والواقع أنّ استصواب قراءة الرفع واختيارها على سبيل قراءة النهي يحرم النص من الإحاطة بجميع دلالاته ، وذلك أنّ كل قراءة جاءت لتأدية معنى يتكامل مع دلالة القراءة الأخرى .

أما مسألة رد قراءة الجزم لعدم مسايرتها للسياق فمردودة ، وذلك لأنّ « القرآن الكريم مملوء بمثل ذلك الأسلوب الذي جاءت عليه قراءة الجزم ، وهو الانتقال من معنى إلى معنى وأسلوب إلى أسلوب وغرض إلى غرض لما يكون اللفظ به أقوم قيلاً ، وأقوى قبيلاً ، فالانتقال من الخطاب إلى الغيبة أو التكلم والعكس في هذه الثلاثة ، وكذلك الانتقال من خبر إلى إنشاء ، ومن إنشاء إلى خبر ، كل ذلك وارد في القرآن وفي العربية ، قال تعالى ﴿ إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ ۞ فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَانْحَرْ ﴾ [الكوثر : ١ – ٢] ، انتقل من الخبر إلى الإنشاء كما هو الحال في قراءة الجزم التي نحن بصدد الدفاع عنها ، قال تعالى : ﴿ وَلا تَأْكُلُوا مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ وَإِنَّهُ لَفِسْقٌ ﴾ [الأنعام : ١٢١] »[٢] ، وأما مسألة « أنه لو كان نهياً لكانت الفاء في قوله : فلا تسأل أسهل من الواو . فالقول فيه : إنّ هذا النحو إنما يكون بالفاء ، إذا كانت الرسالة بالبشارة والنذارة علة لأنْ ﴿ لا يسأل عن أصحاب الجحيم ﴾ ، كما يقول الرجل : قد حملتك على فرس فلا تسألني غيره ، فيكون حمله على الفرس علة لأنْ لا يسأله غيره . وليس البشارة والنذارة علة لأنْ لا يسأل »[٣] .

وعلى هذا فلا يمكن تصويب قراءة على قراءة ، بل إنّ المزاوجة بينهما مطلوبة إذ إنّ كل قراءة تتكاتف في معانيها مع القراءة الأخرى . ومن خلال المزاوجة بين القراءتين يتبين لنا أنّ قراءة الخبر جاءت تسلية للرسول– صلى الله عليه وسلم – وتخفيفاً لما كان يجده من عناد الكافرين ، في حين أنّ

(٤) الكشف ٢٦٢/١.
(١) توجيه مشكل القراءات العشرية ١٣٩ .
(٢) الحجة للفارسي ٣٧٨/١ .

قراءة النهي جاءت متضمنة لهذا المعنى ، وذلك ببيان فظاعة وشناعة مصير الكافرين ، فلا يسأل عنهم تعظيماً لمآلهم وتغليظاً لشأنهم ، ففي ذلك ما فيه من التخويف لهم ، والتأنيس والتسلية للرسول صلى الله عليه وسلم .

الموضع الثاني :

في قوله تعالى : ﴿ وَآتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَجَعَلْنَاهُ هُدىً لِبَنِي إِسْرَائِيلَ أَلاّ تَتَّخِذُوا مِنْ دُونِي وَكِيلاً ﴾ [الإسراء : ٢] .

فقد قرأ [١] أبو عمرو (ألاّ يتخذوا) بالياء فالتاء ، وقرأ الباقون (ألا تتخذوا) بتاءين .

فأما قراءة (ألا يتخذوا) [٢] ، فجرياً على الغيبة في قوله : ﴿ وجعلناه هدى لبني إسرائيل ﴾ . و (ألا يتخذوا) مركبة من (أن) و (لا) و (يتخذوا) ، ويجوز أنْ تكون (أنْ) ناصبة للمضارع (يتخذوا) ، والمصدر منهما للتعليل على حذف حرف العلة ، و (لا) نافية ، أيْ : لئلا يتخذوا ، فجعله هدىً لبني إسرائيل لئلا يتخذوا من دون الله وكيلاً . ويجوز أنْ تكون (لا) زائدة فيكون التقدير : وجعلناه هدى لبني إسرائيل كراهة أن يتخذوا من دوني وكيلاً .

ومن هنا جاءت القراءة على لفظ الخبر لتعليل جعل الكتاب هدى لبني إسرائيل .

وأما قراءة (ألا تتخذوا) [٣] بتاءين ، فعلى أنه التفات من الغيبة إلى الخطاب ، وهو مثل قوله تعالى : ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِين ﴾ [الفاتحة : ٥] على الخطاب بعد الغيبة في قوله سبحانه : ﴿ الْحَمْدُ للهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ [الفاتحة : ٢] . وفي هذه القراءة يجوز أن تكون (أنْ) مفَسِّرة بمعنى (أيْ) ، و (لا) ناهية جازمة ، و التقدير : وجعلناه هدى لبني إسرائيل ، أيْ : لا تتخذوا من دوني وكيلاً ، وهي نحو قولك : كتبت إليه أنْ افعل كذا . كما يجوز أنْ تكون (أنْ) زائدة ، ويُضمر في الكلام قول تقديره : وجعلنا هدىً لبني إسرائيل وقلنا لهم : لا تتخذوا من دوني وكيلاً . إذن القراءة على وجه النهي فسَّرت ووضحت المقصود من جعل الكتاب هدىً لبني إسرائيل ، إذ المراد منه أيْ : لا تتخذوا من دوني وكيلاً .

---

(١) ينظر : السبعة ٣٧٨ ، التذكرة ٤٠٤/٢ ، التيسير ١١٣ ، النشر ٢٢٩/٢ .

(٢) ينظر : إعراب النحاس ٢٦٥/٢ ، الحجة لابن خالويه ١٢٤ ، الحجة للفارسي ٣/ ٤٩ ، البحر ٧/٦ ، تفسير أبي السعود ٣٠٩/٣ ، روح المعاني ١٥/٨. ١٦، التحرير والتنوير ٢٥/١٣ .

(٣) ينظر : حجة أبي زرعة ٣٩٦.٣٩٧ ، الكشف ٤٢/٢ ، الكشاف ٤٣٨/٢ ، المحرر الوجيز ٤٣٦/٣ ، زاد المسير ٦/٥ ، تفسير القرطبي ١٨٨/٩ ، الدر المصون ٣٠٩/٧ .

وعلى هذا تزاوج المعنى بين تعليل جعل الكتاب هدىً لبني إسرائيل وذلك لئلا يتخذوا ، أو كراهة أنْ يتخذوا ، وبين تفسير جعل الكتاب هدىً لبني إسرائيل ، أيْ : لا تتخذوا من دوني وكيلاً ، فتضمنت الآية المعنيين تعليلاً وتفسيراً .

الموضع الثالث :

في قوله تعالى : ﴿ قُلِ اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثُوا لَهُ غَيْبَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ أَبْصِرْ بِهِ وَأَسْمِعْ مَا لَهُم مِّن دُونِهِ مِن وَلِيٍّ وَلا يُشْرِكُ فِي حُكْمِهِ أَحَداً ﴾ [الكهف : ٢٦] .

فقد قرأ [١] الجمهور (ولا يشركُ) بالياء ورفع الكاف على الخبر ، وقرأها ابن عامر (ولا تشركْ) بالتاء وجزم الكاف على النهي .

فأما القراءة بالرفع [٢] فعلى أنّ (لا) نافية بمعنى ليس ، والخبر عن الله – تعالى– ، والمعنى : لا يشرك الله في حكمه أحداً مما تفرد به من علم الغيْب .

وأما قراءة الجزم [٣] ، فعلى أنّ (لا) ناهية جازمة ، والوجه أنه على النهي عن الإشراك في حكمه ، وهو خطاب ، والمعنى : لا تشرك أيها الإنسان أحداً في حكمه ، ولا تنسبن أحداً إلى علم الغيب .

هذا ويبين الزجّاج أنّ الآية – بقراءتيها – تدل على أحد معنيين :

" أحدهما : أنه أجرى ذكر علمه وقدرته ، فأعلم– عز وجل– : أنه لا يشرك في حكمه مما يخبر به من الغيب أحداً ، كما قال : ﴿ عَالِمُ الْغَيْبِ فَلا يُظْهِرُ عَلَى غَيْبِهِ أَحَداً ﴾ [الجن : ٢٦] ، وكذلك إذا قرئت : (ولا تُشركْ)– بالتاء– في حكمه أحداً ، أي : لا تنسبن أحداً إلى علم الغيب .

(١) ينظر: السبعة ٣٩٠ ، التذكرة٢/٤١٣ ، التيسير١١٦ ،النشر ٢/٢٣٣ .

(٢) ينظر: معاني الفراء٢/١٣٩، الحجة للفارسي٣/٨٤، الكشف:٢/٥٩، إملاء ما من به الرحمن ١–٢/٣٩٧، تفسير القرطبي١٠/٣٣٧ ، البحر ٦/١١٧.

(٣) ينظر: معاني النحاس ٤/٢٢٩، معاني الأزهري ٢٦٦، حجة أبي زرعة ٤١٥، الموضح ٢/٧٧٨–٧٧٩، زاد المسير ٥/١٣١، الدر المصون ٧/٤٧٢، التحرير والتنوير١٥/٣٠٢.

الثاني : ويكون– والله أعلم ، وهو جيد بالغ – على معنى : أنه لا يجوز أنْ يحكم حاكم إلا بما حكم الله ، أو بما يدل عليه حكم الله ، وليس لأحد أنْ يحكم من ذات نفسه ، فيكون شريكاً لله في حكمه ، يأمر بحكم كما أمر الله – عز وجل – ››[1] .

ومن هنا فالقراءتان تتكاتفان في أنَّ الحكم والغيب لا يكونان إلا لله وحده ، وليس لأحد سواه .

الموضع الرابع :

في قوله تعالى : ﴿ولَقَدْ أَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِي فَاضْرِبْ لَهُمْ طَرِيقَاً فِي الْبَحْرِ يَبَسَاً لا تَخَاف دَرَكَاً وَلا تَخْشَى ﴾ [طه : ٧٧] .

فقد قرأ [2] حمزة (لا تخفْ) بجزم الفاء من دون ألف ، وقرأ الباقون (لا تخافُ) برفع الفاء مع ألف .

فأما قراءة الجزم ؛ ففيها أوجه [3] :

أحدها : أنْ يكون نهياً مستأنفاً ، على أنه ‹‹ نهي من الله لموسى عن الخوف ، كأنه قال : لا تخفْ أنْ يدركك فرعون وجنوده ولا تخشَ الغرق››[4] .

الثاني : أنه نهي في محل نصب على الحال من فاعل (اضرب) وهو محتاج إلى إضمار قول ، أي : مقولاً لك : لا تخف . على أنه آمن من الخوف عند ضربه .

الثالث : على أنه جواب الأمر ، أي : اضرب فإنك إنْ تضربْ لا تخفْ ، ويُستفاد من هذا الوجه أنّ عدم الخوف مترتب على الضرب ، وعلى هذا الوجه لا يُبتدأ بـ (لا تخف) لأنه متعلق بـ (فاضرب) فلا يقطع منه .

---

(٤) معاني الزجاج ٣/٢٨٠ .

(١) ينظر: السبعة ٤٢١، التذكرة ٢/٤٣٣، التيسير ١٢٤، النشر٢/٢٤١ .
(٢) ينظر: إعراب النحاس ٣/٣٥ ، الحجة لابن خالويه ١٤٧، حجة أبي زرعة ٤٥٨–٤٥٩، مشكل مكي ٢/٤٧٠، إملاء ما من به الرحمن١–٢/٤٢١، الدر المصون ٨/٨٢ .
(٣) معاني الأزهري ٢٩٩ .

وعلى هذه القراءة بالجزم يكون في قوله (ولا تخشى)وجوه [١] :

أحدها : أنه مرفوع على الاستئناف ، و التقدير : لا تخف دركاً وأنت لا تخشى ، أي : ومن شأنك أنك آمن لا تخشى ، وهذا الوجه كما في قوله تعالى : ﴿يولّوكمُ الأدبارَ ثمَّ لا يُنصرون﴾ [آل عمران : ١١١] .

الفصل الثالث / المبحث الأول

الثاني : أنه مجزوم مثل (لا تخفْ) ولكن أُشبعت الفتحة فتولّدت ألفٌ مطابقةً لرؤوس الآي ، كما في قوله ﴿ وتظنون بالله الظنونا﴾ [الأحزاب :١٠] و قوله : ﴿ فأضلونا السبيلا﴾ [الأحزاب : ٦٧] .

الثالث : أنه مجزوم بحذف الحركة المقدرة ، نحو قوله : [٢]

لم تهجو ولم تدع .

وأما قراءة الرفع ، ففيها أوجه [٣] كذلك :

الأول : أنه "رفع على الاستئناف بـ (لا) ، كما قال : ﴿وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلاةِ وَاصْطَبِرْ عَلَيْهَا لا نَسْأَلُكَ رِزْقاً﴾ [طه : ١٣٢] ، وأكثر ما جاء في جواب الأمر بالرفع مع لا "[٤] والتقدير : أنت لا تخاف دركاً، و على هذا الوجه يجوز الابتداء به .

الثاني : أنه في موضع نصب على الحال من فاعل (اضرب) ، والتقدير : اضرب لهم طريقاً غيرَ خائف ولا خاشٍ ، أي :آمناً من أنْ يدرككم العدو .

الثالث : أنه صفة لـ (طريقاً) والعائد محذوف ، أيْ: لا تخاف فيه ، وعلى هذه القراءة يكون ﴿ولا تخشى ﴾ معطوفاً عليه مرفوعاً .

(٤) ينظر: معاني الفراء ١٨٧/٢-١٨٨، تفسير الطبري ٥٤٧/٢، زاد المسير ٣١٠/٥ ، تفسير القرطبي ٢٠٥/١١، توجيه مشكل القراءات العشرية ٣٥٦-٣٥٨ .

(١) البيت لأبي عمرو بن العلاء ، معجم الأدباء ١٥٨/١١ .

(٢) ينظر: الحجة للفارسي١٤٨/٣، الكشف١٠٢/٢، الموضح٨٤٧/٢، البحر ٢٦٤/٦، فتح القدير ٤٦٨/٣ .

(٣) معاني الفراء ١٨٧/٢ .

وتتضافر هذه الأوجه في قراءة الرفع على إظهار معنى الأمان والاطمئنان ، كما أفادت أنّ ((تقديم نفي الخوف المذكور ، للمسارعة إلى إزاحة ما كانوا عليه من الخوف العظيم حيث قالوا : إنا لمدركون)) (١) .

ومن هنا يظهر لنا من خلال المزاوجة بين هاتين القراءتين أنّ قراءة الجزم قطعت سبيل الخوف وأرْخت ستار الأمان ، وذلك ما تضمنته قراءة الرفع في أنها ((خبر مراد به البشرى)) المبحث الثاني الفصل الثالث

(٤) تفسير أبي السعود ٤٧٩/٣ .

(٥) التحرير والتنوير ٢٧٠/١٦ .

المبحث الثاني

المزاوجة بين الخبر والنهي

لإظهار دلالات التأكيد

وذلك بحمل إحدى القراءتين على معنى الأخرى

و يكون ذلك عندما تحمِل إحدى القراءتين معنىً ، ثم تؤكد هذا المعنى القراءةُ الأخرى بأسلوب التبادل بين الإنشاء والخبر على أن تخرج في صورة تخالف القراءة الأولى لكنها تُحمَل على معناها .

يظهر ذلك من خلال المواضع الآتية :

الموضع الأول :

في قوله تعالى : ﴿ الْحَجُّ أَشْهُرٌ مَعْلُومَاتٌ فَمَنْ فَرَضَ فِيهِنَّ الْحَجَّ فَلا رَفَثَ وَلا فُسُوقَ وَلا جِدَالَ فِي الْحَجِّ وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ يَعْلَمْهُ اللهُ وَتَزَوَّدُوا فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَى وَاتَّقُونِ يَا أُوْلِي الأَلْبَابِ﴾ [البقرة : ١٩٦] .

فقد قرأ [١] الجمهور (فلا رفثَ ولا فسوقَ ولا جدالَ في الحج) بالفتح من غير تنوين ، وقرأ ابن كثير وأبو عمرو (فلا رفثٌ ولا فسوقٌ) بالتنوين والرفع ، و (ولا جدالَ) بالفتح من غير تنوين .

الفصل الثالث / المبحث الثاني

فأما قراءة الجمهور بفتح [١] الجميع ، فعلى أنَّ (لا) التي هي للتبرئة ، وهي [٢] مع ما بعدها

(١) ينظر : السبعة ١٨٠ ، التذكرة ٢٦٧/٢ ، التيسير ٦٨ ، النشر ١٥٩/٢ .

(١) ينظر : معاني الفراء ١٢٠/١ ، معاني الأزهري ٧٣ ، الحجة لابن خالويه ٤١ ، حجة أبي زرعة ١٢٩ .

في موضع رفع بالابتداء ، وخبره (في الحج) ، أو أنّ ما بعدها اسمٌ لها ، و (في الحج) خبرٌ لها ، و ((أتى بـ (لا) للنفي ، لتدل على النفي العام ، فنفى جميع الرفث و جميع الفسوق ، كما تقول : لا رجل في الدار ، فنفى جميع الرجال)) (٣) ، ومجيء النفي هنا على أنه ((أشد مطابقة للمعنى المقصود ، ألا ترى أنه إذا فتح فقد نفى جميع الرفث والفسوق ، كما أنه إذا قال : (لا ريب فيه) [البقرة : ٢] فقد نفى جميع هذا الجنس ، فإذا رفع ونوَّن فكأن النفي لواحد منه)) (٤) ، كما أن ((إيثار النفي للمبالغة في النهي ، والدلالة على أن ذلك حقيق بأن لا يكون ، فإن ما كان منكراً مستقبحاً في نفسه ففي تضاعيف الحج أقبح)) (٥) ، وعلى هذا يخرج النفي إلى معنى النهي على سبيل التبادل بين الخبر والنهي وذلك أنه ((نفى الرفث والفسوق والجدال نفي الجنس مبالغة في النهي عنها وإبعادها عن الحاج ، حتى جعلت كأنها قد نُهي الحاج عنها فانتهى فانتفت أجناسها)) (٦) .

وأما قراءة ابن كثير وأبي عمرو (٧) ، فعلى أنَّ (لا) بمعنى (ليس) فارتفع الاسم بعدها ، على أنه اسمها ، والخبر محذوف ، والتقدير : فليس رفثٌ ولا فسوقٌ في الحج ، ودلَّ على الخبر المحذوف (في الحج) الذي هو خبر (ولا جدال) ، و يجوز أن ترتفع (رفث وفسوق) بالابتداء ، و(لا) للنفي ، والخبر محذوف أيضاً . وأما (لا) في قوله (ولا جدال) فهي (لا) النافية للجنس .

وإنما قرأ ابن كثير وأبو عمرو الأوَّلَين بالرفع ، والثالث بالنصب ((لأنهما حملا الأولين على معنى النهي ، كأنه قيل : فلا يكوننَّ رفث ولا فسوق ، والثالث على معنى الإخبار بانتفاء الجدال ، كأنه قيل : ولا شك ولا خلاف في الحج)) (٨) ، ففرّقا بين الأولين والآخر على اعتبار أن الرفث

---

(٢) في إعرابها خلاف بين سيبويه والأخفش ، ينظر : الدر المصون ٣٢٥/٢ .

(٣) الكشف ٢٨٦/١ .

(٤) الحجة للفارسي ٤٢١/١ .

(٥) تفسير أبي السعود ٢٤٤/١ ، وينظر : فتح القدير ٢٥١/١ .

(٦) التحرير والتنوير ٢٣٣/٢ .

(٧) ينظر : معاني الزجاج ٢٧٠/١ ، إعراب النحاس ٣٥/١ ، الكشف ٢٨٦/١ ، المحرر الوجيز ٢٧٣/١ ، زاد المسير ٢٧٣ ، تفسير القرطبي ٢٩٢/١ .

(٨) الكشاف ٣٤٧/١ ، وينظر : تفسير النسفي ١١٢/١ .

وهو الجماع ، والفسوق وهي جملة المعاصي [١] منهي عنهما ؛ لأنهما قد يكونان في حال من أحوال الحج ، ولذلك خُصَّا بالنهي في قول الرسول _ صلى الله عليه وسلم _ : " من حج فلم يرفث ولم يفسق رجع كما ولدته أمه ." [٢] دون الثالث وهو الجدال الذي معناه : لاشك في الحج ولا مراء ، فإنه قد استقام أمره وعُرف وقته ، و زال النسيء عنه ، ولذلك ((لما كان معنى الثالثة مخالفاً معنى صاحبتيها في أنها خبر ... وأنّ الأخريين بمعنى النهي الذي أخبر النبي _ صلى الله عليه وسلم _ أن مجتنبهما في حجه مستوجب ما وصف من إكرام الله إياه مما أخبر أنه مكرمه به إذا كانتا بمعنى النهي ، وكان المنتهي عنهما لله مطيعاً بانتهائه عنهما ، ترك ذكر الثالثة إذ لم تكن في معناهما ، وكانت مخالفة سبيلها سبيلهما)) [٣] ، إذ قد يقع الرفث والفسوق في الحج من بعض الناس بخلاف نفي الجدال في الحج فإنه عام ... وهذا يتمشى على عرف النحويين حينما يقولون : لا العاملة عمل (ليس) لنفي الوحدة ، والعاملة عمل (إنّ) لنفي الجنس .

ومن هنا فالمزاوجة بين قراءة الرفع والنصب أعطتنا بعدين لمعنى النفي ، فالقراءة بالرفع خرجت إلى معنى النهي عن وقوع الرفث والفسوق في الحج ، وهو نفي خاص يتناسب مع واقع ضعف النفس البشرية التي قد تقع في المحظور أو لا تقع ، ولذلك جاءت الدعوة من الرسول _ صلى الله عليه وسلم _ محفزة بعدم الوقوع في الرفث والفسوق في الحج ، ليرتفع بهذه النفس البشرية إلى درجة مثلى من السمو فتصبح نقية " رجع كما ولدته أمه " ، يكون ذلك عندما ينتفي عن الحج وعن الحاج كل رفث وكل فسوق نفياً عاماً .

تلك الدرجة المثالية للحج وذلك السلوك المثالي للحاج هو البعد الثاني للنفي والذي تمثله قراءة النصب ، فكأنما ارتقت قراءة الرفع إلى درجة قراءة النصب حيث بُولِغَ في النهي حتى وصل إلى درجة انعدامه وانتفاء جنسه ، ((وإنما أتى في النهي بصورة النفي إيذاناً بأن المنهي عنه مستبعد الوقوع في الحج ، حتى كأنه مما لا يوجد ، ومما لا يصح الإخبار عنه بأنه لا يوجد)) [٤] .

وكأنما مثَّلت قراءة الرفع البعد الواقعي ، ومثلت قراءة النصب البعد المثالي الذي يقتدى به .

---

(١) ينظر : معاني النحاس ١٣٣.١٣٢/١ .

(٢) صحيح مسلم بشرح النووي ١١٩/٩ باب فضل الحج و العمرة .

(٣) تفسير الطبري ٣٧٨/٢ .

(٤) البحر ٩١/٢ .

الموضع الثاني :

في قوله تعالى : ﴿ وَالْوَالِدَاتُ يُرْضِعْنَ أَوْلادَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ لِمَنْ أَرَادَ أَنْ يُتِمَّ الرَّضَاعَةَ وَعَلَى الْمَوْلُودِ لَهُ رِزْقُهُنَّ وَكِسْوَتُهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ لا تُكَلَّفُ نَفْسٌ إِلا وُسْعَهَا لا تُضَارَّ وَالِدَةٌ بِوَلَدِهَا وَلا مَوْلُودٌ لَهُ بِوَلَدِهِ وَعَلَى الْوَارِثِ مِثْلُ ذَلِكَ فَإِنْ أَرَادَا فِصَالاً عَنْ تَرَاضٍ مِنْهُمَا وَتَشَاوُرٍ فَلا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا وَإِنْ أَرَدْتُمْ أَنْ تَسْتَرْضِعُوا أَوْلادَكُمْ فَلا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِذَا سَلَّمْتُمْ مَا آتَيْتُمْ بِالْمَعْرُوفِ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴾ [البقرة : ٢٣٣] .

فقد قرأ (١) نافع وابن عامر وحمزة و الكسائي وعاصم (لا تُضارَّ) بفتح الراء المشددة على النهي ، وقرأ أبو عمرو وابن كثير (لا تُضارُّ) بالرفع على الخبر .

فأما قراءة (٢) (لا تضارَّ) ((بفتح الراء ، جعلوه نهياً ، فسكنت الراء الأخيرة للجزم ، وسكنت الراء الأولى للإدغام ، فالتقى ساكنان ، فحرك الأخير منهما بالفتح لموافقة الألف التي قبل الراء لتجانس الألف والفتحة ، ألا تراهم حين رخّموا " إسحارَ " وهو اسم نبات إذا سمي به حذفوا الراء الأخيرة ، وفتحوا الراء الساكنة التي كانت مدغمة في الراء المحذوفة لأجل الألف قبلها ، ولم يكسروها على أصل التقاء الساكنين ، فراعوا الألف وفتحوا وعدلوا عن الكسر وإنْ كان الأصل)) (٣) ، وأصل (٤) (لا تضارّ) يحتمل وجهين :

الوجه الأول : (لا تُضارَرْ)بفتح الراء الأولى والفك ، للبناء على المفعول ، وتكون (والدة) مفعولاً لم يُسمَّ فاعله ، وبها قرأ عمر بن الخطاب .

(١) ينظر: السبعة ١٨٣، التذكرة ٢٦٩/١،التيسير٦٩/١، النشر ١٧١/٢ .

(٢) ينظر: معاني الزجاج١/ ١٣٣، معاني الأزهري٧٧، الحجة لابن خالويه ٤٣، الحجة للفارسي ٤٤٥/١، حجة أبي زرعة ١٣٦، الموضح ٣٢٨/١، الدر المصون ٤٦٧/٢ .

(٣) البحر: ٢١٥/٢ .

(٤) ينظر: الكشاف ٣٧٠/١ ، المحرر الوجيز٣١٢/١، تفسير القرطبي ١٥٩/٣، تفسير النسفي ١٣٠/١– ١٣١، البحر٢١٥/٢، الدر المصون ٤٦٨/٢، تفسير أبي السعود٢٦٩/١، فتح القدير٣٠٧/١ ، روح المعاني٥٤٠/١ .

الوجه الثاني : (لا تُضارِرْ) بكسر الراء الأولى والفك ، للبناء على الفاعل ، وتكون (والدة) فاعلاً ، وبها قرأ ابن عباس . وعلى هذا الوجه فالمعنى [١] يحتمل ثلاث حالات [٢] :

الأولى : لا تُضارِرْ والدة زوجَها بسبب ولدها بما لا يقدر عليه من رزق وكسوة ، ولا يُضارِرْ مولود له زوجتَه بسبب ولده بما وجب لها من رزق وكسوة . فالباء للسببية .

الثانية : أنَّ يكون (تُضارَّ) بمعنى تَضُرُّ ، وأنْ تكون الباء من صلته ، أي : لا تضرُّ والدة بولدها ، فلا تسيءُ غذاءه وتعهده ، ولا يضرُّ الوالد به بأنْ ينزعه منها بعدما ألفها .

الثالثة : أنّ الباء مزيدة ، وأنّ (ضارَّ) بمعنى ضرَّ ، والتقدير : لا تضرُّ والدة ولدها بسوء غذائه وعدم تعهده ، ولا يضرُّ والد ولده بانتزاعه من أمه بعدَما ألفها ، ونحو ذلك .

وأما قراءة الرفع [٣] (لا تضارُّ) برفع الراء المشددة ، ففيها (لا) نافية ، و (تضارُّ) فعل مضارع مرفوع ناسب ما قبله من قوله : ﴿ لا تُكَلَّفُ نَفْسٌ إلا وُسْعَهَا ﴾ ((لاشتراك الجملتين في الرفع وإنْ اختلف معناهما ؛ لأنّ الأولى خبرية لفظاً ومعنى ، وهذه خبرية لفظاً نهيية في المعنى)) [٤] .

ومن هنا نتبين أنّ قراءة الرفع (لا تضارُّ) على لفظ الخبر خرجت إلى معنى النهي ، إلا أنّ الطبري رد احتمال خروج قراءة الرفع إلى معنى النهي ، فقال : ((وقرأ ذلك بعض أهل الحجاز وبعض أهل البصرة : ﴿ لا تضارُّ والدة بولدها ﴾ رفع ، ومن قرأه كذلك لم يحتمل قراءته معنى النهي ، ولكنها تكون بالخبر عطفاً بقوله : (لا تضارُّ) على قوله ﴿ لا تُكَلَّفُ نَفْسٌ إلا وُسْعَهَا ﴾)) [٥] وقد ردّ ما ذهب إليه الطبري جمعٌ من العلماء ، وقد تضافروا على أنّ الخبر في هذه الآية خرج مخرج النهي ، كالزّجاج [٦] ، والنحّاس [٧] ، وأبي زرعة [٨] ، ومكي بن أبي طالب [٩] ، وابن عطية [١٠] ،

(١) ينظر:معاني الفراء ١٥٠/١ ، تفسير ابن جرير٢/٦٧٥– ٦٧٦، معاني الزجاج ٣١٣/١، معاني النحاس٢١٧/١– ٢١٨، الكشف٢٩٦/١

(٢) ينظر: الدر المصون٤٦٨/٢– ٤٦٩ .

(٣) ينظر: معاني الأخفش١٧٦/١، الموضح ٣٢٨/١ ، زاد المسير ٢٧٢/١ ، الدر المصون ٤٦٧/٢

(٤) البحر ٢١٤/٢–٢١٥.

(٥) تفسير الطبري٦٧٣/٢–٦٧٤ .

(٦) ينظر : معاني الزجاج٣١٣/١ .

(٧) ينظر : معاني النحاس٢١٧/١ .

(٨) ينظر : حجة القراءات ١٣٦ .

(٩) ينظر : الكشف ٢٩٦/١ .

(١٠) ينظر : المحرر الوجيز ٣١٢/١

وأبي شامة [١] ، والقرطبي [٢] ، والنسفي [٣] ، وابن عاشور [٤] ، فكل هؤلاء أكدوا أنّ الخبر في هذه الآية ذهب إلى معنى النهي ((فإنْ قلت : إنّ ذلك خبر ، وهذا أمر ؟ قيل : فالأمر قد يجيء على لفظ الخبر في التنزيل ، ألا ترى إلى قوله : ﴿ والمطلقاتُ يتربصْنَ بأنفسهن ﴾ [البقرة : ٢٢٨] ، وقوله : ﴿ تُجاهدونَ في سَبيل الله ﴾ [الصف : ١١])) [٥] . فالخبر في قوله (يتربصن) خرج إلى معنى الأمر بتقدير : ليتربصْن ، والخبر في قوله : (تجاهدون) خرج إلى معنى : جاهدوا ، ((وهو خبر في معنى الأمر ، ولهذا أجيب بقوله : ﴿ يغفرْ لكم ﴾ وتدل عليه قراءة ابن مسعود : آمنوا بالله ورسوله وجاهدوا ، فإنْ قلتَ : لِمَ جيء به على لفظ الخبر ؟ قلتُ : للإيذان بوجوب الامتثال ، وكأنه أُمتُثِلَ ، فهو يخبر عن إيمان وجهاد موجودين ، ونظيره قول الداعي : غفر الله لك ويغفر الله لك : جُعِلَتْ المغفرة لقوة الرجاء كأنها كانت ووُجِدَتْ)) [٦] ، وهو شائع في القرآن الكريم كقوله تعالى : ﴿ وَالْوَالِدَاتُ يُرْضِعْنَ أَوْلادَهُنَّ ﴾ [البقرة : ٢٣٣] وقوله : ﴿ لا تَظْلِمُونَ ولا تُظْلَمُونَ ﴾ [البقرة : ٢٧٩] .

وعلى هذا فقراءة ابن كثير وأبي عمرو ((على البدلية والرفع وهو خبر وجوّز أنْ يكون خبراً بمعنى الأمر ، فيتحد معنىً بقراءة الجزم)) [٧] ، ومن ثم فالقراءتان تتحدان في معنى النهي ، ((ومعنى الآية في كل قراءة : النهي عن أنْ تضارَّ الوالدة زوجها المطلق بسبب ولدها ، وأنْ يضارها هو بسبب الولد)) [٨] .

إذن فالمزاوجة بين الخبر والنهي في هذه الآية أثْرت السياق وأكسبته قوة ؛ وذلك أنّ قراءة الخبر أكّدت قراءة النهي ، واتّحدت معها فيما خرجت إليه من النهي عن وقوع الإضرار .

---

(١) ينظر : إبراز المعاني ٣٥٨/٣

(٢) ينظر : تفسير القرطبي ١٥٩/٣ .

(٣) ينظر : تفسير النسفي ١٣٠/١

(٤) ينظر : التحرير والتنوير٤٣٤/٢ .

(٥) الحجة للفارسي ٤٤٥/١، و ينظر: حجة أبي زرعة ١٣٦، الكشف٢٩٦/١ .

(٦) الكشاف ١٠٠،٩٩/٤.

(٧) حاشية الشهاب ٥٤٨/٢

(٨) المحرر الوجيز ٣١٢/١.

كما أنّ المزاوجة بين هاتين القراءتين وسّعت دائرة المتضررين– حفاظاً على حق كل واحد منهم– فشملت بالنهي وقوع الضرر بالوالدة أوْ بالوالد أو بالولد وذلك ((أنه لما كان الفاعل محذوفاً وحكم الفعل في سياق النهي كما هو في سياق النفي عُلم أنّ جميع الإضرار منهي عنه أياً ما كان فاعله)) (١) .

الموضع الثالث :

في قوله تعالى : ﴿ قَالَ قَدْ أُجِيبَتْ دَعْوَتُكُمَا فَاسْتَقِيمَا وَلا تَتَّبِعَآنِّ سَبِيلَ الَّذِينَ لا يَعْلَمُونَ﴾ [يونس : ٨٩] .

فقد قرأ (٢) الجمهور (ولا تَتَّبعانِّ) بتشديد النون مكسورة ، وقرأ ابن ذكوان عن ابن عامر (و لا تَتَّبعانِ) بنون خفيفة مكسورة .

فأما قراءة التشديد (ولا تتبعانِّ) فـ (لا) فيها للنهي (٣) ؛ ولذلك أكّد الفعل بعدها بالنون المشددة ، وحركت لالتقاء الساكنين ، واختير لها الكسر لأنها اشبهت نون الاثنين . والمعنى : ((النهي لهما عن سلوك طريقة من لا يعلم بعادة الله سبحانه في إجراء الأمور على ما تقتضيه المصالح تعجيلاً وتأجيلاً)) (٤) .

وأما قراءة التخفيف فـ (لا) فيها تحتمل وجهين (٥) :

إما نافية وإما ناهية :

فإنْ كانت (لا) نافية كانت النونُ نونَ الرفع ، ويكون للجملة وجهان (٦) :

---

(١) التحرير والتنوير ٢/ ٤٣٥ .

(٢) ينظر : السبعة ٣٢٩، التذكرة ٣٦٧/٢ ، التيسير ١٠٠ ، النشر ٢/ ٢١٥ .

(٣) ينظر : معاني الزجاج ٣١/٣ ، الحجة لابن خالويه ١٠٣ ، حجة أبي زرعة ٣٦٣ ، تفسير القرطبي ٣٣٥/٧ ، توجيه مشكل القراءات العشرية ٢٨٠ .

(٤) فتح القدير ٥٩٨/٢ .

(٥) ينظر: إملاء ما من به الرحمن ٢٠١ /٣٢٩ ، الدر المصون ٢٦٢/٦ .

(٦) ينظر : الحجة للفارسي ٣٧٣/٢ ، الكشف ٥٢٢/١ ، المحرر الوجيز ١٤٠/٣ ، الموضح ٦٣٦/٢ ، زاد المسير ٥٩/٤ ، البحر ١٨٨/٥ .

الأول : أنْ تكون خبراً في معنى النهي ، كما في قوله تعالى : ﴿ لا تعبدون إلا الله ﴾ [البقرة : ٨٣] والمعنى : لا ينبغي أنْ تتبعا .

الثاني : أن تكون في موضع الحال من (استقيما) ، والتقدير : فاستقيما غيرَ متبعين ، أيْ : فاستقيما وأنتما لا تتبعان سبيل الذين لا يعلمون .

وإنْ كانت (لا) ناهية كانت النونُ نونَ التوكيد الخفيفة ، وهي المخفّفة من النون المشدّدة في قراءة الجمهور فتكون بمعناها .

وبهذا تتزاوج القراءتان في إظهار معنى النهي عن اتباع سبيل الذين لا يعلمون وذلك بأسلوبين متقاربين حيث عملت قراءة الخبر على تأكيد قراءة النهي .

الموضع الرابع :

في قوله تعالى : ﴿ وَمَن يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلا يَخَافُ ظُلْماً وَلا هَضْماً ﴾ [طه : ١١٢] .

فقد قرأ [١] ابن كثير (فلا يخفْ ظلماً) بجزم الفاء على النهي . وقرأ الباقون (فلا يخافُ ظلماً) بالرفع على الخبر .

فأما القراءة على النهي [٢] ، فعلى أن (لا) ناهية ، و (يخفْ) مجزوم بها ، وعلامة الجزم سكون الفاء ، وسقطت الألف لسكونها وسكون الفاء ، ولكن هذا النهي يراد به الخبر ، فإن المؤمن الصالح لا خوف عليه ، « وذلك لأن المعنى : من يعمل من الصالحات وهو مؤمن فليأمن ، والمراد بالكلام الإخبار ، كأنه قال : من يعمل من الصالحات وهو مؤمن فلا خوف عليه ، فهذا من النهي المراد به الخبر » [٣] ، وعلى هذا فخروج النهي إلى معنى الخبر يوحي بأنّ جواب الشرط أصبح خبراً

(١) ينظر: السبعة ٤٢٤، التذكرة٢/٤٣٥ ، التيسير١٢٤ ، النشر ٢/٢٤٢ .

(٢) ينظر: الحجة للفارسي٣/١٥٦ ،حجة أبي زرعة٤٦٤، الكشف٢/١٠٧ ، الكشاف٢/٥٥٤ ،زاد المسير٥/٣٢٤ ،البحر٦/٢٨١ .

(٣) الموضح٢/٨٥٤ .

بتقدير : ومن يعمل من الصالحات وهو مؤمن أمنَ من الظلم والهضم ، على جهة التأكيد لأنه آمنٌ منْه بإيمانه وعمله الصالحات .

وأما القراءة بالرفع والألف على الخبر [١] ، فالوجه أنه على تقدير مبتدأ محذوف مراد بعد الفاء . كأنه قال :فهو لا يخاف ظلماً ، وتكون الجملة بعد الفاء جواباً للشرط ، أو أنها ((استئناف غير مقصود بها الجزاء ، كأنّ انتفاء خوفه أمر مقرر لأنه مؤمن ويعمل الصالحات)) [٢] وعلى هذا فالتعبير بالجملة الاسمية في حالة الرفع على وجه الجزاء أو الاستئناف يفيد تحقيق أمْن المؤمن ونجاته [٣] من الظلم أو الهضم .

ومن هنا نتبين ((أنّ قراءة الجمهور توافق قوله تعالى ﴿ وقدْ خابَ من حمَل ظلماً ﴾ في أنّ كلتا الجملتين خبرية ، وقراءة ابن كثير تفيد عدم التردد في حصول أمنه من الظلم والهضم . أي في قراءة الجمهور خصوصية لفظية ، وفي قراءة ابن كثير خصوصية معنوية)) [٤] و ذلك سبيل المزاوجة بين هاتين القراءتين إذ قامت قراءة النهي بتأكيد قراءة الخبر . كل ذلك لتأكيد التأنيس والتطمين والبشارة للمؤمنين . فهم أحوج ما يكونون إلى هذا التطمين في ذلك الموقف الصعب الرهيب حينما تعنو الوجوه للحي القيوم ، ويخيم الجلال والصمت والرهبة على ذلك الموقف ((فالكلام همس ، والسؤال تخافت ، والخشوع ضاف ، والوجوه عانية ، وجلال الحي القيوم يغمر النفوس بالجلال الرزين ، ولا شفاعة إلا لمن ارتضى الله قوله ، والعلم كله لله ، وهم لا يحيطون به علماً ، والظالمون يحملون ظلمهم فيَلقون الخيبة ، والذين آمنوا مطمئنون لا يخشون ظلماً في الحساب ولا هضماً لما عملوا من صالحات ، إنه الجلال يغمر الجو كله ويغشاه في حضرة الرحمن)) [٥] .

---

(١) ينظر : الحجة لابن خالويه ١٤٩ ، تفسير القرطبي ٢٢٢/١١، الدر المصون ١٠٩/٨، تفسير أبي السعود ٤٩٢/٣ .

(٢) التحرير والتنوير٣١٣/١٦.

(٣) هذا ما أكده الزمخشري في تعليله لتقدير الجملة الاسمية في قراءة الرفع(فلا يخاف) في موضع سورة الجن من قوله تعالى (فلا يخاف بخساً ولا رهقاً) إذ قال: " ولأنّ الكلام في تقدير مبتدأ وخبر دخلت الفاء، ولولا ذاك لقيل : لا يخف، فإنْ قلت: أي فائدة في رفع الفعل وتقدير مبتدأ قبله حتى يقع خبراً له ووجوب إدخال الفاء، وكان ذلك كله مستغنىً عنه بأنْ يُقال: لا يخف؟ قلتُ: الفائدة فيه أنه إذا فعل ذلك فكأنه قيل: فهو لا يخاف، فكان دالاً على تحقيق أنّ المؤمن ناجٍ لا محالة ، وأنه مختص بذلك دون غيره" الكشاف:١٦٩/٤ .

(٤) التحرير والتنوير ٣١٣/١٦ .

(٥) في ظلال القرآن ٢٣٥٣.٢٣٥٢/٤ .

الفصل الرابع

المزاوجة

بين الخبر والنداء

وأثرها

في إثراء دلالات السياق

الفصل الرابع

المزاوجة بين الخبر والنداء

وأثرها في إثراء دلالات السياق

تدور المزاوجة بين قراءات الخبر وقراءات النداء حول حرف النداء (يا) وجوداً وتقديراً ، فإن وُجد دلَّ على النداء بالتصويت ولفت الانتباه وتهيئة النفس لما بعده ، وإن لم يوجد جاز تقديره محذوفاً ، وفي حذفه تقريب للمنادى من المتكلم وتلطيف له ، وإن لم يقدَّر كان السياق خبراً دالاً على معنى القطع والإثبات ، ومنهما تظهر دلالات الدعاء والاعتذار والدعوة والبيان ، وذلك من خلال تزاوجهما كما في المباحث الآتية :

المبحث الأول : المزاوجة بين الخبر والنداء لإثراء السياق بدلالات الإقرار والخضوع .

المبحث الثاني : المزاوجة بين الخبر والنداء لإثراء السياق بدلالات البيان والنصح والإرشاد .

المبحث الأول

المزاوجة بين الخبر والنداء

لإثراء السياق بدلالات الإقرار والخضوع

يظهر من خلال المزاوجة بين قراءة الخبر وقراءة النداء أنَّ قراءة الخبر تبعث معاني المبالغة والتأكيد والإقرار ، وأنَّ قراءة النداء تفيض بمعاني التضرع والخضوع والابتهال ، ويكون محصِّلتهما تأكيد وإقرار الخضوع والتضرع ، كما في المواضع الآتية :

الموضع الأول :

في قوله تعالى : ﴿ وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعاً ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُواْ أَيْنَ شُرَكَآؤُكُمُ الَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُون ۞ ثُمَّ لَمْ تَكُن فِتْنَتُهُمْ إِلاَّ أَن قَالُواْ وَاللّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ﴾ [الأنعام : ٢٢ – ٢٣] .

فقد قرأ [١] حمزة والكسائي ﴿ واللهِ ربَّنا ﴾ بفتح الباء على النداء ، وقرأها الباقون ﴿ واللهِ ربِّنا ﴾ بجرها .

فأما قراءة النصب [٢] ﴿ واللهِ ربَّنا ﴾ ، فعلى أنَّ (ربَّنا) منادى ، وانتصابه على أنه منادى مضاف ، وقد فصل هذا المنادى بين القسَم والمُقسَم عليه ، والتقدير : والله يا ربَّنا ما كنا مشركين ، وهذا النداء دعاءٌ ((فيه معنى الخضوع والتضرع حين لا ينفع ذلك)) [٣] ، وذلك أنَّ قولهم : ﴿ وَاللّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ ﴾ جوابٌ لسؤال الله لهم ﴿ أَيْنَ شُرَكَآؤُكُمُ الَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ ﴾ فقد

(١) ينظر: السبعة ٢٥٥ ، التذكرة ٣٢١/٢، التيسير ٨٤، النشر ١٩٣/٢.

(٢) ينظر : معاني الفراء ٣٣٠/١، تفسير الطبري ٢٢١/٧، معاني الزجاج ٢٣٦/٢، معاني النحاس ٤٠٧/٢-٤٠٩، معاني الأزهري ١٥٠، الحجة لابن خالويه ٧٢، حجة أبي زرعة٢٤٤، الكشاف ١١/٢، البحر ٩٥/٤-٩٦.

(٣) الكشف ٤٢٧/١.

حلفوا على الكذب ، وذلك ((أنهم إذا رأوا إخراج من في النار من أهل الإيمان ضجّوا ، فيوقفون ويقال لهم : أين شركاؤكم ! فينكرون طماعيةً منهم أنْ يُفعل بهم ماُ فعل بأهل الإيمان)) [1] ، وفي صحيح البخاري[2] أنَّ رجلاً قال لابن عباس : إني أجد في القرآن أشياء تختلف عليّ ، فذكر منها قوله : ﴿ وَلاَ يَكْتُمُونَ اللّهَ حَدِيثاً ﴾ [النساء : ٤٢] وقوله : ﴿ وَاللّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِين ﴾ ، فقد كتموا في هذه الآية : فقال ابن عباس : إنَّ الله يغفر لأهل الإخلاص ذنوبهم ، فيقول المشركون تعالوا نقل : ما كنّا مشركين ، فيختم على أفواههم فتنطق أيديهم ، فعند ذلك عرفوا أنَّ الله لا يُكتَم حديثاً .

وإنما استعملوا النداء في قولهم : ﴿ وَاللّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِين ﴾ من خلال هذا القسَم ((لإظهار الضراعة والابتهال في استدعاء قبول المعذرة ، وإنما يقولون ذلك مع علمهم بأنه بمعزل من النفع رأساً من فرط الحيرة و الدهش)) [3]، فهم قالوا ذلك الدعاء طلباً للمعذرة بعد الذي أصابهم من شدة ذلك الموقف ، ولا يذهب عن هذا المعنى من جعل (ربَّنا) منصوباً على الثناء أو على إضمار (أعني) .

وأما قراءة الخبر ﴿ واللهِ ربِّنا ﴾ بالجر [4] ، فعلى أنَّ (ربِّنا) نعت أو بدل من لفظ الجلالة المقسَم به ((وذكرهم الرَّب بالإضافة إلى ضميرهم مبالغة في التنصّل من الشرك ، أيْ : لا ربَّ لنا غيره)) [5] ، وما تلك إلاّ حيلة الضعيف ، فهم يبالغون في إثبات ربوبية الله لهم في ذلك الموقف ، ويبالغون في التبرؤ من الشرك ، لشدة ضعفهم وفقر حيلتهم ، وهو المعنى الذي يؤكد معنى قراءة النصب على النداء حال خضوعهم وتضرعهم .

ومن هنا فإن قراءة الخبر ، تؤكد قراءة النداء في إظهار حال الخضوع و الضراعة لقبول الاعتذار .

---

(١) المحرر الوجيز ٢/٢٧٨.

(٢) ينظر : صحيح البخاري، كتاب التفسير، أول تفسير سورة حم السجدة فصلت.

(٣) تفسير أبي السعود ٢/١٣٥.

(٤) ينظر : معاني الأخفش ٢/٢٧٠ ، معاني الأزهري ١٥ ، الحجة للفارسي ٢/١٥٣ ، الموضح ١/ ٤٦٣ ، الدر المصون ٤/٥٧٥ ، الإرشادات الجلية ١٣٧ .

(٥) التحرير والتنوير ٧/١٧٧ .

الموضع الثاني :

في قوله تعالى : ﴿ وَلَمَّا سُقِطَ فِي أَيْدِيهِمْ وَرَأَوْا أَنَّهُمْ قَدْ ضَلُّوا قَالُوا لَئِنْ لَمْ يَرْحَمْنَا رَبُّنَا وَيَغْفِرْ لَنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴾ [الأعراف : ١٤٩] .

فقد قرأ (١) حمزة و الكسائي و خلف ﴿ لَئِنْ لَمْ تَرْحَمْنَا رَبَّنَا وَتَغْفِرْ لَنَا ﴾ بالتاء فيهما ، و نصب (ربَّنا) على النداء ، وقرأ الباقون بالياء فيهما ، ورفع (ربُّنا) على الخبر .

فأما قراءة النداء (٢) ﴿ لَئِنْ لَمْ تَرْحَمْنَا رَبَّنَا وَتَغْفِرْ لَنَا ﴾ ، فعلى أنَّ ((التاء في الفعلين على الخطاب لله _جلَّ ذكره _ وفيه معنى الاستغاثة و التضرع و الابتهال في السؤال و الدعاء ، وبنصب (ربَّنا) على النداء ، وهو أيضاً أبلغ في الدعاء و الخضوع)) (٣) ، فهم قالوا ذلك دعاءً ونداءً عسى أنْ يرحمهم الله ويغفر لهم ذنبهم ، ((ولَمَّا كان هذا الذنب وهو اتخاذ غير الله إلهاً أعظم الذنوب بدؤوا بالرحمة التي وسعت كل شيء ، ومن نتاجها غفران الذنب)) (٤) ، فـ ((تقديم الرحمة على المغفرة مع أنَّ التخلية حقها أنْ تقدم على التحلية إما للمسارعة إلى ما هو المقصود الأصلي ، وإما لأنَّ المراد بالرحمة مطلق إرادة الخير بهم وهو مبتدأ لإنزال التوبة المكفرة لذنوبهم)) (٥) .

وأما قراءة الخبر (٦) ﴿ لَئِنْ لَمْ يَرْحَمْنَا رَبُّنَا وَيَغْفِرْ لَنَا ﴾ ، فعلى أنَّ الياء في الفعلين للغائب ، و رفع (رَبُّنَا) على أنه فاعل ، وهذا القول على قراءة الخبر فيه معنى الإقرار بالعبودية ، و الانقطاع

(١) ينظر : السبعة ٢٩٤ ، التذكرة ٣٤٧/٢ ، التيسير ٩٣ ، النشر ٢٠٤/٢ .

(٢) ينظر : معاني الفراء ٣٩٣/١ ، إعراب النحاس ٧٢/٢ ، الحجة لابن خالويه ٩٠ ، الحجة للفارسي ٢٧١/٢ ، الكشاف ١١٨/٢ ، المحرر الوجيز ٤٥٦/٢، تفسير النسفي ٤٤١/١ ، الدر المصون ٤٦٥/٥ ، روح المعاني ٦٢/٥ .

(٣) الكشف ١ / ٤٧٧ .

(٤) البحر ٣٩٤/٤ .

(٥) تفسير أبي السعود ٢٩٨/٢ .

(٦) ينظر : تفسير الطبري ٨٥٨٤/٩ ، معاني الأزهري ١٩٠ ، حجة أبي زرعة ٢٩٧ ، الموضح ٥٥٧.٥٥٦/٢ ، زاد المسير ٢٦٣/٣ ، تفسير القرطبي ٢٥٢/٧ ، فتح القدير ٣١٦/٢ .

إلى الله _ تعالى _ والاعتراف بعظيم ما أقدموا عليه ، فهو ((توبة و إنابة ، وقد علموا أنهم أخطؤوا خطيئة عظيمة ولذلك أكَّدوا التعليق الشرطي بالقسم الذي وطَّأته اللام)) (١) .

ومن هنا فالقراءتان تؤكدان معنى الاستكانة والخضوع والتضرع لقاء ما أخطؤوا في حق الله _سبحانه وتعالى_ إلا أنَّ أبا حيان يلفتنا إلى معنى دقيق في المزاوجة بين القراءتين إذ يقول : ((ويحتمل أنْ يكون القولان صدرا منهم جميعهم على التعاقب ، أو هذا من طائفة وهذا من طائفة ، فمَن غلب عليه الخوف وقوي على المواجهة خاطب مستقيلاً من ذنبه العظيم ، ومَن غلب عليه الحياء أخرج كلامه مخرج المستحيي من الخطاب فاسند الفعل إلى الغائب ، وفي قولهم ربنا استعطاف حسن ، إذ الرَّبّ هو المالك الناظر في أمر عبيده والمصلح منهم ما فسد)) (٢) .

وعلى هذا استوعبت المزاوجة هاتين القراءتين ، وجمعت بينهما في موقف واحد ، بلْ ورصدت الموقف بجوانبه التفصيلية ، ووظَّفت كل قراءة في الجانب الذي يتناسب مع معناها ، أو خالجت النفوس البشرية والطبائع الجبلية ، فراعت اختلاف فطرها ، وتغاير طبيعتها ، وأعطت كل جبلَّة القراءةَ التي تتلاءم مع مبناها ... ذلك سر من أسرار هذا النظم القرآني الفريد .

(١) التحرير والتنوير ١١٣/٩ .

(٢) البحر ٣٩٤/٤ .

المبحث الثاني

المزاوجة بين الخبر والنداء

لإثراء السياق بدلالات البيان والاستعطاف

وذلك عندما تدل قراءة الخبر على البيان والإيضاح ، وتخرج قراءة النداء إلى مراد الاستعطاف والنصح والإرشاد ، كما في المواضع الآتية :

الموضع الأول :

في قوله تعالى :﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لأَبِيهِ آزَرَ أَتَتَّخِذُ أَصْنَاماً آلِهَةً إِنِّي أَرَاكَ وَقَوْمَكَ فِي ضَلالٍ مُبِينٍ ﴾ [الأنعام : ٧٤] .

فقد قرأ [١] يعقوب (لأبيْه آزرُ) بضم الراء على النداء ، وقرأ الباقون (لأبيه آزرَ) بفتحها .

فأما القراءة بالفتح [٢] (آزرَ) ، فعلى أنه بدل من (أبيه) ، أوْ عطف بيان مجرور بالفتحة نيابة عن الكسرة ؛ لأنه ممنوع من الصرف للعلمية والعجمة ، فهو اسمٌ لأبي إبراهيم _عليه السلام _ أعجمي على وزن فاعَل ، وقيل هو لقب لأبي إبراهيم ، وقيل هو صفة ، بمعنى المعوجّ ، كما قاله الفراء [٣] ، أو بمعنى المخطىء كما قاله الزَّجاج [٤] ، أو بمعنى الشيخ الهرم بالفارسية كما قاله

(١) ينظر: التذكرة ٣٢٨/٢، النشر ١٩٥/٢.

(٢) ينظر: معاني الأخفش ٢٧٨/٢، إعراب النحاس ١٧/٢، الكشاف ٢٩/٢– ٣٠، زاد المسير ٧٠/٣– ٧١، البحر ١٦٣/٤– ١٦٤، الدر المصون ٤/ ٦٩٥– ٦٩٧.

(٣) ينظر : معاني الفراء ٣٤٠/١.

(٤) ينظر : معاني الزجاج ٢٦٥/٢.

الضحاك ، ولكنَّ مسألة الوصفية أشكلتْ من ثلاث جهات إعرابية : فقد أشكلت من ناحية منعه من الصرف ، وأشكلتْ من ناحية وصف المعرفة (أبيه) به وهو نكرة ، وأشكلتْ من ناحية حذف حرف النداء على قراءة الضم ـ كما سيأتي بيانه ـ وقد رُدَّ على هذه الإشكالات بجوابات ليس هذا موضعها ، وقيل إنَّ (آزر) اسم صنم كان يعبده أبوه ، فنُبِزَ به لمّا لازم عبادته ، وقيل غير ذلك .

وأقرب[1] هذه الأقوال ما ذكره أبو حيان : ((و الظاهر أنَّ آزر اسم أبيه قاله ابن عباس والحسن والسدي وابن إسحاق وغيرهم ، وفي كتب التواريخ أنَّ اسمه بالسريانية تارَح ، والأقرب أنَّ وزنه فاعَل مثل : تارَخ وعابَر ولازَب وشالَح وفالَغ ، وعلى هذا يكون له اسمان كيعقوب وإسرائيل وهو عطف بيان أو بدل)) [2] ، وقال الزركشي : ((أعربوا (آزر) من قوله تعالى :﴿ وإذ قال إبراهيم لأبيه آزر ﴾ بدلاً . قال ابن عبد السلام : والبدل لا يكون إلا للبيان ، والأب لا يلتبس بغيره ، فكيف حَسُنَ البدل ؟ والجواب : أن الأب يطلق على الجد ، بدليل قوله : ﴿ آبائي إبراهيم وإسحاق ويعقوب ﴾ ، فقال : "آزر"لدفع توهم المجاز)) [3] .

ومن هنا أفادت قراءة الخبر زيادة بيان ، وهو أنَّ اسم أبي إبراهيم ـ عليه السلام ـ هو آزر ، ولا عجب في ذلك ، إذ هو الموضع الوحيد الذي ذكر وزاد هذه الكلمة (آزر) من بين سياقات قصة إبراهيم في القرآن الكريم ، ومعلوم أنَّ قصص القرآن تتكامل بمجموعها ، فيزاد في هذا الموضع ما ليس في ذلك الموضع ، وقد بُيِّنت هذه الزيادة في هذا الموضع من خلال قراءة الخبر بالفتح .

---

(١) قال الشيخ أحمد شاكر: أما أن اسم والد إبراهيم (آزر) فإنه عندنا أمر قطعي الثبوت بصريح القرآن في هذه الآية بدلالة الألفاظ على المعاني ، وأما التأويل والتلاعب بالألفاظ ، فما هو إلا إنكار مقنع لمضمون الكلام ومعناه ، وسواء أكان اسمه في قول أهل النسب نقلاً عن الكتب السابقة (تارح) أو لم يكن ، فلا أثر له في وجوب الإيمان بصدق ما نص عليه القرآن ، وبدلالة لفظ (لأبيه) على معناه الوضعي في اللغة ، والقرآن هو المهيمن على ما قبله من كتب الأديان السابقة . ثم يقطع كل شك ، ويذهب بكل تأويل ، الحديث الصحيح الذي رواه البخاري ٢٧٩/٦ عن أبي هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : (يلقى إبراهيم أباه آزر يوم القيامة ، وعلى وجه آزر قترة وغبرة ، فيقول له إبراهيم : ألم أقل لك : لا تعصني ... إلى آخر الحديث) . وليس بعد هذا النص مجال للتلاعب ... ينظر : (كلمة الحق ٣٠٢ – ٣١٠) .

(٢) البحر ١٦٣/٤ .

(٣) البرهان في علوم القرآن ٤٦٢/٢ .

أما قراءة الضم [١] (آزرُ) ، فعلى أنها منادى حذفت منه (يا) ، والتقدير : يا آزرُ ، وهذا ما يؤيد أنَّ (آزر) اسمٌ علمٌ لأبي إبراهيم _ عليه السلام _ وليس وصفاً ، إذ إن أداة النداء لا تحذف مع الصفة إلا شذوذاً في الشعر ، في حين أنها يسوغ حذفها مع الأعلام [٢] ؛ لأنَّ نداء الأسماء والأعلام أكثر ، فيطلب بحذفها التخفيف ما لا يطلب في غيرها .

وحذف أداة النداء فيه تقريب للمنادى من المتكلم ، وتلطيف لمحلِّه عنده ، و هو كما قال الزمخشري في قوله تعالى : ﴿ يوسفُ أعرضْ عن هذا ﴾ [يوسف : ٢٩] ، ((حذف منه حرف النداء ؛ لأنه منادى قريب مفاطن للحديث ، وفيه تقريب له وتلطيف لمحله)) [٣] ، وهو ما دل عليه السياق من استعطاف إبراهيم _ عليه السلام _ لأبيه لينصحه بلطف ويبيِّن له ضلال عبادة الأصنام ، وذلك ما يتسق مع سياق هذه الآيات إذ حاول بعد ذلك أنْ يرشده وقومه إلى طريق النظر والاستدلال ، وإقامة الحجج والبراهين بكل وسائل الإقناع العقلية والمنطقية ﴿ فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ اللَّيْلُ رَأَى كَوْكَباً ...﴾[الأنعام : ٧٦] ، كل ذلك تنزيلاً لرأيه وتصحيحاً لوضعه بكل لطف وأدب . كما يتفق هذا الاستلطاف مع سياق الآيات الأخرى لقصة إبراهيم _ عليه السلام_ كما في قوله : ﴿ يا أبتِ لِمَ تعبدُ ما لا يسمعُ ولا يبصرُ ولا يغني عنك شيئا ﴾ [مريم : ٤٣] ، فيتجلى تلطفه واستقرابه من أبيه في قوله : ﴿ يا أبت ﴾ وأنه ((كيف رتَّب الكلام معه في أحسن اتساق ، وساقه أرشق مساق ، على استعمال المجاملة واللطف والرفق واللين والأدب الجميل والخلق الحسن منتصحاً في ذلك بنصيحة ربه _ عزَّ و علا _)) [٤] إلى أنْ قال : (سلام عليك ...) .

ومن هنا أفادت المزاوجة بين هاتين القراءتين أنَّ قراءة الخبر تضمنت زيادة بيان في أنَّ (آزر) اسم لأبي إبراهيم _ عليه السلام _ ، أما قراءة النداء فقد استفاضت بالعطف واللطف الذي يتناسب مع نداء إبراهيم _ عليه السلام _ لوالده في سياق النصح والإرشاد .

---

(١) ينظر : معاني النحاس ٤٤٨/٢، معاني الأزهري ١٥٧، الموضح ٤٧٧/١، إملاء ما من به الرحمن ٢٥٥/١، تفسير القرطبي ٢٤/٦، القراءات وأثرها في التفسير والأحكام ٩١٥/٢ .

(٢) ينظر: أساليب الطلب عند النحويين والبلاغيين ٢٦٧– ٢٧٥ .

(٣) الكشاف ٣١٥/٢ .

(٤) الكشاف ٥١٠/٢ .

الموضع الثاني :

في قوله تعالى ﴿ وَجَدْتُهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ فَهُمْ لا يَهْتَدُونَ۞ أَلا يَسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي يُخْرِجُ الْخَبْءَ فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا تُخْفُونَ وَمَا تُعْلِنُونَ۞ اللَّهُ لا إِلَهَ إِلا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيم ﴾ [النمل : ٢٤ – ٢٦] .

فقد قرأ (١) أبو جعفر و الكسائي (ألاَ يا اسْجدوا) بتخفيف (ألاَ) والوقف على (ألا يا) بالألف ، والابتداء بقوله (اسجدوا) بهمزة مضمومة ، وقرأ الباقون (ألاّ يسجدوا) بتشديد اللام ، و (يسجدوا) كلمة واحدة على لفظ الخبر .

فأما قراءة التشديد (ألاّ يسجدوا) فعلى أنّ أصلها (أنْ لا) فأدغمت النون في اللام ، و (أنْ) هي الناصبة دخلت على (لا) ، و (يسجدوا) مضارع حذفت منه نون الرفع لدخول (أنْ) عليه ، وتقدير هذه القراءة فيه وجوه (٢) :

الأول : أنها في موضع نصب على البدل من (أعمالكم) ، على تقدير : وزيّن لهم الشيطان ألا يسجدوا . ويكون ما بين البدل والمبدل منه معترضاً .

الثاني : أنها في موضع خفض على البدل من (السبيل) ، على تقدير : فصدهم عن ألا يسجدوا ، وتكون (لا) صلة كقوله تعالى : (مَا مَنَعَكَ أَلاَّ تَسْجُدَ) [الأعراف : ١٢] ، فيكون التقدير : فصدهم عن السجود ، ويكون (فهم لا يهتدون) معترضاً بين البدل والمبدل منه .

الثالث : أنها في موضع نصب بـ (يهتدون) ، على تقدير : فهم لا يهتدون أن يسجدوا ، وتكون (لا) صلة أيضاً ، فالمعنى : فهم لا يهتدون إلى السجود ، وهو منصوب بنزع الخافض . كما يجوز أن تكون في موضع جر بإعمال الخافض .

---

(١) ينظر: السبعة ٤٨٠، التذكرة ٢/٤٧٤– ٤٧٥، التيسير ١٣٦، النشر ٢/ ٢٥٣.

(٢) ينظر: تفسير الطبري ١٩/ ١٨٢، إعراب النحاس ٣/ ١٤١، الحجة للفارسي ٣/٢٣٤، حجة أبي زرعة ٥٢٧– ٥٢٨، الكشف ٢/ ١٥٧، إملاء مامن به الرحمن ٢/ ٤٦٨، تفسير القرطبي ١٣/ ١٦٧، البحر ٧/٦٨، الدر المصون ٨/٦٠٢، روح المعاني ١٠/١٨٦، التحرير والتنوير ١٩/ ٢٥٤– ٢٥٥.

الرابع: أنها في موضع نصب مفعول له على حذف اللام ، وهو في هذه الحالة إما أن يتعلق بـ (زيَّن) على تقدير : فزين لهم الشيطان أعمالهم لئلا يسجدوا ، وإما أن يتعلق بـ (صدّ َ) على تقدير : فصدهم عن السبيل لئلا يسجدوا .

وفي جميع هذه الوجوه لا يحسن الوقف على (يهتدون) لأنّ ما بعده إما معمول له ، أو لما قبله من (زيّن) و (صدّ) ، أو بدل مما قبله من (أعمالهم) ، أو من (السبيل) ، والمعنى الحاصل من كل هذه الوجوه هو ذمهم على عدم سجودهم لله سبحانه وتعالى ، و خضوعِهم لأمر الشيطان ووسوسته ، و بالجملة فهي ((خبرٌ عنهم بترك السجود ، إما بالتزيين ، أو بالصدّ ، أو بمنع الاهتداء)) [1] .

وأما قراءة التخفيف [2] (ألاَ يا اسجدوا) ، فعلى أن (ألاَ) للاستفتاح والتنبيه ، و (يا) حرف نداء حذفت منه الألف لالتقاء الساكنين و هما ألف (يا) و سين (اسجدوا) ، وحذفت ألف (اسجدوا) لكونها في حالة الوصل ، فأصبحت صورتها (ألاَ يَسْجدوا) على النداء ، والمنادى ههنا محذوف ، والتقدير : ألا يا هؤلاء ، أو يا قوم اسجدوا ، وقد حذفت العرب المنادى كثيراً من كلامها ، و منه قول الشاعر [3] :

ألا يا اسلمي يا دار ميَّ على البلى ولا زال منهَلاً بجرعائك القطرُ

أراد : يا هذه اسلمي .

و مثله قول الآخر [4] :

يا لعنةُ اللهِ و الأقوام كلهم والصالحين على سِمْعَانَ من جارِ

أراد : يا هؤلاء لعنة الله ، أي : الزموا لعنة الله على سمعان .

ومثله قول الآخر [5] :

---

(١) تفسير القرطبي ١٣/١٦٧.

(٢) ينظر: معاني الفراء ٢/٢٩٠، معاني الزجاج ٤/١١٥-١١٦، معاني النحاس ٥/١٢٦-١٢٧، معاني الأزهري ٣٥٦، المحرر الوجيز ٤/٢٥٦-٢٥٧، الموضح ٢/٩٥٤-٩٥٥، زاد المسير ٦/١٦٦، تفسير أبي السعود ٤/١٩٦، فتح القدير ٤/١٦٥-١٦٦، الإرشادات الجلية ٣٤٥.

(٣) البيت من الطويل لذي الرمة في ديوانه ص١٠٢ ، الجرعاء : الرمل الممتد ، المنهل : الجاري ، القطر : المطر.

(٤) البيت من البسيط لسالم بن دارة وهو في شواهد سيبويه ص ٩٤.

(٥) البيت من الطويل للنمر بن تولب في ديوانه ص ٣٣٥، والخطة: بضم الخاء وتشديد الطاء : شبه القصة .

فقالت ألا يا اسمعْ نعظك بِخُطةٍ فقلتُ : سميعاً فانطقي و أجيبي

أراد : ألا يا هذا اسمع .

كما أن العرب تقول : ألا يا ارحمونا ، أي : ألا يا هؤلاء ارحمونا .

و بذلك يكون المعنى على هذه القراءة : ألا يا قوم اسجدوا ، أو ألا يا هؤلاء اسجدوا ، ((فحذفت الأسماء و قامت (يا) مقامها ، وكان هذا الحذف في النداء خاصة لأنه موضع حذف التنوين إذا قلت : يا زيدُ)) [1] ، وحاصل الأمر ((أنه جعله تنبيهاً واستفتاحاً للكلام ، ثم نادى بعده فاجتزأ بحرف النداء من المنادى لإقباله عليه و حضوره ، فأمرهم حينئذٍ بالسجود)) [2] .

هذا و قد اختلف النحاة في حذف المنادى ، وذلك إذا ولي الفعل أو الحرف حرف (يا) ، فذهب بعضهم إلى أن (يا) مستعملة في هذه الحالة أداة للنداء ، والمنادى محذوف ، فيرى الفراء أن قراءة (ألا يا اسجدوا)[النمل : ٢٥] على حذف المنادى ، أي : يا هؤلاء اسجدوا [3] ، ويقول ابن قتيبة : ((ومن الحذف قوله سبحانه ﴿ ألا يسجدوا لله الذي يخرج الخبء ﴾ أراد : ألا يا هؤلاء اسجدوا لله)) [4] ، ويقول الزمخشري في قوله تعالى ﴿ ألا يتقون ﴾ [الشعراء : ١١] : ((وفي (ألا يتقونِ) _ بالياء وكسر النون _ وجه آخر ، وهو أن يكون المعنى : ألا يا ناس اتقون ، كقوله : (ألا يا اسجدوا))) [5]، كما يقول : ((وقد يحذف المنادى فيقال : (يا بؤسٌ لزيد) بمعنى : يا قوم بؤس لزيد . ومن أبيات الكتاب :

يا لعنةُ اللهِ والأقوامِ كلهمُ والصالحين على سِمعان من جارِ [6]

وفي التنزيل : (ألا يا اسجدوا) قال ابن يعيش : ((اعلم أنهم كما حذفوا حرف النداء لدلالة المنادى عليه كذلك أيضاً قد يحذفون المنادى لدلالة حرف النداء عليه)) [7].

---

(١) حجة أبي زرعة ٥٢٧ عن قطرب .

(٢) الحجة لابن خالويه ١٦٩.

(٣) ينظر : معاني الفراء ٢/٢٦٠ .

(٤) تأويل مشكل القرآن ٢٢٣ .

(٥) الكشاف ٣/١٠٦ .

(٦) مر في الصفحة السابقة .

(٧) شرح المفصل ١/٢٤ .

وقد عدَّ السيوطي إضمار المنادى في مثل هذه المواضع من سنن [١] العرب في كلامهم .

وذهب آخرون إلى أن المنادى إنما يقدر محذوفاً إذا ولي أداة النداء فعل أمر وما جرى مجراه ، يقول ابن مالك : « وقد يحذف المنادى قبل الأمر والدعاء فتلزم (يا) ، وإن وليها (ليت) أو (رب) أو (حبذا) فهي للتنبيه لا للنداء » [١] ، وقالوا إنما اختص هذا التقدير بفعل الأمر لسببين [٢] : (الأول) : أن النداء لا يكاد ينفك عن الأمر وما جرى مجراه من الطلب والنهي ، حتى صار الموضع منبهاً على المنادى إذا حذف وبقيت الأداة (يا) .

(الثاني) : أن (المنادى) مخاطب و (المأمور) مخاطب ، فحذفوا الأول من المخاطبين اكتفاء بالثاني عنه .

وأنكر بعضهم جميع ذلك وقالوا : إن (يا) في مثل هذه التراكيب الواردة عن العرب ، ليست أداة نداء والمنادى محذوف ، وإنما هي مجرد أداة تنبيه ، لأن المنادى لا يجوز حذفه لئلا يلزم الإجحاف بحذف الجملة كلها ، لأنه قد حذف الفعل العامل في النداء ، وانحذف فاعله لحذفه ، ولو حذفنا المنادى لكان في ذلك حذف جملة النداء وحذف متعلقه وهو المنادى [٣] ، فكان ذلك إخلالاً كبيراً .

وكان سيبويه أول من أشار إلى أن (يا) مستخدمة في مثل هذه المواضع لمجرد التنبيه ، فهي عنده كما تستخدم في النداء لتنبيه المنادى ، قد تستخدم في الأمر لتنبيه المأمور ، يقول : « و أما (يا) فتنبيه ، ألا تراها في النداء ، وفي الأمر كأنك تنبه المأمور ، قال الشاعر : (وهو الشماخ) [٤] :

ألا يا اسقياني قبل غارة سنجال   وقبل منايا قد حضرن وآجال » [٥]

ويرى ابن جني أنّ (يا) المستعملة في النداء ، في نحو (يا زيد) ، تفيد معنيين : (التنبيه) و (النداء) ، ولكنها في مواضع أخرى قد تخلع معنى (النداء) وتخلص لمعنى (التنبيه) ، يقول

---

(٨) ينظر : المزهر ٣٣٧/١ .

[١] تسهيل الفوائد وتكميل المقاصد ١٧٩ .

[٢] ينظر : الإنصاف ١٠٣/١ .

[٣] ينظر : معاني الأخفش ٢ / ٤٢٩ ، البحر ٦٩/٧ ، ٩٣،٩٢/١ ، الدر المصون ٦٠١،٥٩٨/٨ .

[٤] البيت من الطويل ، ديوان الشماخ بن ضرار ص ٢٤ ، وسنجال : قرية بأرمينية وقيل بأذربيجان .

[٥] الكتاب ٢٢٤/٤ .

في " باب خلع الأدلة " : ((ومن ذلك (يا) في النداء ، تكون (تنبيهاً) و (نداءً) في نحو (يا زيد) و (يا عبد الله) . وقد تجردها من النداء للتنبيه البتة ، نحو قول الله تعالى : ﴿ ألا يا اسجدوا ﴾ كأنه قال : ألا ها اسجدوا .. وهو كقولهم : (هلم) في التنبيه على الأمر . وأما قول أبي العباس : " إنه أراد : ألا يا هؤلاء اسجدوا " فمردود عندنا)) [1] ، ويقول أيضاً : ((فإن قلت : فقد قال الله سبحانه : ﴿ ألا يا اسجدوا ﴾ فجاء بـ (يا) ولا منادى معها ، قيل : (يا) في هذه الأماكن قد جردت من معنى (النداء) وخلصت (تنبيهاً) . ونظيرها في الخلع من أحد المعنيين وإفراد الآخر : (ألا) ، لها في الكلام معنيان : (افتتاح الكلام) و (التنبيه) ، نحو قول الله سبحانه : ﴿ ألا إنهم من إفكهم ليقولون ﴾ [الصافات : ١٥١] ، فإذا دخلت على (يا) خلصت (ألا) افتتاحاً وخص التنبيه بـ (يا) ، وذلك كقول نصيب [2] (كذا) :

ألا يا صبا نجد متى هجت من نجد فقد زادني مسراك وجداً على وجد)) [3]

أما البلاغيون فقد أشار السكاكي منهم إلى هذا الموضوع ، وهو يرى أن (يا) في هذه المواضع مستعملة أداة للنداء والمنادى محذوف ، يقول : ((وإن حذف المنادى كنحو (يا بؤس لزيد) و (ألا يا اسلمي) جائز)) [4] .

وعلى كلا القولين فنحن لم نخرج عن المزاوجة بين الخبر والإنشاء ، إما مزاوجة بين الخبر والنداء ، أو مزاوجة بين الخبر والأمر ، وكلاهما يخرج إلى معنى الاستعطاف ، إذ أن ((وجه دخول حرف التنبيه على الأمر أنه موضع يحتاج إلى استعطاف المأمور لتأكيد ما يؤمر به عليه ، كما أن النداء موضع يحتاج فيه إلى استعطاف المنادى له من إخبار أو أمر أو نهي ، ونحو ذلك مما يخاطب به)) [5].

---

[1] الخصائص ٢/ ١٩٦ .

[2] البيت من الطويل وهو لابن الدمينة .

[3] الخصائص ٢/ ٢٧٨ . ٢٧٩ ، وينظر : ٣٧٦. ٣٧٧ .

[4] مفتاح العلوم ١٠٣ .

[5] الحجة للفارسي ٣/٢٣٤ .

وعوداً إلى قراءة (ألا يا اسجدوا) فإن الكلام على هذه القراءة يكون منقطعاً مما قبله على أنّ ما قبله تامٌ عند قوله (يهتدون) ، ويكون ما بعده كلاماً معترضاً ، و ((يحتمل أنْ يكون الكلام استئنافاً من كلام الهدهد ، إما خطابا لقوم سليمان – عليه السلام – للحث على عبادة الله تعالى ، أو لقوم بلقيس لتنزيلهم منزلة المخاطبين ، ويحتمل أن يكون استئنافاً من جهة الله _عز وجل _ أو من سليمان _عليه السلام _كما قيل ، وهو حينئذٍ بتقدير القول . ولعل الأظهر احتمال كونه استئنافاً من جهته _عز وجل _خاطب _سبحانه_ به هذه الأمة)) [1] .

وعلى هذا تكون هذه القراءة معترضة بين الكلام الملقى لسليمان وبين جواب سليمان ، بخلاف القراءة الأخرى ولذلك قال الزمخشري : ((فإن قلت : هل يفرق الواقف بين القراءتين ؟ قلت : نعم ، إذا خفّف وقف على : (فهم لا يهتدون) ، ثم ابتدأ : (ألا يا اسجدوا) ، وإن شاء وقف على (ألا يا) ثم ابتدأ (اسجدوا) ، وإذا شدَّد لم يقف إلا على (العرش العظيم))) [2] .

هذا وقد استبعد هذه القراءة أبو جعفر النحاس عندما قال ((وهذا موجود في كلام العرب ، إلا أنه غير معتاد أن يقال : يا قَدِمَ زيد ، والقراءة به بعيدة لأن الكلام يكون معترضاً ، والقراءة الأولى يكون الكلام متسقاً)) [3] ، ولكن هذا الكلام يحرم النص من الإحاطة بكل معانيه ، من خلال تعاضد القراءتين ، فضلاً عن ((أنهما قراءتان مستفيضتان في قراءة الأمصار ، قد قرأ بكل واحدة منهما علماء من القراء مع صحة معنييهما)) [4] ، كما أن المزاوجة بين القراءتين تبين لنا مدى ترابط المعنى وترتيبه ((وكأنه لمّا قيل : (وزيّن لهم الشيطان أعمالهم فصدهم عن السبيل فهم لا يهتدون) فدلّ هذا الكلام على أنهم لا يسجدون لله تعالى ، ولا يتدينون بدين ، قال : ألا يا قوم أو يا مسلمون اسجدوا لله الذي يخرج الخبء في السموات والأرض ، خلافاً عليهم ، وحمداً لله ، ومكان ما هداهم لتوحيده ، فلم يكونوا مثلهم في الطغيان و الكفر)) [5] فجاء التعقيب بقراءة النداء حثاً وتوجيهاً إلى عبادة الله

---

(١) روح المعاني ١٠/١٨٦-١٨٧.

(٢) الكشاف ٣/١٤٥.

(٣) إعراب النحاس ٣/١٤٢.

(٤) تفسير الطبري ١٩/١٨٢.

(٥) الحجة للفارسي ٣/٢٣٤، وينظر : حجة أبي زرعة ٥٢٦.

مترتباً على الاعتبار من حال البعد عن الله وعدم الديانة الذي ذمته قراءة الخبر ، فترتب الحث على الذم .

وعليه نستطيع أنْ نلمس مدى ترابط القراءتين وذلك من خلال اتحاد هدفهما وهو تحقيق السجود لله تعالى ، ((فإن قلت أسجدة التلاوة واجبة في القراءتين جميعاً أم في إحداهما ؟ قلت : هي واجبة فيهما جميعاً ؛ لأن موضع السجدة إما أمر بها ، أو مدح لمن أتى بها ، أو ذمّ لمن تركها ، وإحدى القراءتين أمر بالسجود ، والأخرى ذم للتارك)) [١] ، فالمؤمنون يسجدون لله تعالى من خلال قراءة النداء امتثالاً للأمر الوارد فيها ، وكذلك يسجدون لله تعالى من خلال قراءة الخبر اتعاظاً واعتباراً وخلافاً لحال المعرضين ، كما هو الحال عندما ((أخبر الله عن الكفار بأنهم لا يسجدون كما في (الانشقاق) [٢] وسجد النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ فيها كما ثبت في البخاري [٣] وغيره ، فكذلك (النمل))) [٤].

كما أن المزاوجة بين هاتين القراءتين على اعتبار أن إحداهما معترضة ، وهو الأمر الذي جعلها مستبعدة وغير متسقة مع السياق ! ولكن الأمر سيظهر بخلاف ذلك ، فالمزاوجة هنا تكشف لنا عن هدف تربوي سلوكي وهو أن التوجيه والبيان لا يؤخر عن وقت الحاجة ، بل يكون مرتبطاً بوقت وقوع الخطأ لا متأخراً عنه ، ولو كان ذلك من خلال جملة اعتراضية دخلت بين ركنين ، وهو أسلوب [٥] وارد في القرآن وفي الشعر كثيراً ، فتحقيق الهدف يقتضي دخولها في الوقت المناسب ، وهو الأمر الذي حصل من خلال ترتُّب قراءة النداء ـ وهي جملة اعتراضية ـ على تصحيح الخطأ الذي ذمّته قراءة الخبر ، ومن هنا يظهر لنا دور القراءتين في ترابط المعنى وتماسكه ، وأن كل قراءة جاءت لتأدية هدف لا غنى للسياق عنه ، ذلك لم يكن لولا أسلوب المزاوجة .

وبعد كل هذه المعاني التي أتاحها لنا أسلوب المزاوجة بين القراءتين هل يمكن لنا القول باستبعاد [١] قراءة (ألا يا اسجدوا) لأنها لا تناسب السياق ؟

---

(١) الكشاف ١٤٥/٣.

(٢) الآية : ﴿ وَإِذَا قُرِئَ عَلَيْهِمُ الْقُرْآنُ لا يَسْجُدُونَ ﴾[الانشقاق : ٢١] .

(٣) ينظر : صحيح البخاري حديث رقم ١٠٧٤.

(٤) تفسير القرطبي ١٦٨/١٣-١٦٩.

(٥) ينظر : الخصائص ٣٣٥/١-٣٤١، الصاحبي ٢٤٥، مغني اللبيب ٥٠٦-٥١٦.

الفصل الخامس

المزاوجة

بين الخبر والتمني

وأثرها في إثراء دلالات السياق

(٦) ينظر : رد صاحب كتاب توجيه مشكل القراءات العشرية على النحاس استبعاده قراءة (ألا يا اسجدوا) ص٣٩٠- ٣٩٢.

الفصل الخامس

المزاوجة بين الخبر والتمني وأثرها

في إثراء دلالات السياق

عند المزاوجة بين قراءة الخبر وقراءة التمني فإنها تعمل على إظهار دلالات السياق المشتركة بين صور التمني وصور الإخبار ، فعندما تتزاوج قراءة الخبر مع قراءة التمني فإنهما تتبادلان في تصوير أحوال النفس بين حالات الإخبار والإقرار وحالات التمني وترجمة الخواطر والحاجات عبر حروف (ليت) ، ويكون ذلك من نفسين مختلفتين في حال واحدة ، أو من نفس واحدة في حالين مختلفتين ، والقاسم المشترك بينهما هو اختلاف طبيعة النفس البشرية واختلاف حاجاتها وأحوالها . ذلك ما سيظهر من خلال الموضع الآتي :

في قوله تعالى :﴿ وَلَوْ تَرَىٰ إِذْ وُقِفُواْ عَلَى النَّارِ فَقَالُواْ يَا لَيْتَنَا نُرَدُّ وَلاَ نُكَذِّبَ بِآيَاتِ رَبِّنَا وَنَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ۝ بَلْ بَدَا لَهُم مَّا كَانُواْ يُخْفُونَ مِن قَبْلُ وَلَوْ رُدُّواْ لَعَادُواْ لِمَا نُهُواْ عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ﴾ [الأنعام : ٢٧ – ٢٨] .

فقد قرأ [١] حمزة ويعقوب وحفص بنصب الباء والنون ﴿ وَلاَ نُكَذِّبَ بِآيَاتِ رَبِّنَا وَنَكُونَ من الْمُؤْمِنِين ﴾ فيهما ، و وافقهم ابن عامر في (ونكونَ) ، وقرأ الباقون بالرفع فيهما .

فأما قراءة [٢] النصب (ولا نكذبَ ونكونَ) ، فعلى أنهما مضارعان منصوبان بإضمار (أنْ) بعد الواو التي بمعنى (مع) ، فينسبك من (أنْ) المصدرية ومن الفعل بعدها مصدر ، ويقدَّر قبله مصدر متوهم فينعطف عليه ، كأنه قيل : يا ليت لنا رداً ، وانتفاءَ تكذيبٍ ، وكوناً من المؤمنين ، أي : يا ليت لنا رداً مع هذين الشيئين ، فيكون عدم التكذيب والكون من المؤمنين متمنَّيْن أيضاً ، فيتعلق التمني بالأمور الثلاثة مجتمعة ، وذلك لأنَّ الواو في (ولا نكذب ونكون) شرط إضمار (أنْ) بعدها أن تصلح (مع) في مكانها ، وعلى هذا ((فالأفعال الثلاثة من حيث المعنى متمناة على سبيل الجمع بينهما ، لا أنّ كل واحد متمنى وحده ، إذاً التقدير كما قلنا يا ليتنا يكون لنا رد مع انتفاء التكذيب وكون من المؤمنين)) [٣] ، هذا وقد قيل إنَّ الفعلين منصوبان على أنهما جواب للتمني ، وقد رُدَّ هذا الوجه بأنَّ التمني إنما يجاب بالفاء ، كقوله تعالى : ﴿يا لَيتَنِي كُنتُ مَعَهُمْ فَأَفُوزَ فَوْزاً عَظِيماً﴾ [النساء : ٧٣] والواو والفاء معناهما مختلفان ، [٤] كما أشكل هذا الوجه من جهة أنه تمني ، والتمني إنشاء ، والإنشاء لا يدخله الصدق والكذب _كما أثبتناه سابقاً_ فكيف جاء قوله : ﴿ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُون ﴾ تعقيباً على تمنيهم ؟ وظاهره أنَّ الله أكذبهم في تمنيهم . وقد رُدَّ هذا الإشكال من عدة أوجه [٥] :

(١) ينظر : السبعة ٢٥٥ ، التذكرة ٣٢٢/٢، التيسير ٨٤، النشر ١٩٣/٢ .

(١) ينظر: معاني الزجاج ٢٣٩/٢، الحجة للفارسي ١٥٤/٢، الكشف ٤٢٧/١–٤٢٨، الدر المصون ٥٨٧/٤–٥٨٨، تفسير أبي السعود ١٣٨/٢، روح المعاني ١٢١/٤–١٢٢، تفسير المنار ٣٥٢/٧.

(٢) البحر ١٠٢/٤.

(٣) ينظر: الكتاب ٤١/٣–٤٦، البحر ١٠١/٤–١٠٢، روح المعاني ١٢١/٤–١٢٢.

(٤) ينظر: الكشاف ١٣/٢، المحرر الوجيز ٢٨٢/٢، البحر ١٠٢/٤، الدر المصون ٥٨٥/٤–٥٨٦.

الأول : أن قوله : ﴿ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُون﴾ ليس متعلقاً بالمتمنى ، بل هو إخبار من الله أنَّ سجيَّة هؤلاء الكفار هي الكذب ، فيكون ذلك حكاية وإخباراً عن حالهم وديدنهم في الدنيا .

الثاني : أنَّ هذا تمنٍ تضمن معنى العِدَة ، فجاز أنْ يتعلق به التكذيب ، كما يقول الرجل : ليت الله يرزقني مالاً فأحسن إليك وأكافئك على صنيعك ، فهذا متمنٍ في معنى الوعد ، فلو رزقه مالاً ولم يحسن إلى صاحبه ولم يكافئه كذب ، كأنه قال : إن رزقني الله مالاً كافأتك على الإحسان .

الثالث : أنْ يكون التكذيب ليس في تمنيهم وإنما في إخبارهم – على قراءة القطع والاستئناف كما ستأتي– على معنى أنَّ الأمر في نفسه بخلاف ما قصدوا لأنهم قصدوا الكذب .

وأما قراءة الرفع [1] (ولا نكذبُ ونكونُ) ، ففيها ثلاثة أوجه :

الأول : أنْ يكونا معطوفَين على (نُرَدُّ) ، فيكون انتفاء التكذيب والكون من المؤمنين داخلين في التمني . أي : وليتنا لا نكذبُ ، وليتنا نكونُ من المؤمنين .

وهذا الوجه يتعاضد مع وجه النصب _ السابق _ في أنهم تمنوا الرد وعدم التكذيب والإيمان على سواء ، وذلك بطريق العطف ، ففي وجه النصب كان العطف على مصدر من الرد متوهم ، والعطف هنا على نفس الفعل (نرد) .

الثاني : أنْ يكونا مقطوعَين عن (نُرَدُّ) ، فيستأنف بهما جملة جديدة مبتدؤها محذوف، والتقدير : يا ليتنا نرد ، ونحن لا نكذبُ ونكونُ ، وعلى هذا الوجه يكون المتمنى هو الرد وحده ، ثم ((يخبرون على البتات أنْ لا يكذبوا ويكونوا من المؤمنين)) [2] ، وأنهم يصدر ذلك عنهم على كل حال ، رُدُّوا أو لم يُرَدُّوا ، وكأنهم ((يَعِدون بالإيمان وعدم التكذيب وعداً خبرياً مؤكداً غير مقيد بإجابتهم إلى ما يتمنون)) [3] ، وشبّه سيبويه [1] هذا الوجه بقولهم : دعني ولا أعودُ ، أي : وأنا لا أعودُ على كل حال ، تركتني أو لم تتركني .

(١) ينظر: إعراب النحاس ٧/٢، معاني القراءات١٥١، الحجة لابن خالويه ٧٣، حجة أبي زرعة ٢٤٥، الكشاف ١٢/٢–١٣، زاد المسير ٢٤.٢٣/٣، تفسير القرطبي ٣٧٥/٥، تفسير النسفي٣٦٠/١ .

(٢) الحجة للفارسي ١٥٤/٢ .

(٣) تفسير المنار ٣٥١/٧ .

الثالث : أنْ يكونا في موضع نصب على الحال ، والتقدير : يا ليتنا نردُ غير مكذبين وكائنين من المؤمنين ، فيكون تمني الرد مقيداً بهاتين الحالتين ، وذلك على أنهم رجعوا عن التكذيب عندما وقفوا على النار ، وحصل لهم الإيمان القاطع بصدق الرسول ، وأنَّ ما كان يدعوهم إليه حق قاطع ، فتمنوا أنْ يعودوا إلى الدنيا مصاحبين لذلك متلبسين بهما، ويختلف هذا الوجه عن سابقه في أنَّ التصديق والإيمان يحصل قبل التمني ثم يتمنون الرجوع إلى الدنيا ، وهم على تلك الحال من التصديق والإيمان ، أما في الوجه السابق فحصول الإيمان والتصديق يكون بعد التمني وذلك أنهم يتمنون الرجوع إلى الدنيا ثم يخبرون أنهم سيكون منهم تصديق وإيمان .

ومن هنا رأينا أنهم تارة يتمنون وتارة يخبرون ، وحاصل المزاوجة بين القراءتين على كافة الوجوه أنها تصور كل تلك الوجوه في مشهد أولئك الموقوفين وتبيِّن اختلاف أحوالهم في ذلك الموقف فـ ((منهم منْ يتمنى أنْ يرد إلى الدنيا ، وأنْ يكون فيها غيرَ مكذب بآيات الله الكونية والمنزلة ، وأنْ يكون من المؤمنين ، ومنهم من يتمنى الرد مصاحباً لما حدث له في الآخرة من الندم على التكذيب ، ومن الإيمان بما جاء به الرسول ، إذ لا تلازم بين الرد و بقاء ذلك الأمر الحادث ، ومنهم من يتمناه ليكون سبباً للإيمان وعدم التكذيب ، ومنهم من يَعِدُ بذلك وعْداً ، وهذا الاختلاف في كيفيات التمني أقرب إلى الحصول من اتفاق أولئك الكفار الكثيرين على كيفية واحدة ومما يدل عليه اختلاف القراءات ؛ لأنه هو المعهود من البشر ، ولعلهم يتمنون ذلك جاهلين أنه محال ، على أنَّ الناس يتمنون المحال ولو على سبيل التحسر)) [٢] .

هذا وإنْ كان الاختلاف في كيفيات وأحوال ذلك التمني بين الموقوفين في ذلك الموقف يرجع إلى اختلاف طبيعة البشر ، فإنَّ المزاوجة تكشف لنا عن وجه آخر من أسرار السياق ، وهو أنَّ الاختلاف يرجع كذلك إلى اختلاف أصناف الموقوفين ، وهو ما تباينت فيه أقوال المفسرين في مردِّ

---

(٤) ينظر : الكتاب ٣/٤٤ .

(١) تفسير المنار ٧/٣٥٢.

الضمير (لهم) من قوله تعالى في الآية التالية : ﴿ بَلْ بَدَا لَهُم مَّا كَانُواْ يُخْفُونَ مِن قَبْل ﴾ ، فقيل هم المشركون ، وقيل هم المنافقون ، وقيل هم اليهود والنصارى ، وقيل هم كفار مكة ، وقيل هم الأتباع والرؤساء ، وقيل غير ذلك ... فإنَّ المزاوجة تضم كل تلك الأقوال وتحشد كل تلك الفلول والأصناف على اختلاف طبائعهم البشرية ، واختلاف مللهم الدينية ، تحشد كل أولئك وتجمعهم في مشهد واحد ، وآية واحدة ، ليكون لكل صنف متمنّاه ، ولكل قول مبتغاه ... وعندها تُفغر الأفواه ، وتُسبّح الشفاه ، وتخرّ الجباه سجّداً للذي رفع الجباه ...

الخـاتـمـة

قامت هذه الدراسة على فكرة المزاوجة بين الخبر والإنشاء من خلال القراءات القرآنية العشرية ، وتتبعت هذه الظاهرة من خلال المزاوجة بين قراءات الخبر وقراءات الاستفهام ، وقراءات الخبر وقراءات الأمر ، وقراءات الخبر وقراءات النهي ، وقراءات الخبر وقراءات النداء ، وقراءات الخبر وقراءات التمني . ولقد توصلت هذه الدراسة إلى النتائج الآتية :

- أنّ الخبر والإنشاء طبيعتان متغيرتان ، لكن هذا التغاير يذوب ويختفي في ظل إطار فكرة المزاوجة .
- أن المزاوجة عبارة عن عملية تفاعلية لبناء معنى السياق ، و ذلك من خلال عملية الربط بين دلالات الأسلوبين المتغايرين على سبيل التكامل و التأييد .

أما التكامل فيكون بالجمع بين الأسلوبين المتغايرين و معنييهما المختلفين ؛ إذ تقوم المزاوجة بعملية بناء السياق من خلال الربط بينهما و جعلهما في صورتين متعاقبتين ، أو صورتين متقابلتين أو صورة واحدة مركبة أو غير ذلك . . .

و أما التأييد فيكون من خلال التقوية أو التأكيد .

فأما التقوية فتكون من خلال تنوع الأسلوبين المتغايرين ، على أن أحدهما يتضمن معنى الآخر ، فتقوم المزاوجة بتقوية أحدهما بالآخر تضامناً .

و أما التأكيد فيكون من خلال تنوع الأسلوبين المتغايرين و معنييهما المتحدين ؛ فتقوم المزاوجة بتأكيد أحدهما بالآخر ، فيحصل تأكيد المعنى لأنه جاء بأسلوبين متغايرين .

- أنَّ فكرة المزاوجة تفضّ الاشتباك المتوهم بين القراءات القرآنية ، وهي أوْلى من عملية التصويب والترجيح بينها .
- أنَّ النظم القرآني هو عبارة عن تعدُّد القراءات القرآنية في الموضع الواحد تعدُّدَ تكامل وبناء ، فكلتا القراءتين تقوم بعملية بناء هذا النظم القرآني .
- أنَّ فكرة المزاوجة بين الخبر والإنشاء تختلف عن فكرة التبادل بين الخبر والإنشاء ، وذلك أنّ التبادل يحصل لأنّ السياق يوجبه و يقتضيه بسبب تعارض أحد طرفيه مع السياق ، فليس من مهرب إلا بالتبادل وإحلال أحدهما محل الآخر وذلك خروجاً عن مقتضى الظاهر. أما المزاوجة فإنّ السياق لا يحكمها بل هي التي تحكمه وتشكّله وترسم حدوده وأطره ، وذلك من خلال تفعيل ومشاركة كل طرف من الأطراف مما يثري النص ويضفي عليه صفة التكاملية ، ولذلك فالمزاوجة أعم وأشمل من التبادل ، ويمكن للتبادل أنْ يندرج ضمن عملية المزاوجة في أحد طرفيها . كما أنّ المزاوجة تأخذ بدلالة الأسلوبين معاً ، أما التبادل فلا يأخذ إلا بدلالة أحد الأسلوبين فقط .
- أن التبادل يكون بين الخبر والأمر أو الخبر والنهي والعكس وذلك من خلال الآية أحادية القراءة ، أما المزاوجة فتكون بين الخبر وكل قسم من أقسام الإنشاء الطلبي وهي الأمر والنهي والاستفهام والنداء والتمني . وذلك من خلال الآية ثنائية القراءة .
- تبين من خلال الدراسة أنّ المزاوجة بين الخبر والاستفهام من أكثر ظواهر القراءات القرآنية وروداً في القرآن ، وأنّ الهمزة أكثر الأدوات الاستفهامية وروداً في القراءات القرآنية ، وأنّ أكثر الدلالات البلاغية الناتجة عن محصلة المزاوجة بين قراءات الخبر وقراءات الاستفهام هي دلالات الإنكار بنوعيه .

و آخر دعوانا أن الحمد للّه رب العالمين

المصادر و المراجع

- إبراز المعاني من حرز الأماني ، لأبي شامة ، تحقيق محمود بن عبد الخالق محمد جادو ، ١٤١٣هـ .
- أثر القراءات القرآنية في الدراسات النحوية ، للدكتور / عبد العال سالم مكرم ، جامعة الكويت ، الكويت .
- أدب الكاتب ، لابن قتيبة ، تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد ، م.السعادة ، مصر ، الطبعة الرابعة ، ١٣٨٢هـ – ١٩٦٣م .
- أساليب الاستفهام في القرآن ، لعبد العليم السيد فوده ، المجلس الأعلى لرعاية الفنون والآداب .
- أساليب الطلب عند النحويين والبلاغيين ، للدكتور / قيس إسماعيل الأوسي ، بغداد ، ١٩٨٨م .
- أساليب بلاغية ، للدكتور / أحمد مطلوب ، الناشر وكالة الطباعة ، بغداد ، الطبعة الأولى ، ١٩٧٩م – ١٩٨٠م .

- أسباب النزول ، لأبي الحسن علي بن أحمد الواحدي ، تحقيق د . السيد الجميلي ، دار الكتاب العربي ، بيروت– لبنان ، الطبعة الرابعة ، ١٤١٢هـ–١٩٩١م .
- إعجاز القرآن ، للقاضي أبي بكر الباقلاني ، دار ومكتبة الهلال ، بيروت ، الطبعة الأولى ، ١٩٩٣م .
- إعراب القرآن ، لأبي جعفر ابن النحاس ، تحقيق عبد المنعم خليل إبراهيم ، دار الكتب العلمية ، بيروت– لبنان ، الطبعة الأولى ، ١٤٢١هـ – ٢٠٠١ م .
- الإبانة عن معاني القراءات ، لمكي بن أبي طالب القيسي ، تحقيق د. عبد الفتاح إسماعيل شلبي ، المكتبة الفيصلية ، مكة المكرمة ، الطبعة الثالثة ١٤٠٥هـ _ ١٩٨٥م .
- الإتقان في علوم القرآن ، للإمام السيوطي الشافعي ، تحقيق محمد سالم هاشم ، دار الكتب العلمية ، بيروت– لبنان ، الطبعة الأولى ، ١٤٢١ هـ – ٢٠٠٠م .
- الأحرف السبعة ومنزلة القراءات منها ، للدكتور / حسن ضياء الدين عتر ، دار البشائر الإسلامية ، بيروت – لبنان، الطبعة الأولى، ١٤٠٩هـ – ١٩٨٨م .
- الإرشادات الجلية في القراءات السبع من طريق الشاطبية ، للدكتور / محمد سالم محيسن ، مؤسسة شباب الجامعة ، ١٤٠٥هـ – ١٩٨٥م .
- الأساليب الإنشائية في النحو العربي ، لعبد السلام محمد هارون ، مكتبة الخانجي ، مصر ، الطبعة الثانية ، ١٣٩٩ هـ – ١٩٧٩ م .
- الاقتضاب في شرح أدب الكتّاب ، لأبي محمد عبد الله بن محمد بن السيد البطليوسي ، تحقيق محمد باسل عيون السود ، دار الكتب العلمية ، بيروت – لبنان ، الطبعة الأولى ، ١٤٢٠هـ – ١٩٩٩م .
- الإنصاف ، للشيخ / كمال الدين الأنباري النحوي ، المكتبة العصرية ، صيدا – بيروت ، ١٤٠٧ هـ – ١٩٨٧م .

- الإيضاح في علوم البلاغة ، للخطيب القزويني ، تحقيق د. محمد عبد المنعم خفاجي ، دار الجيل ، بيروت ، الطبعة الثالثة .
- الإيضاح لناسخ القرآن و منسوخه ، لأبي محمد مكي بن أبي طالب القيسي ، تحقيق د. أحمد حسن فرحات ، دار المنارة ، جدة .
- البحر المحيط ، لأبي حيان الأندلسي الغرناطي ، دار إحياء التراث العربي ، بيروت ، الطبعة الثانية ، ١٤١١هـ – ١٩٩٠م .
- البرهان في علوم القرآن ، لبدر الدين محمد بن عبد الله الزركشي ، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم ، دار المعرفة ، بيروت – لبنان ، الطبعة الثانية .
- البلاغة العربية في ثوبها الجديد (علم المعاني) ، للدكتور / بكري شيخ أمين ، دار العلم للملايين ، بيروت ، الطبعة الأولى ، ذوالقعدة١٣٩٩هـ .
- البلاغة العربية في ضوء الأسلوبية ونظرية السياق ، للأستاذ الدكتور / محمد بركات ، دار وائل للنشر ، الطبعة الأولى .
- البلاغة فنونها وأفنانها (علم المعاني) ، للدكتور / فضل حسن عباس ، دار الفرقان ، عمّان الأردن ، الطبعة الخامسة ، ١٤١٨هـ–١٩٩٨م .
- البلاغة والاتصال ، للدكتور / جميل عبد المجيد ، دار غريب، القاهرة .
- التذكرة في القراءات الثمان ، لأبي الحسن طاهر عبد المنعم المقرئ الحلبي ، تحقيق أيمن رشدي سويد ، الجماعة الخيرية لتحفيظ القرآن بجدة ، جدة .
- التوجيه البلاغي للقراءات القرآنية ، للدكتور / أحمد سعد محمد ، مكتبة الآداب ، القاهرة ، الطبعة الأولى ، ١٤١٨هـ–١٩٩٨م .
- التيسير في القراءات السبع ، لأبي عمرو عثمان بن سعيد الداني ، عني بتصحيحه أوتويرتزل ، دار الكتب العلمية ، بيروت– لبنان .

📖 الجامع لأحكام القرآن ، لأبي عبد الله الأنصاري القرطبي ، تحقيق عبد الرزاق المهدي ، دار الكتاب العربي ،بيروت ، الطبعة الأولى ، ١٤١٨هـ-١٩٩٧م .

📖 الجنى الداني في حروف المعاني ، لحسن بن قاسم المرادي ، تحقيق طه محسن ، ساعدت جامعة بغداد على طبعه ، دار الكتب للطباعة والنشر ١٣٩٦هـ _ ١٩٧٦م .

📖 الحجة في القراءات السبع ، لابن خالويه ، تحقيق الشيخ / أحمد فريد المزيدي ، دار الكتب العلمية ، بيروت- لبنان ، الطبعة الأولى ، ١٤٢٠هـ-١٩٩٩م .

📖 الحجة للقراء السبعة ، لأبي علي الفارسي ، دار الكتب العلمية ، بيروت- لبنان ، الطبعة الأولى ، ١٤٢١هـ -٢٠٠١م .

📖 الخصائص ، لأبي الفتح عثمان بن جنى ، تحقيق محمد علي النجار ، دار الكتاب العربي ، بيروت- لبنان .

📖 الدر المصون في علوم الكتاب المكنون ، لأحمد بن يوسف المعروف بالسمين الحلبي ، تحقيق د. أحمد محمد الخراط ، دار القلم ، دمشق ، الطبعة الأولى، ١٤١٤هـ- ١٩٩٣ .

📖 الصاحبي ، لابن فارس ، تحقيق د. عمر فاروق الطباع ، مكتبة المعارف ، بيروت- لبنان ، الطبعة الأولى ، ١٤١٤ هـ- ١٩٩٣م .

📖 الصحيح المسند من أسباب النزول ، لأبي عبد الرحمن مقبل بن هادي الوادعي ، مكتبة ابن تيمية ، القاهرة ، ١٤١٤هـ-١٩٩٣م .

📖 الطراز المتضمن لأسرار البلاغة وعلوم حقائق الإعجاز ، للسيد الإمام يحيى بن حمزة بن علي العلوي اليمني ، تحقيق محمد عبد السلام شاهين ، دار الكتب العلمية ، بيروت- لبنان ، الطبعة الأولى ، ١٤١٥ هـ- ١٩٩٥م .

📖 القراءات أحكامها ومصادرها ، للدكتور / شعبان محمد إسماعيل ، دار السلامة ، القاهرة– مصر ، الطبعة الثانية ، ١٤٢٠هـ– ١٩٩٩م .

📖 القراءات القرآنية تاريخ وتعريف ، للدكتور / عبد الهادي الفضلي ، دار القلم ، بيروت– لبنان ، الطبعة الثانية .

📖 القراءات القرآنية تاريخها– ثبوتها– حجتيها– وأحكامها ، لعبد الحليم بن محمد الهادي قابة ، دار الغرب الإسلامي ، الطبعة الأولى .

📖 القراءات وأثرها في التفسير والأحكام ، لمحمد بن عمر بن سالم بازمول ، أطروحة دكتوراه إشراف د. عبد الستار سعيد ، دار الهجرة للنشر والتوزيع ، الرياض ، الطبعة الأولى ،١٤١٧هـ .

📖 الكتاب الموضح في وجوه القراءات وعللها ، للإمام نصر بن علي بن محمد الشيرازي الفارسي المعروف بابن أبي مريم ، تحقيق د. عمر حمدان الكبيسي ، الجماعة الخيرية لتحفيظ القرآن بجدة ، جدة ، الطبعة الأولى ، ١٤١٤ هـ .

📖 الكشاف ، لأبي القاسم جار الله محمود بن عمر الزمخشري الخوارزمي ، دار المعرفة ، بيروت – لبنان .

📖 الكشف عن وجوه القراءات السبع ، لأبي محمد مكي بن أبي طالب القيسي ، تحقيق د. محي الدين رمضان ، مؤسسة الرسالة ، بيروت ، الطبعة الخامسة ، ١٤١٨هـ – ١٩٩٧م .

📖 المحتسب في تبيين وجوه شواذ القراءات والإيضاح عنها، لأبي الفتح عثمان بن جني ، تحقيق محمد عبد القادر عطا ، دار الكتب العلمية ، بيروت – لبنان .

📖 المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز ، لابن عطية الأندلسي ، تحقيق عبد السلام عبد الشافي محمد ، دار الكتب العلمية ، بيروت لبنان ، الطبعة الأولى ، ١٤٢٢هـ – ٢٠٠١م .

📖 المرتجل ، لأبي محمد عبد الله بن أحمد بن أحمد ابن الخشاب ، تحقيق علي حيدر ، دمشق ، ١٣٩٢هـ- ١٩٧٢م .

📖 المزهر في علوم اللغة وأنواعها ، للعلامة السيوطي ، تحقيق (محمد أحمد جاد المولى بك ، محمد أبو الفضل إبراهيم ، علي محمد البجاوي) ، المكتبة العصرية ، صيدا – بيروت ، ١٩٨٦م .

📖 المسائل العسكريات ، لأبي علي الفارسي ، تحقيق إسماعيل أحمد عمايرة ، مكتبة الجامعة الأردنية .

📖 المكتفى في الوقف والابتدا ، لأبي عمرو الداني ، دراسة وتحقيق جايد زيدان مخلف ، الجمهورية العراقية ، مطبعة وزارة الأوقاف والشؤون الدينية .

📖 المنزع البديع ، للسجلماسي ، تحقيق علال الغازي ، مكتبة معارف،الرباط – المغرب .

📖 النشر في القراءات العشر ، لابن الجزري ، تقديم الشيخ محمد علي الضباع ، تخريج زكريا عميرات دار الكتب العلمية ، بيروت _ لبنان ، الطبعة الأولى ، ١٤١٨هـ _ ١٩٩٨م .

📖 أمالي ابن الشجري ، لهبة الله بن علي بن محمد بن حمزة الحسن العلوي ، تحقيق د. محمود محمد الطناحي ، مكتبة الخانجي ، القاهرة ، الطبعة الأولى ، ١٤١٣هـ – ١٩٩٢م .

📖 إملاء ما منّ به الرحمن ، لأبي البقاء عبد الله بن الحسين بن عبد الله العكبري ، الناشر ، دار الفكر ، بيروت – لبنان ، الطبعة الأولى ، ١٤٠٦هـ – ١٩٨٦ م .

📖 أنوار الربيع في أنواع البديع ، للسيد علي صدر الدين بن معصوم المدني ، حققه وترجم لشعرائه شاكر هادي شكر ، مطبعة النعمان ، النجف . العراق ، الطبعة الأولى ١٣٨٨هـ _ ١٩٦٨ م .

- بغية الإيضاح لتلخيص المفتاح في علوم البلاغة ، لعبد المتعال الصعيدي ، دار الهجرة .
- تأويل مشكل القرآن لابن قتيبة ، شرح وتحقيق السيد أحمد صقر ، دار إحياء الكتب العربية ، عيسى البابي الحلبي وشركاه .
- تسهيل الفوائد وتكميل المقاصد ، لابن مالك ، تحقيق محمد كامل بركات ، دار الكتاب العربي ، ١٣٨٧هـ – ١٩٦٧م .
- تفسير القرآن الحكيم الشهير بتفسير المنار ، لمحمد رشيد رضا ، دار المعرفة ، بيروت – لبنان .
- تفسير القرآن العظيم ، للحافظ ابن كثير ، تصحيح الشيخ خليل الميس ، دار القلم ، بيروت – لبنان ، الطبعة الثانية .
- تفسير النسفي ، للإمام عبد الله النسفي ، تحقيق الشيخ / زكريا عميرات ، دار الكتب العلمية، بيروت – لبنان ، الطبعة الأولى ، ١٤١٥هـ – ١٩٩٥م .
- توجيه مشكل القراءات العشرية ، للدكتور / عبد العزيز بن علي الحربي ، دار ابن حزم ، الطبعة الأولى ، ١٤٢٤هـ – ٢٠٠٣م .
- جامع البيان عن تأويل آي القرآن ، لأبي جعفر الطبري ، ضبط وتوثيق وتخريج صدقي جميل العطار ، دار الفكر ، بيروت لبنان ، ١٤١٥هـ – ١٩٩٥م .
- جواهر البلاغة في المعاني والبيان والبديع ، للسيد أحمد الهاشمي ، ضبط وتدقيق د.يوسف الصميلي ، المكتبة العصرية ، صيدا – بيروت ، الطبعة الأولى ، ١٤٢٠هـ – ١٩٩٩م .
- حاشية الشهاب ، للقاضي شهاب الدين الخفاجي ، تحقيق الشيخ / عبد الرزاق المهدي ، دار الكتب العلمية ، بيروت – لبنان .

- حجة القراءات ، للإمام الجليل أبي زرعة بن زنجلة ، تحقيق سعيد الأفغاني ، مؤسسة الرسالة ، بيروت – لبنان ، الطبعة الثانية ، ١٣٩٩هـ –١٩٧٩م .
- حديث الأحرف السبعة ، للدكتور / عبد العزيز بن عبد الفتاح القاري ، مؤسسة الرسالة ، بيروت – لبنان ، الطبعة الأولى ، ١٤٢٣هـ – ٢٠٠٢م .
- دلائل الإعجاز ، للإمام عبد القاهر الجرجاني ، تحقيق محمود محمد شاكر ، مكتبة الخانجي ، مصر – القاهرة ، ١٤٠٩هـ .
- دلالات التراكيب دراسة بلاغية ، للدكتور / محمد أبو موسى ، مكتبة وهبة ، القاهرة ، الطبعة الأولى ، ١٣٩٩ هـ – ١٩٧٩م .
- ديوان ذي الرمة ، قدم له وشرحه أحمد حسن بسج ، دار الكتب العلمية ، بيروت _ لبنان ، الطبعة الأولى ١٤١٥هـ _ ١٩٩٥م .
- ديوان الشماخ بن ضرار ، شرح وتقديم : تدري مايو ، دار الكتاب العربي ، بيروت ، الطبعة الأولى ، ١٤١٤ هـ _١٩٩٤ م .
- ديوان امرئ القيس ، دار صادر ، بيروت ، ١٤٢١هـ –٢٠٠٠م .
- ديوان عمر بن أبي ربيعة ، دار بيروت ، بيروت .
- روح المعاني في تفسير القرآن الكريم و السبع المثاني ، للعلامة / أبي فضل الألوسي البغدادي ، تحقيق علي عبد الباري عطية ، دار الكتب العلمية ، بيروت – لبنان ، الطبعة الأولى ، ١٤١٥هـ – ١٩٩٤م .
- زاد المسير في علم التفسير ، للإمام أبي الفرج جمال الدين عبد الرحمن بن علي بن محمد الجوزي القرشي البغدادي ، المكتب الإسلامي ، بيروت ، الطبعة الرابعة ، ١٤٠٧هـ – ١٩٨٧م .
- سير أعلام النبلاء ، للإمام شمس الدين محمد بن أحمد بن عثمان الذهبي ، مؤسسة الرسالة ، بيروت ، الطبعة الثانية ، ١٤١٢هـ –١٩٩٢م .

- شرح ابن عقيل ، تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد ، دار التراث ، القاهرة ، الطبعة العشرون ، ١٤٠٠هـ –١٩٨٠م .
- شرح أدب الكاتب ، لأبي منصور موهوب بن أحمد الجواليقي ، دار الكتاب العربي ، بيروت .
- شرح المفصَّل ، لابن يعيش ، عالم الكتب ، بيروت .
- شرح شذور الذهب في معرفة كلام العرب ، لمحمد محي الدين عبد الحميد ، المكتبة العصرية ، صيدا – بيروت ، ١٤١١هـ –١٩٩١م .
- شرح قطر الندى وبلّ الصدى ، لأبي محمد عبد الله جمال الدين بن هشام الأنصاري ، المكتبة العصرية ، صيدا – بيروت ، الطبعة الأولى ، ١٤١٤هـ – ١٩٩٤م .
- شروح التلخيص ، ويتضمن (مختصر السعد التفتازاني ، مواهب الفتاح لابن يعقوب المغربي ، عروس الأفراح للسبكي ، الإيضاح للقزويني ، حاشية الدسوقي) ، دار الكتب العلمية ، لبنان .
- صحيح البخاري ، مراجعة : محمد علي الخطيب وهشام بخاري ، المكتبة العصرية ، بيروت ، الطبعة الثانية ، ١٤١٨هـ – ١٩٩٧م .
- صحيح سنن الترمذي ، للعلامة محمد ناصر الدين الألباني ، المكتب الإسلامي ، بيروت ، الطبعة الأولى ، ١٤٠٨هـ – ١٩٨٨م .
- صحيح مسلم بشرح النووي / الطبعة المصرية بالأزهر ، الطبعة الأولى ١٣٤٧ هـ . ١٩٢٩ م .
- صور الأمر في العربية بين التنظير والاستعمال ، للدكتور / سعود بن غازي أبو تاكي ، دار غريب ، القاهرة ، الطبعة الأولى ، ١٤٢٦هـ – ٢٠٠٥م .

- علم المعاني دراسة بلاغية ونقدية لمسائل المعاني ، للدكتور / بسيوني عبد الفتاح فيود ، مؤسسة المختار ، القاهرة ، دار المعالم الثقافية ، الأحساء ، الطبعة الأولى ، ١٤١٩ هـ – ١٩٩٨م .
- علم المعاني ودلالات الأمر في القرآن الكريم ، للدكتور/ مختار عطية ، دار الوفاء لدنيا الطباعة والنشر ، الإسكندرية .
- علم المعاني ، للدكتور / عبد العزيز عتيق ، دار النهضة العربية ، بيروت ، ١٤٠٥ هـ – ١٩٨٥م .
- علوم البلاغة : البيان والمعاني والبديع ، لأحمد مصطفى المراغي ، تحقيق محمد أمين النواوي ، دار الكتب العلمية ، بيروت – لبنان ، الطبعة الثالثة ، ١٤١٤هـ – ١٩٩٣م .
- فتح الباري بشرح صحيح البخاري ، لأحمد بن علي بن حجر العسقلاني ، حقق أصولها وأجازها الشيخ عبد العزيز بن عبد الله بن باز ، دار الفكر ، بيروت – لبنان ، ١٤١٠هـ –١٩٩٠م .
- فتح القدير في علم التفسير ، للإمام الشوكاني ، تحقيق أحمد عبد السلام ، دار الكتب العلمية ، بيروت – لبنان .
- في ظلال القرآن ، سيد قطب ، دار الشروق _ بيروت ، الطبعة الشرعية الثانية عشرة ، ١٣٠٦ هـ _ ١٩٨٦ م .
- كتاب السبعة في القراءات ، لابن مجاهد ، تحقيق د. شوقي ضيف ، الطبعة الثالثة ، دار المعارف .
- كتاب سيبويه ، لأبي بشر عمرو بن عثمان بن قنبر ، تحقيق عبد السلام محمد هارون ، دار الجيل ، بيروت ، الطبعة الأولى .

- كتاب معاني الحروف ، لأبي الحسن علي بن عيسى النحوي ، تحقيق د. عبد الفتاح إسماعيل شلبي ، دار الشروق ، جدة .
- لمحات في علوم القرآن واتجاهات التفسير ، لمحمد الصباغ ، المكتب الإسلامي ، بيروت .
- مشكل إعراب القرآن ، لأبي محمد علي بن أبي طالب القيسي ، تحقيق حاتم صالح الضامن ، منشورات وزارة الإعلام في الجمهورية العراقية ، ١٩٧٥م .
- معاني القراءات ، للإمام أبي منصور الأزهري ، تحقيق الشيخ / أحمد فريد المزيدي ، دار الكتب العلمية ، بيروت – لبنان ، الطبعة الأولى ، ١٤٢٠هـ –١٩٩٩م .
- معاني القرآن وإعرابه ، للزَّجَّاج ، تحقيق د. عبد الجليل عبده شلبي ، عالم الكتب ، بيروت ، الطبعة الأولى ، ١٤٠٨هـ – ١٩٨٨ م .
- معاني القرآن ، لأبي زكريا الفرَّاء ، عالم الكتب ، بيروت ، الطبعة الثالثة ، ١٤٠٣هـ – ١٩٨٣ م .
- معاني القرآن ، للأخفش الأوسط ، تحقيق د. فائز فارس .
- معرفة القراء الكبار ، للإمام شمس الدين أبي عبد الله محمد بن أحمد بن عثمان الذهبي ، حققه وقيّد نصه وعلّق عليه (بشار عواد معروف ، شعيب الأرناؤوط ، صالح مهدي عباس) ، مؤسسة الرسالة ، بيروت ، الطبعة الأولى ، ١٤٠٤هـ – ١٩٨٤ م .
- مغني اللبيب عن كتب الأعاريب ، لجمال الدين ابن هشام الأنصاري ، تحقيق د. مازن المبارك محمد علي حمد الله ، دار الفكر ، بيروت – لبنان ، الطبعة الأولى ، ١٤١٢هـ – ١٩٩٢م .
- مفتاح العلوم ، للسكاكي ، ضبطه وعلق عليه : نعيم زرزور ، دار الكتب العلمية ، بيروت – لبنان ، الطبعة الثانية ، ١٤٠٧ هـ – ١٩٨٧م .

📖 مناهل العرفان في علوم القرآن ، لمحمد عبد العظيم الزرقاني ، تحقيق أحمد شمس الدين ، دار الكتب العلمية ، بيروت – لبنان ، ١٤١٦هـ –١٩٩٦م .

📖 منجد المقرئين ومرشد الطالبين ، لابن الجزري ، دار الكتب العلمية ، بيروت _ لبنان ، ١٤٠٠هـ _١٩٨٠م .

📖 نهاية الإيجاز في دراية الإعجاز ، للإمام فخر الدين الرازي ، تحقيق د. بكري شيخ أمين ، دار العلم للملايين ، بيروت – لبنان ، الطبعة الأولى ، ١٩٨٥م .

📖 نواسخ القرآن ، للعلامة ابن الجوزي ، تحقيق د. محمد أشرف علي الملباري ، الطبعة الثانية ، ١٤٢٣ هـ – ٢٠٠٣م .

الفهارس

فهرس الآيات القرآنية

الآية بقراءة حفص	اسم السورة	رقم الآية	الآية بالقراءات الأخرى	رقم الصفحة
﴿و لا تُسْأَلُ عن أصحاب الجحيم ﴾	البقرة	١١٩	(و لا تَسْأَلْ عن أصحاب الجحيم)	١٣٦
﴿و اتخِذوا من مقام إبراهيم مصلى ﴾	البقرة	١٢٥	(و اتخَذوا من مقام إبراهيم مصلى)	١٠٠
﴿ فلا رفثَ و لا فسوقَ و لا جدالَ في الحج ﴾	البقرة	١٩٦	(فلا رفثٌ و لا فسوقٌ و لا جدالَ)	١٤٤
﴿لا تُضارَّ والدةٌ بولدها ﴾	البقرة	٢٣٣	(لا تضارُّ والدةٌ بولدها)	١٤٧
﴿وصيةً لأزواجهم ﴾	البقرة	٢٤٠	(وصيةٌ لأزواجهم)	١٢٨
﴿قال أعلمُ أنَّ الله على كل شيء قدير ﴾	البقرة	٢٥٩	(قال اعلمْ أنَّ الله على كل شيء قدير)	١٠٤
﴿أنْ يُؤتى أحد مثل ما أوتيتم ﴾	آل عمران	٧٣	(أأنْ يؤتى أحد مثل ما أوتيتم)	٥٩
﴿و لْيَحْكُمْ أهل الإنجيل بما أنزل الله فيه ﴾	المائدة	٤٧	(و لِيَحْكُمَ أهل الإنجيل)	١٢٣
﴿و اللهِ رَبِّنَا ما كنا مشركين ﴾	الأنعام	٢٣	(و اللهِ رَبَّنَا ما كنا مشركين)	١٥٥
﴿يا ليتنا نُرَدُّ و لا نكذِّبَ بآيات ربنا و نكونَ ﴾	الأنعام	٢٧	(و لا نكذِّبُ بآيات ربنا و نكونُ)	١٧٠
﴿و إذ قال إبراهيم لأبيه آزرَ ﴾	الأنعام	٧٤	(لأبيه آزرُ)	١٥٩
﴿إنكم لتأتون الرجال شهوة ﴾	الأعراف	٨١	(أإنكم لتأتون)	٦٤
﴿أوَ أمِنَ أهل القرى ﴾	الأعراف	٩٨	(أوْ أمن أهل القرى)	٦٥
﴿إنَّ لنا لأجراَ ﴾	الأعراف	١١٣	(أإنَّ لنا لأجرا)	٩١

﴿قال فرعون آمنتم به ﴾	الأعراف	١٢٣	(أآمنتم به)	٧٣
﴿ قالوا لئن لم يرحمنا ربُّنا ويغفر لنا ﴾	الأعراف	١٤٩	(قالوا لئِن لم ترحمنا ربَّنا وتغفر لنا)	١٥٧
﴿ قال موسى ما جئتم به السحر ﴾	يونس	٨١	(ما جئتم به آلسحر)	٦٧
﴿ فاستقيما ولا تَتَّبعانِّ ﴾	يونس	٨٩	(ولا تَتَّبعانِ)	١٥٠
الآية بقراءة حفص	**اسم السورة**	**رقم الآية**	**الآية بالقراءات الأخرى**	**رقم الصفحة**
﴿ قالوا أإنك لأنت يوسف ﴾	يوسف	٩٠	(قالوا إنك لأنت يوسف)	٩٣
﴿ أإذا كنا تراباً أإنا لفي خلق جديد ﴾	الرعد	٥	(أإذا... إنا)،(إذا... أإنا)	٨٦
﴿ ألا تتخذوا من دوني وكيلاً ﴾	الإسراء	٢	(ألا يتخذوا)	١٤٠
﴿ وقالوا أإذا كنا عظاماً ورفاتاً أإنا ﴾	الإسراء	٤٩	(أإذا... إنا)،(إذا... أإنا)	٨٦
﴿ قل سبحان ربي ﴾	الإسراء	٩٣	(قال سبحان ربي)	١٠٨
﴿ وقالوا أإذا كنا عظاماً ورفاتاً أإنا ﴾	الإسراء	٩٨	(أإذا... إنا)،(إذا... أإنا)	٨٦
﴿ ولا يشركُ في حكمه أحداً ﴾	الكهف	٢٦	(ولا تشركْ في حكمه أحداً)	١٤١
﴿ ويقول الإنسان أإذا ما مت ﴾	مريم	٦٦	(إذا ما مت)	٧٥
﴿ قال آمنتم له ﴾	طه	٧١	(قال أآمنتم له)	٧٣
﴿ لاتخاف دركاً ولا تخشى ﴾	طه	٧٧	(لاتخف دركاً ولا تخشى)	١٤٢
﴿ فلا يخاف ظلماً ﴾	طه	١١٢	(فلا يخف ظلماً)	١٥١
﴿ قال ربي يعلم القول ﴾	الأنبياء	٤	(قل ربي يعلم القول)	١١٠
﴿ قال ربِّ احكم بالحق ﴾	الأنبياء	١١٢	(قل ربِّ احكم)	١١١
﴿ قالوا أإذا متنا وكنا تراباً وعظاماً أإنا لمبعوثون ﴾	المؤمنون	٨٢	(أإذا... إنا)،(إذا... أإنا)	٨٦
﴿ قال كم لبثتم في الأرض...قال إن لبثتم إلا ﴾	المؤمنون	١١٤.١١٢	(قل كم .. قل إن)،(قل كم .. قال إن)	١١٢
﴿ قال آمنتم له ﴾	الشعراء	٤٩	(قال أآمنتم له)	٧٣
﴿ ألا يسجدوا لله ﴾	النمل	٢٥	(ألا يا اسجدوا)	١٦٢
﴿ بل ادارك علمهم في الآخرة﴾	النمل	٦٦	(بلْ أدْرَك)	٧٧
﴿ أإذا كنا تراباً وآباؤنا أإنا لمخرجون ﴾	النمل	٦٧	(أإذا... إنا)،(إذا... أإنا)	٨٦

الآية بقراءة حفص	اسم السورة	رقم الآية	الآية بالقراءات الأخرى	رقم الصفحة
﴿ ولوطا إذ قال لقومه إنكم لتأتون..أإنكم لتأتون﴾	العنكبوت	٢٩.٢٨	(أإنكم...أإنكم)،(أإنكم...إنكم)	٨٦
﴿ليكفروا بما آتيناهم وليتمتعوا ﴾	العنكبوت	٦٦	(ولْيتمتعوا)	١٢٥
﴿وقالوا أإذا ضللنا في الأرض أإنا لفي ﴾	السجدة	١٠	(أإذا... إنا)،(إذا... أإنا)	٨٦
﴿فقالوا ربَّنا باعِد﴾	سبأ	١٩	(ربَّنا بعِّد) ، (ربُّنا باعَدَ)	١١٤
﴿ أإذا متنا وكنا تراباً وعظاماً أإنا لمبعوثون﴾	الصافات	١٦	(أإذا... إنا)،(إذا ... أإنا)	٨٦
﴿ أوَ آباؤنا الأولون ﴾	الصافات	١٧	(أوْ آباؤنا)	٨٩
﴿ أإذا متنا وكنا تراباً وعظاماً أإنا لمدينون﴾	الصافات	٥٣	(أإذا... إنا)،(إذا ... أإنا)	٨٦
﴿ أصطفى البنات على البنين ﴾	الصافات	١٥٣	(اصطفى البنات على البنين)	٨٠
﴿ أتَّخذناهم سِخرياً ﴾	ص	٦٣	(اتَّخذناهم سخرياً)	٦٨
﴿ لولا فصلت آياته أأعجمي وعربي﴾	فصلت	٤٤	(أعجمي وعربي)	٨٢
﴿ قال أولو جئتكم بأهدى ﴾	الزخرف	٢٤	(قل أولو جئتكم)	١١٧
﴿ ويوم يعرض الذين كفروا على النار أذهبتم ﴾	الأحقاف	٢٠	(أأذهبتم)	٧٠
﴿ أإذا متنا وكنا تراباً وعظاماً أإنا لمبعوثون﴾	الواقعة	٤٧	(أإذا... إنا)،(إذا... أإنا)	٨٦
﴿ أوَ آباؤنا الأولون ﴾	الواقعة	٤٨	(أوْ آباؤنا)	٨٩
﴿ إنا لمغرمون﴾	الواقعة	٦٦	(أإنا لمغرمون)	٨٤
﴿ أنْ كان ذا مال وبنين ﴾	القلم	١٤	(أأنْ كان ذا مال)	٧٢
﴿ قل إنما أدعو ربي ﴾	الجن	٢٠	(قال إنما أدعو ربي)	١٢١
﴿ انطلِقوا إلى ظل ذي ثلاث شعب﴾	المرسلات	٣٠	(انطلَقوا إلى ظل)	١٢٢
﴿ يقولون أإنا لمردودون في الحافرة أإذا كنا ﴾	النازعات	١١.١٠	(أإنا... إذا)،(إنا... أإذا)	٨٦

فهرس الموضوعات

المقدمة ٢
التمهيد ١٠
في أنواع الكلام ١١
الخبر ١٤
الإنشاء ٢٠
المزاوجة بين الخبر والإنشاء ٣٩
القراءات و النظم القرآني ٤٧
الفصل الأول : المزاوجة بين الخبر والاستفهام وأثرها في إثراء دلالات السياق ٥٥
المبحث الأول : المزاوجة بين الخبر والاستفهام لإثراء السياق بدلالات
الإنكار والتوبيخ ٥٨
الموضع الأول : قوله (أنْ يؤتى) [آل عمران:٧٣] ٥٩
الموضع الثاني : قوله (إنكم لتأتون الرجال) [الأعراف:٨١] ٦٤
الموضع الثالث : قوله (أوَ أمن أهل القرى) [الأعراف:٩٨] ٦٥
الموضع الرابع : قوله (ما جئتم به السحر) [يونس:٨١] ٦٧
الموضع الخامس : قوله (أتخذناهم سخرياً) [ص:٦٣] ٦٨
الموضع السادس : قوله (أذهبتم طيباتكم) [الأحقاف:٢٠] ٧٠

الموضع السابع : قوله (أنْ كان ذا مال وبنين) [القلم:١٤] ٧٢
الموضع الثامن : قوله (آمنتم) من [الأعراف:١٢٣]، [طه:٧١]، [الشعراء:٤٩] ٧٣

المبحث الثاني : المزاوجة بين الخبر والاستفهام لإثراء السياق بدلالات
الإنكار والتكذيب ٧٥
الموضع الأول : قوله (أإذا ما مت) [مريم:٦٦] ٧٥
الموضع الثاني : قوله (بل ادَّارك) [النمل:٦٦] ٧٧
الموضع الثالث : قوله (أصطفى البنات) [الصافات:١٥٣] ٨٠
الموضع الرابع : قوله (أأعجمي وعربي) [فصلت:٤٤] ٨٢
الموضع الخامس : قوله (إنا لمغرمون) [الواقعة:٦٦] ٨٤
الموضع السادس : قوله (أإذا ... أإنا) من [الرعد:٥]، [الإسراء:٤٩]، [الإسراء:
٩٨]، [المؤمنون:٨٢]،[النمل:٦٧]،[العنكبوت:٢٩.٢٨]،
[السجدة:١٠]،[الصافات:١٦]،[الصافات:٥٣]،[الواقعة:٤٧]،
[النازعات:١١.١٠] ٨٦
الموضع السابع : قوله (أوَ أباؤنا الأولون) من [الصافات:١٧] ،[الواقعة:٤٨] ٨٩

المبحث الثالث : المزاوجة بين الخبر والاستفهام لإثراء السياق بدلالات
التقرير والتأكيد ٩١
الموضع الأول : قوله (إنَّ لنا لأجراً) [الأعراف:١١٣] ٩١
الموضع الثاني : قوله (أإنك لأنت يوسف) [يوسف:٩٠] ٩٣

الفصل الثاني : المزاوجة بين الخبر والأمر وأثرها في إثراء دلالات السياق ٩٧

المبحث الأول: المزاوجة بين الخبر وصيغة فعل الأمر لإظهار صور التجاوب
والمعاقبة بين دلالات الطلب وحكاية التنفيذ ٩٩
الموضع الأول : قوله (واتخِذوا من مقام إبراهيم مصلى) [البقرة:١٢٥] ١٠٠
الموضع الثاني : قوله (قال أعلم أنّ الله على كل شيءٍ قدير) [البقرة:٢٥٩] ١٠٤

الموضع الثالث : قوله (قل سبحان ربي) [الإسراء:٩٣] ١٠٨

الموضع الرابع : قوله (قال ربي يعلم القول) [الأنبياء:٤] ١١٠
الموضع الخامس : قوله (قال ربِّ احكم بالحق) [الأنبياء:١١٢] ١١١
الموضع السادس : قوله (قال كم لبثتم) [المؤمنون:١١٢] ١١٢
الموضع السابع : قوله (فقالوا ربَّنا باعدْ بين أسفارنا) [سبأ:١٩] ١١٤
الموضع الثامن : قوله (قال أو لو جئتكم بأهدى) [الزخرف:٢٥] ١١٧
الموضع التاسع : قوله (قل إنما أدعو ربي ولا أشرك به أحداً) [الجن:٢٠] ١٢١
الموضع العاشر : قوله (انطلِقوا إلى ظلٍ ذي ثلاث شعب) [المرسلات:٣٠] ١٢٢

المبحث الثاني : المزاوجة بين الخبر وصيغة المضارع المقترن بلام الأمر لإظهار
صور السياق المتقابلة بين وجهي الطلب والتعليل ١٢٣
الموضع الأول : قوله (وليحكم أهل الإنجيل بما أنزل الله فيه) [المائدة:٤٧] ١٢٣
الموضع الثاني : قوله (ليكفروا بما آتيناهم وليتمتعوا) [العنكبوت:٦٦] ١٢٥

المبحث الثالث : المزاوجة بين الخبر وصيغة المصدر النائب عن فعل الأمر لإظهار
صورة التطور الموقفي من دلالات التجدد والتغير إلى دلالات الثبوت
والدوام وذلك في قوله (وصيةً لأزواجهم) [البقرة:٢٤٠].... ١٢٨

الفصل الثالث : المزاوجة بين الخبر والنهي وأثرها في إثراء دلالات السياق ١٣٤

المبحث الأول : المزاوجة بين الخبر والنهي لإظهار دلالات التكاتف والتقوية
بتضمين إحدى القراءتين معنى القراءة الأخرى ١٣٦
الموضع الأول : قوله (ولا تُسأل عن أصحاب الجحيم) [البقرة:١١٩] ١٣٦
الموضع الثاني : قوله (ألا تتخذوا من دوني وكيلاً) [الإسراء:٢] ١٤٠
الموضع الثالث : قوله (ولا يشرك في حكمه أحداً) [الكهف:٢٦] ١٤١
الموضع الرابع : قوله (لاتخاف دركاً ولا تخشى) [طه:٧٧] ١٤٢

المبحث الثاني : المزاوجة بين الخبر والنهي لإظهار دلالات التأكيد وذلك بحمل
إحدى القراءتين على معنى الأخرى ١٤٤
الموضع الأول: قوله (فلا رفثَ ولا فسوقَ ولا جدال في الحج) [البقرة:١٩٦]... ١٤٤
الموضع الثاني : قوله (لا تضارَّ والدة بولدها) [البقرة:٢٣٣] ١٤٧
الموضع الثالث : قوله (فاستقيما ولا تتبعانِّ) [يونس:٨٩] ١٥٠
الموضع الرابع : قوله (فلا يخاف ظلماً ولا هضماً) [طه:١١٢] ١٥١
الفصل الرابع : المزاوجة بين الخبر والنداء وأثرها في إثراء دلالات السياق ١٥٣
المبحث الأول : المزاوجة بين الخبر والنداء لإثراء السياق بدلالات
الإقرار والخضوع ١٥٥
الموضع الأول : قوله (والله ربنا ما كنا مشركين) [الأنعام:٢٣] ١٥٥
الموضع الثاني : قوله (لئن لم يرحمنا ربنا ويغفر لنا) [الأعراف:١٤٩] ١٥٧
المبحث الثاني : المزاوجة بين الخبر والنداء لإثراء السياق بدلالات البيان
والاستعطاف ١٥٩
الموضع الأول : قوله (وإذ قال إبراهيم لأبيه آزرَ) [الأنعام:٧٤] ١٥٩
الموضع الثاني : قوله (ألا يسجدوا لله الذي يخرج) [النمل:٢٥] ١٦٢
الفصل الخامس : المزاوجة بين الخبر والتمني وأثرها في إثراء دلالات السياق .. ١٦٩
المزاوجة بين الخبر والتمني في قوله : (يا ليتنا نرد ولا نكذبَ بآيات ربنا
ونكونَ من المؤمنين) [الأنعام:٢٧]..... ١٧٠
الخاتمة ١٧٥
المصادر والمراجع ١٧٧
الفهارس ١٨٨

فهرس الآيات القرآنية ١٨٩
فهرس الموضوعات ١٩٢